المختارات السائرة

مجموعة من روائع النثر والشعر مما ذاع في الاقطار وجرى على الالسن
لسموّ معانيه وجمال مبانيه · وهي مرتبة بحسب المواضيع
ومصدَّرة بدراسات تمهيدية في الفنون
الادبية وخصائصها الرئيسية

مع تعليقات وحواشٍ بقلم جامعها

انيس الخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

المختارات السائرة

مجموعة من روائع النثر والشعر مما ذاع في الاقطار وجرى على الالسن
لسموّ معانيه وجمال مبانيه · وهي مرتبة بحسب المواضيع
ومصدَّرة بدراسات تمهيدية في الفنون
الادبية وخصائصها الرئيسية

مع تعليقات وحواشٍ بقلم جامعها

انيس الخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

المطبعة الاميركانية — بيروت

١٩٤٦

مقدمة

في الادب وكيف نتذوّقه

تتناول في مباحث وجيزة خصائص الادب واركانه العامة وسبل النقّاد في دراسته

توطئة

الادب نوعان — نوع بسيط يوجّه عادةً الى العامّة كبعض الشعر او النثر العادي والاغاني الشعبيّة . وهو مع ما قد يتحلّى به من صور وافكار جميلة لا يعلو عن مستوى السواد من الجمهور يفهمه الاميّ كما يفهمه المتعلم ويستلذّه ابن الحقل كما يستلذه ابن المدينة

اما النوع الثاني فهو الادب العالي — ادب كبار الكتبة والشعراء الذين اتحفوا العالم بروائعهم الخالدة وهذا مما تقصر عنه افهام السواد ، ولا يُدرك الاّ بعد الممارسة والاستعداد . واولى درجات الاستعداد ما يتلقّنه الطالب في المدارس الابتدائية والثانوية من قواعد اللغة والانشاء والمطالعة ثمّ ما يطالب به من دراسة تاريخ الادب وامثلة من اقوال الادباء ومُنتجات العصور . ويتلو ذلك البحث في الادب كفنّ والنظر في خصائصه واوجه الجمال فيه ، وهذا ما نتوخاه في هذه المقدّمة التمهيدية للمختارات السائرة . وإنْ هي الا توطئة لدرجة اعلى — لدراسات اوفى واعمق يقوم بها بعدُ طلّاب التخصص في الادب . وستتناول المقدّمة المباحث التالية :

نظرة في المحسّنات البيانيّة

الادب وخصائصه الرئيسية

اركان الفن الادبي

مناحي النقد الادبي العامّة

وها نحن نعرض كلًّا منها عرضاً موجزاً في الصفحات التالية .

المحسّنات البيانيَّة وقيمتها الادبيَّة

مرّ على الادب العربي عصر كان فيه للبديع اوفى نصيب · فمنذ القرن الرابع الهجري حتى اواخر القرن الماضي أولع الادباء به فتوفروا على تحلية رسائلهم بالمحسّنات اللفظيَّة والمعنوية ولجّوا في ذلك لجاجة عظيمة خرجت بهم عن طريق الصواب حتى اصبحت كتابتهم في كثير من الاحوال عبارةً عن مخطّطات لفظية لا حياة فيها ولا روح

فلا غرابة ان نرى الادباء المجدّدين منذ اوائل هـذا القرن يحملون حملة شعواء على البديع مرجعين اليه سبب كلّ تأخّر في الكتابة والشعر داعين الى منهاج مرسل حرّ قائم على الفكر الصحيح والعبارة البسيطة المُحكمة · وعليه يقول نقادة عصري كبير[1] — « ان الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة على شيئين — الاول ان يقدّم لها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقي الاسلوب بريء من الابتذال حرّ من اغلال البديع والبيان · والثاني ان يكون هذا النثر ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيّماً في معناه كما هو قيّم في لفظه حرًّا في معناه كما هو حرٌّ في لفظه ايضاً »

على انه مهما يكن من امر هذه الحملة على البديع فان اللغة الادبيَّة لا يمكن تجريدها من محسّنات تزيدها جمالاً وبالتالي تكسبها قوَّة وبلاغة

ثم ان الاصول البيانيَّة او احكام البلاغة تختلف عن القواعـد الصرفيَّة او النحويَّة في ان هذه نقليَّة يتواضع عليها الناس فاصبح لكلّ لغة قواعد خاصَّة تنفرد بهـا عن سائر اللغات · اما البلاغة البيانيَّة فترجع الى مبـادىء نفسية متأصّلة في الطبيعة البشرية وهي لذلك عامَّة تشترك فيها اكثر اللغات الراقية · ونظرة واحدة على الابواب البيانية الرئيسية في اللغات الثلاث العربية والانكليزية والافرنسية تريك ما نقصد اليـه · واليك بعضها وهي كما تعرف عند التحقيق واحدة في الجميع ولها نفس المقام في علم البلاغة

(١) الاستاذ طه حسين بك في مقال له في المقتطف ٦٨ ص ٢٦١—٢٧٠

الافرنسية	الانكليزية	العربية
Comparaison	Simile	التشبيه
Analogue	Analogy	التمثيل
Métaphore	Metaphor	الاستعارة
Allégorie Symbole	Allegory Symbol	الرمز
Apostrophe	Personification	المجاز المرسل (او التشخيص)
Allusions	Allusions	الاشارات
Contraste Antithèse	Contrast	المغايرة او المطابقة
Qustion Rhétorique	Rhetoric Question	الاستفهام البياني
Exclamation	Exclamation	التعجب
Hyperbole	Hyperbole	المبالغة
Ironie	Irony	التهكم
Concision	Concieseness	الايجاز

واذا قيل ان البديع اللفظي قد يكون مختصاً بلغة دون اخرى قلنا ان ذلك لا يمنع ان يكون المبدأ البلاغي مستنبطاً بالنظر وقضية العقل . فان كل عالم باسرار الكلام من اي لغة كانت يعلم – كما يقول ابن الاثير في المثل السائر – ان اخراج المعاني في الفاظ رائعة حسنة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها في الفاظ قبيحة مستكرهة ولو اراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه »

فالجناس في مثل قول الشاعر

لم نلقَ غيرك انساناً يلاذ به   فلا برحتَ لِعَين الدهر انسانا

ينبه الذهن الى اختلاف المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين (اي انسان وانسان) فضلاً عما فيه من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتآلفها . ومثل ذلك يقال في السجع حيث تتواطأ الفواصل فيكون للكلام من الموسيقى ما ترتاح اليه النفس ارتياحها الى النظم الشعري – هذا اذا لم يخرج عن حد الاعتدال ومطابقة الحال

ولما كانت البلاغة الادبية قائمة على ما في الكلام من اشراق وايقاع ومن قوّة على اثارة العواطف والقوى المفكِّرة والايماء الى المعاني البعيدة كانت غاية المحسِّنات البيانية ان تكسب الكلام هذه المزايا والاَّ فهي صناعة متكلّفة وزخارف ثقيلة يملّها العقل ويمجّها الذوق.

فلا بد لطالب الادب من تفهُّم هذه المحسِّنات وادراك غايتها والاَّ فاته في كثير من الاحيان ان يرى الصور الادبية وبالتالي ان يتذوَّق ما فيها من طرافة وجمال (١).

---

(١) يمكن الاطلاع على المحسّنات اللفظية والمعنوية بمراجعة كتب البلاغة (او المعاني والبيان) ونخص بالذكر منها هنا كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري وكتاب المثل السائر لابن الاثير والخواطر الحسان لجبر ضومط.

الادب وخصائصه الرئيسيّة

من المعلوم ان الكلام المفيد انما يراد به احد امرين – اما بسط المشاهدات والاختبارات وتقريرها بعد التمحيص وهو المنهاج العلمي – او تفسيرها والتعبير عن تأثيرها في النفس وهو المنهاج الادبي . ولكلٍّ منهما مزايا خاصّة . واهم خصائص الثاني (الادب) اثنتان هما – (١) خاصّة الانعكاس الذاتي و (٢) خاصّة الاستمرار . فلننظر في كلٍّ منهما على حدة –

١ – انعكاس الادب عن شخصية الاديب

يتناول الادب كلّ ما في الوجود . على ان سبيله في ذلك غير سبيل العلم . فغاية العلم هي الحقيقة الراهنة وتوصّلاً اليها يبحث مجرّباً ومستقرئاً . اما الادب فغايته تصوير الاختبار الشخصي . فبينا نرى العالم البحّاثة مثلاً ينظر الى الارض بعين الحسّ محلّلاً عناصرها المادّية او مفسّراً وشارحاً ظواهرها الجيولوجية ترى الاديب الفنّان ينظر اليها بعين الخيال فيحسّ فيها بروح تتحرك وقلب يخفق ويخاطبها بلسان جبران –

« ما اكرمك ايتها الارض وما اطول اناتك . نحن نضجّ وانت تضحكين . نحن نجدّف وانت تباركين . نحن ننجس وانت تقدّسين . نحن نصبغ وجهك بالدم وانت تغسلين وجوهنا بالكوثر . نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورد والزنابق ! »

. . . .

إنّ الادب يقف امام تقلّبات الزمان وحركات الشعوب ومنتجات العلم ومجالي الطبيعة لا ليشرح ويدلّل ولا ليقيس او يستقرىء بل ليسمع ما لا يُسمع ويرى ما لا يُرى ولينقل الينا ما يسمع وما يرى مترجماً بلغة الشعور والخيال . خذ الابيات التالية وهي مطلع قصيدة معروفة للمتنبي

مَن الجآذر في زيّ الاعاريبِ حمر الحلى والمطايا والجلابيبِ
إن كنت تسأل شكّاً في معارفها فَمَن بلاك بتسهيدٍ وتعذيبِ

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ   وفي البداوة حسن غير مجلوبِ
ابن المعيز من الآرام ناظرةً   وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب
افدي بنفسي ظباء ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ففيها نرى مقابلة بين الحضريات والبدويات، ولكنّ الشاعر لا يفعل ذلك باحثاً او مستنداً الى ادلّة منطقيّة لتقرير الحقيقة التي يعرضها بل هي صورٌ من الحياة البدوية والحياة الحضرية ينقلها الينا الشاعر بالوان جميلة من انفعاله النفسي او قل اختباره الشخصي ٠ ومثلها هذه القطعة من دالية المعرّي المشهورة —

زحلٌ اشرف الكواكب داراً   من لقاء الردى على ميعادِ
ولنار المرّيخ من حدثان الـدهر مُطفٍ وان علتْ باتّقادِ
والثريّا رهينة بافتراق الشمـل حتى تعدّ في الأفرادِ

فليس هناك محاولة لاثبات قضية فلكية عن طريق البرهان العلمي وانما هي رسوم للفناء ملوّنة بالوان من نفسية الشاعر المتأثر ٠ وهذا الاختبار الشخصي هو الذي يتجلّى لنا في قول ابن السمّاك المغربي واصفاً الخمرة

ثقلت زجاجاتٌ اتتنا فرّغاً   حتى اذا مُلئت بصِرف الراح
خفّت فكادت ان تطير بما حوت   وكذا الجسوم تخفّ بالارواح

فهو قد شعر بخفّتها شعوراً حمله على تصويرها بما يراه الواقعي ضرباً من الوهم ٠ والحقيقة ان لا وهم هناك بل هو شعور حقيقي أُلبس صورة الخيال الجميل

وما يصدق على هذه الامثلة يصدق على جميع الصور الشعرية عند كلّ أمّة وفي كل زمان ٠ وما الفن الأ رسّام يعكس لنا الحياة والطبيعة لا كما تراهما العين الباصرة بل كما تتصورهما المخيّلة البصيرة

واذا كان العلم موضوعياً يصف الاشياء مجرّدة عن التأثر الشخصي فالادب هو شخصية الاديب — هو نفسه متأثرةً بما يحيط بها من مجالي الكون والعمران ٠ وعلى ذلك ما نراه من الفرق بين مقالة علمية في الطبيعيات وقطعة ادبية في وصف الطبيعة — الأُولى احكام او تجربات لا دخل لها بشعور الكاتب واما الثانية فصورٌ مشرقة بروحه وتخيّلاته وكذلك الفرق بين التنقيب التاريخي والتصوير الروائي — ذاك مبنيّ على استقراء

واستدلال يتجرّد فيها المؤرخ ما امكن من نزعاته الشخصية وهذا هو الكاتب نفسه متجلياً في اشخاص روايته – هو روحه واختباراته ومعتقداته معكوسةً لنا في اوصافه واخباره

وعليه فلا يعدّ الاديب (كاتباً او شاعراً) اديباً اذا كان مقلّداً فقط . نعم قد يستفيد كثيراً من كتابات الآخرين – يستفيد منها ما يساعده على التعبير الجيد او ما يوحي اليه الافكار الجميلة . وهذا مما يدفعنا الى دراسة الادب العالي والاطّلاع على افكار النوابغ . ولكن مهما استفدنا من الغير فان ادبنا الحقيقي هو ما عبّر تعبيراً صادقاً عن شخصياتنا . وانما يتباين الكتاب بتباين شخصياتهم – بتفاوت مواهبهم من سموّ في التفكير وقوّة في الايمان وسعة في التصوّر واتقاد في العاطفة

* * *

وهنا لا بد من القول ان مقياس الادب العالي هو الحياة المطلقة او الجمال الاسنى الذي يتجلى كما قال احد كبار النقّاد الغربيين في نظراتنا العامّة الى الحياة[1] . وكأنما يراد بذلك ان الادب العالي هو ما اتسعت فيه شخصية الاديب حتى تصبح عواطفه الخاصة عواطف انسانية عامّة . فقولنا ان الادب انعكاس ذاتي لا يعني انه لا يمثل لنا الا اختباراً شخصياً محدوداً . فهو وان انبعث عن نفسية الفنّان لا يقف عندها بل يمتدّ الى اختبار الانسان المطلق . ففي قول المتنبي

اذا انت اكرمت الكريم ملكته   وان انت اكرمت اللئيم تمرّدا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

اختبار ادركه الشاعر . على انه في الحقيقة هو اختبار كل انسان – هو حقيقة ادركها الناس جيلاً بعد جيل وظلّت شعوراً في وجدان الناس العام حتى جسّمه لنا المتنبي وبعثه في ثوب من الكلام البليغ . ومثل ذلك قول ابي تمام –

ولكنني لم احوِ وفراً مجمّعاً   ففزتُ به الا بشمل مبدّدِ
ولم تعطني الايام نوماً مسكّناً   الذُّ به الا بنومٍ مشرّدِ

---

(1) Murry—The Problem of Style 43

فهو اختبار اهل العزم والاقدام الذين تأبى عليهم نفوسهم الأ ان يخوضوا الاهوال ويتحملوا المشاقّ في سبيل الغنى والمجد . ولكن الشاعر تمكن من تصوير هذا الاختبار لنا وعقده في كلام مشرق بالجمال الفني

ولا ينحصر هذا الامتداد من الاختبار الشخصي المحدود الى الاختبار الانساني المطلق في باب الحكمة فقط بل هو عامّ في جميع المعاني الشعرية الرائعة . ولذلك تراها تؤثر في جميع النفوس المهيّأة لادراكها

وهذا الامتداد هو من الفوارق الرئيسية بين الادب العالي والادب العادي . فقد نجد في كلا الادبين ما يحملك على عدّه من جملة الكلام الفنّي ولكن ذلك ليس بكافٍ لادخاله في باب الادب العالي . ولايضاح ذلك نرجعك الى بعض الادب القديم الذي برغم شهرته يقصِر عن هذا المقياس العالي . خذ مثلاً بعض نقائض الفرزدق وجرير والاخطل او بعض غزل ابي نواس او رسائل البديعيين واشباه ذلك من كلام الاولين والآخرين فانك قد تجد فيه شعراً او نثراً حسن الصنعة ولكنه مبتذل المادّة محدود الفكر والروح محصور في بيئة ضيقة من الاختبار الانساني . فهو ادب ولكنه ادب عادي

والخلاصة ان الادب الحقيقي لا ينفصل عن الاختبار الانساني العام وان الفنّان الادبي هو الذي يستطيع ان يعرض هذا الاختبار عرضاً موسيقياً يحرّك الشعور وينبّه الخيال في الآخرين فيطربهم ويوسّع افق التفكير والتخيّل امامهم

٢– خاصّة الاستمرار (١)

ونعني بها ما للادب من تأثير في النفس لا يزول بتعاقب الاجيال وتبدُّل الاحوال. خذ مثلاً كتاباً في الجيولوجيا او كتاباً في الطبيعيات او الطب واقرأ ما فيه من معلومات واحكام تجد نفسك امام مجموعة من الحقائق لا تأثير لها من حيث اسلوبها او طريقة عرضها. وهذه الحقائق قد تطالعها في كتاب آخر فلا يتغير عليك الحال ولا تفقد بذلك شيئاً خاصاً. ثم انها قد تصبح قديمة لا قيمة علمية لها فتهمل مع الزمان لما ينكشف للباحثين من حقائق جديدة. وليس كذلك الروائع الفنّية فانّ فيها قوّة دائمة على اثارة عواطفنا وابهاج نفوسنا – نشعر بروعتها وسيقرأها الذين بعدنا ويشعرون بتلك الروعة كما شعر الناس بها في كل زمان وهي التي تحدو اهل الثقافة عند كل الامم الى مطالعتها. فادباء الغرب لم يذهب الزمان باعجابهم واغتباطهم بروائع هوميروس وفرجيل ودانتي وشكسبير وملتون وغوته وسواهم من كبار الادباء الخالدين وها نحن ابناء العربية في القرن العشرين لا نزال نقود انفسنا ونشأنا الجديد الى معلّقات الجاهلية والبدائع الادبية في العصور التالية. ومَن منّا مثلاً يستطيع ان يقول ان تقادم العهد قد ذهب بتلك الروعة الخلّابة المتجسّمة في رائية عمر ابن ابي ربيعة اذ نراه مساء على شرفة اكمة ينظر من بعيد الى مخيّم هناك وقد شبّت بين مضاربه نيران المساء. فيقف والهاً حائراً لا يدري أيّها مضرب حبيبته وكيف يزوره ثم يرجع سالماً من زيارته. على انه لا يلبث ان يشعر بهادٍ يهديه، ومن هو ذلك الهادي؟ اسمعه يقول –

فبتُّ رقيباً للرفاق على شفا	احاذر منهم من يطوف وانظرُ
اليهم متى يستمكن النوم منهمُ	ولي مجلسٌ لولا اللبانةُ اوعرُ
وبتُّ اناجي النفس اين خباؤها	وكيف لما آتي من الامر مصدرُ
فدلَّ عليها القلبَ ريَّا عرفتها	لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ

ذلك الوادي في المساء وتلك المضارب بينها النيران وهذا القلب المهتدي بريَّا الحبيب لا يبالي الاهوال والاخطار – كلها صور رائعة تحرّك الوجدان وتبهج النفس في كل زمان ومكان

وكذلك هذه العاطفة المتقدة في صدر العباس بن الاحنف اذ يرى سرب القطا على

(١) نعتمد في اكثر هذا الفصل على فصل من كتابنا «الاتجاهات الجديدة في الادب الحديث» موضوعه (الثابت والمتجدد في الادب)

اجنحة الرياح فيهيج شوقه للاحبّة المفارقين وينشد من قلب والهٍ حزين –

بكيت على سرب القطا اذ مررن بي فقلت ومثلي بالبكاء جديرُ
أسرب القطا هل من يُعير جناحه لعلّي الى من قد هويت اطيرُ

ومن منا لا تثور في نفسه عواطف الرجولة والاقدام اذ يردّد قول ابي تمام برغم ما بيننا وبينه من مئات الاعوام –

اهنً عوادي يوسفٍ وصواحبه فعزماً فقِدماً ادرك السؤل طالبه
اذا المرء لم تستخلص الحزمَ نفسُه فذروتهُ للحادثات وغاربُه
ذريني على اخلاقيَ الصمّ للتي هي الوفرُ او سربٌ ترنّ نوادبه
فانّ الحسامَ الهندوانيّ انما خشونته ما لم تفلّ مضاربه

او قول المتنبي –

ذريني أنلْ ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهلِ
تريدين لقيانا المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشهد من إبر النحلِ

وكم لهذين الشاعرين وسواهما من اقوال تشحذ فينا الهمم وتوقظ النفوس وتشدد العزائم في سبيل العظائم

وهذا البحتري يصف بستان المتوكل ولا يزال يسبي الناس بلطف اوصافه اذ يقول –

اغنتهُ دجلةُ اذ تلاحق فيضها عن صوب منسجم الرّباب الهاطلِ
وتنفّست فيه الصّبا فتمايلت اشجاره من حُبَّلٍ وحواملِ
مشيَ العذارى الغيد رحنَ عشيّةً ما بين حالية اليدين وعاطلِ

ولا نزال الى الآن نقرأ ابيات المنازي في وادٍ التجأ اليه في يوم شديد الحرّ فنشعر بما ينعش ارواحنا ويحرّك اوتار الغبطة في نفوسنا . اذ يقول –

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاهُ مضاعف الغيث العميمِ
نزلنا دوحهُ فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيمِ
وارشفنا على ظمأٍ زلالاً الذّ من المدامة للنديمِ
تروع حصاه حاليةَ العذارى فتلمس جانب العقد النظيمِ

ولو اردنا ان نعدّد الأمثلة على ما للادب من روعة مستمرّة سواء كان ذلك في الحب او الحزن او الحكمة او اللهو او الحماسة او الوصف لما وسعتها الصفحات الطوال . ويكفي

هنا ان نقول ان الادب – نثراً كان ام شعراً – لا يعدّ ادباً حقيقياً ما لم تكن فيه هذه المزيّة – أنَّ روعته لا تحدّ بزمان او مكان – اذ هي راجعة الى ميل فطري في النفوس البشرية الى ما يعبِّر عن خوالجها باسلوب يروي ظمأها الى الموسيقى والجمال

ولكن هل هذا الاستمرار في الادب منافرٍ لتجدّده ؟ سؤال يحدونا الى النظر في معنى التجدّد وعلاقته بما ذكرناه من الروعة الادبية

ولما كان الادب يعكس لنا تأثير الحياة والطبيعة في النفس الحسَّاسة المفكرة كان له وجهتان – وجهة خارجية هي الطبيعة والحياة ، ووجهة داخلية هي ما ينشأ عنها من خوالج وافكار . ولا يخفى ان الطبيعة نفسها لا تتغير او تتجدد تجديداً يظهر اثره جيلاً بعدجيل. فالبحر والجبل والروض والوادي والمطر والغابة والصحراء وما الى ذلك هي هي منذ اقدم الازمنة وقد عرفها الانسان القديم كما عرفها الانسان الحديث – كلاهما تأثر بها وتغنّى بمحاسنها وقلّما ترى من فرق بينهما في وصف مشاهدها . فاذا قرأت اليومَ مثلاً قول احمد شوقي في الربيع من قصيدته

آذار اقبلَ قمْ بنا يا صاحِ — حيِّ الربيع حديقة الارواحِ
ابستْ لمقدمه الخمائل وَشيها — ومرحن في كنفٍ له وجناحِ
يغشى المنازل من لواحظ نرجسٍ — آناً وآناً من ثغور اقاحِ
ورؤوس منثورٍ خفضنَ لعزّةٍ — تيجانهنَّ عواطر الارواحِ
والورد في سُرر الغصون مفتّح — متقابل يُثني على الفتّاحِ
ضاحي المواكب في الرياض مميّز — دون الزهور بشوكةٍ وسلاحِ

لم تجدهُ بعيداً عن قول صفيّ الدين الحلّي في زهريته المشهورة « ورد الربيع فرحباً بورودهِ » . قابل ابيات شوقي المذكورة بهذه الابيات من زهرية الحلّي –

فصلٌ اذا فخر الزمان فانه — انسان مقلتــه وبيت قصيده
والغصن قد كسي الغلائل بعد ما — اخذت يدا كانون في تجريــدهِ
والورد في اعلى الغصون كانه — ملكٌ تحفُّ به سراة جنودهِ
فانظر لنرجسه الشهيّ كأنه — طرفٌ تنبّه بعد طول هجودهِ

فانك تشعر على اختلاف الناظمين في الزمان والمكان بروح واحدة وترى امامك محاسن ربيعية متشابهة . ولو راجعت تشابيه ابن المعتز في القرن الثالث الهجري وقابلتها بمثلها من

اوصاف المتأخرين في كل جيل لوجدت نفسك امام مشاهد لم يطرأ عليها تجدد ظاهر . ولا ينكر ان لبعضهم معاني (اي صور مجازيّة) مبتكرة ينتزعونها من شاهد الحال او غير شاهد الحال ، على انه لا كبير فرق بين القدماء والمحدثين في المشهور المتعارف من اوصاف الطبيعة . فهم متفقون على تشبيه النرجس بالعيون والاقحوان بالثغور والورد بالخدود والسماء بالروض وتمايل الاشجار بتمايل الحسان والجبل يعلوه السحاب بالشيخ المعتمّ والسحاب الهاطل بالحيوان الحلوب والنهر المتعرّج في الروض بالدملج او السيف الافعوان — الى آخر ما هنالك مما اصبح تراثاً عاماً وهو دليل على ان الطبيعة قلما تتغير وبالتالي قلما يتغير اثرها في نفس الانسان

اما الحياة الانسانية فسريعة التطور لا تستقر على شكل واحد او نظام واحد . ومن البيّن ان اختبار الانسان في القرن العشرين غير اختباره في القرون السابقة ،وان الحياة في لندن او باريس او نيويورك غيرها في بادية نجد او غابات السودان او نجود تيبت . وعلى تقدم الانسان في الاختبار تقوم النهضات العمرانية وبها يحصل التطور المطّرد في المجتمع البشري . وهذه النهضات تنعكس لنا في آداب الامم فالادب من هذه الناحية متطوّر غير ثابت لانه يعكس لنا العوامل الفعّالة في العمران البشري السائر في سبيل التطوُّر العام

وعلى ذلك نرى في آداب العصور المختلفة ظواهر ينفرد بها عصر دون عصر . ومن هنا منشأ الاختلاف بين القديم والحديث . اعتبر ذلك في ادب الحضارة العبّاسية وكيف تغيّر بالنسبة الى ادب البداوة الجاهلية. واعتبره كذلك في ادبنا الحاضر وما دخله من اسباب العمران الحديث وشتّى المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما ادّى الى تطوّر عظيم في البيئة العربية وبالتالي الى نشوء عوامل جديدة يعكسها ادبنا الجديد . ومهما كان الادب ذاتياً فانه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى هناك — يستحيل ان يظل بمعزل عن الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئة الاديب وتمسّ حياته من نواحٍ مختلفة

ليس الاديب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبراً من الحرير تُدفن فيه بل هو لوحة حسّاسة يرتسم عليها ما يحيط به من مؤثرات فتمتزج بنفسه ثم تظهر للناس رسوماً ذات روعة وتأثير

فالثابت او المستمرّ في الادب هو روعته الفنية . اما المتغير او المتجدد فهو المؤثرات الخارجية الناشئة عن تطور بيئته العمرانية

اركان الفن الادبي

للادب اربعة اركان هي – **العاطفة ، والخيال ، والفكرة ، والاسلوب** – فلنلق نظرةً على كلٍّ منها

١– العاطفة

وهي ما يتجلى من شعور الكاتب في كتابته . خذ هذه الابيات من قول المتنبي–

على قدر اهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

وقول ابن زيدون مخاطباً ولّادة وهو مُبعَدٌ عنها

دومي على العهد ما دمنا محافظةً   فالحرُّ من دان انصافاً كما دينا
ان كان قد عزَّ في الدنيا اللقاء ففي   مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

ففي الاول من سموّ الهمة وبعد الطموح وفي الثاني من عمق الاسى وشدّة الوفاء ما لا نتمالك عن التأثر به . ولا يُنكر ان هذه القوّة على التأثير قد تكون مزيّفة او موقتة كما ترى في اقوال بعض الشعراء او الخطباء الذين يعرفون اميال العامّة فيضربون احياناً على اوتارهم ببعض الفاظ او عبارات تحرّكهم عند سماعها كالفاظ الوطنية والحرية وحقوق الشعب واللغة القومية وما شاكل – كانما غايتهم استهواء الجمهور الساذج لنيل استحسانه او لحمله على امرٍ ما . فاذا جرّدت كلامهم من مثل هذه الالفاظ الطنّانة لم يبق فيه ما يوجب الاستهواء فيصبح فارغاً لا روعة فيه وهكذا يطوى في مطاوي الفناء.

مثل هذا الكلام لا يدخل في باب العاطفة الفنّية فان لهذه مزايا تعرف بها واهمّها الصدق والاستواء والروعة

الصدق – فالصدق ان يكون الكلام معبّراً عن شعور حقيقي تختلج به نفس صاحبه . وهذا اساس الفرق بين الادب المتكلّف والادب المطبوع . ولعلنا نستطيع ان نتبين ذلك بمقابلة بعض القطع الادبية . خذ مثلاً قول ابن زريق في قصيدته المشهورة

لا تعذليه فان العذل يولعهُ   قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعهُ

وقول ابن زيدون في نونيّته السائرة

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقياكم تجافينا

وقابل هاتين القصيدتين وامثالها بتلك المقدّمات المتشابهة التي كان بعض الشعراء يصدّرون بها قصائدهم على سبيل العادة . فانك قد تجد في هذه الاخيرة من الصنعة البيانية ما يهتم له علماء اللغة والبيان ولكنك قلما تجد فيها من القوّة على تحريك عواطفك ما تجده في اقوال المحبين الذين نظموا عن اختبار وجاشت صدورهم بما يتقد فيهم من شعور . واليك هذا المثال الحسي – قطعة من غزل ابن الدُّمينة وقطعة من تغزُّل الحريري . قال الاول –

وقد زعموا ان المحبَّ اذا دنا   يملّ وان النأي يشفي من الصدِّ
بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ ما بنا   على ان قرب الدار خير من البعدِ
على ان قرب الدار ليس بنافعٍ   اذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

وقال الثاني –

واحوى حوى رقّي برقّة لفظه   وغادرني إلف السهاد لغدرهِ
وأعجبُ ما فيه التباهي بعُجبه   وأُكبِرُهُ عن أن أفوه بكبرهِ
له منّي المدح الذي طاب نشرهُ   ولي منه طيُّ الودّ عن بعد نشرهِ

فالاول غزل خارج من قلب ملتهب بالحب متألم من البين . واما الثاني فتغزُّل متكلف لا بشخص معيَّن يحبه الشاعر بل بشخصية معنوية تستخدم لاظهار البراعة البيانية . فلا غرابة اذا عُدَّ غزل ابن الدمينة وامثاله ادباً رفيعاً تتمتع به النفوس الحسّاسة جيلاً بعد جيل ، وان يحرم الحريري ومن يجري مجراه هذا الحظ فيحشر غزله في عداد النظم الثقيل

ومثل الغزل من هذا القبيل الرثاء . فمنه ما هو اوصاف شائعة لا صلة خاصة فيها بين الراثي والمرثي ، ومنه ما يخرج عن قلب مسّه الحزن والالم إما لعلاقته الشخصية بالفقيد او

لشعوره الصادق بجسامة الخسارة لفقده . وقس على ذلك سائر الابواب الادبية كالمديح والفخر والوصف وما الى ذلك مما له علاقة بحياة الفرد والمجتمع . فالادب الحقيقي عاطفة صادقة ، وقد اصاب روبرت ستيفنسون اذ قال [1] :

« مزيتان لا يعلوهما شيء في حياة الاديب : الامانة في نقل الحياة ، والروح الطيّبة في عرضها . ومهما يكن موضوعه فليتجنّب الغلوّ والتعمية والمغالطة ولتكن الحقيقة رائده مندفعاً اليها بروح حرّة من قيود الصغار والتعصب والاستهزاء »

النشاط — والعاطفة الصادقة اذا احسن التعبير عنها تقترن دائماً بالنشاط . وهو راجع في الاكثر الى الاسلوب . وسنتناوله بعد في الكلام عنه ولنقرّر هنا ان ما نجده من البون بين قطعة وقطعة قد يكون قائماً على تفاوتهما في النشاط الداخلي . خذ مثالاً على ذلك هذه الابيات من قصيدة للرصافي يذم بها العادات المضرّة كالتدخين وشرب الخمر . قال —

كلُّ ابن آدم مقهورٌ بعــاداتِ … لهنَّ ينقاد في كلّ الاراداتِ
يجري عليهنَّ فيما يبتغيه ولا … ينفكُّ عنهنَّ حتى في المُلِمّاتِ
قد يستلذُّ الفتى ما اعتاد من ضررٍ … حتى يرى في تعاطيه المسرّاتِ
عادات كل امرىءٍ تأبى عليه بان … تكون حاجاته الأ كثيراتِ
كل الحياة افتقــار لا يفارقها … حتى تنــال غناها بالمنيّاتِ
لو لم تكن هذه العادات قاهرةً … لما أُسيفت بجالٍ بنت حاناتِ
ولا رأيت سِكاراتٍ يدخّنها … قومٌ لوقت انفرادٍ واجتماعاتِ

فانت هنا امام كلام لا نشاط فيه — فكرة مبتذلة تردّد في قوالب رثة لا جمال فيهــا كقوله — « في كل الارادات » وكالبيت الثالث الذي اعاد فيه معنى الصدر في العجز . والبيت الرابع وما فيه من اسفاف معنوي . وكذلك لفظة « منيّات » في البيت الخامس وهذا التخلص الفــاتر في السادس . واما البيت الاخير فيكفي فيه قوله « وقت انفراد واجتماعات » . واكثر القصيدة من هذا النسج المهلهل الخامد العاطفة ولا يستثنى منها الا بضعة ابيات كقوله يخاطب مدمني الخمر فيصف تدخينهم وشربهم

اني لأمتصّ جمراً لفَّ في ورقٍ … اذ تشربون لهيباً بين كاسات

(1) Brown—The Writer's Art. (1924) 156

ولو قابلت هذه القصيدة بما لصاحبها من روائع لادركت حالاً ما نقصد اليه من قولنا النشاط او الرواء او الماء في الادب وهو الذي اشار اليه العسكري[١] اذ قال : « ومن تمام حسن الرصف ان يخرج الكلام مخرجاً يكون له طلاوة وماء . وربما كان الكلام مستقيم الالفاظ صحيح المعاني ولا يكون له رونق ولا رواء » . وما الطلاوة او الرونق او الماء والرواء الا هذا النشاط الحاصل من جودة الاخراج للمعنى وقلما يكون الاخراج جيداً اذا لم تكن النفس متقدة بحرارة العاطفة الصادقة والشعور الحيّ العميق . ولذلك نرى فرقاً كبيراً بين قول شوقي في مقدمة قصيدته « زحلة » ومقدمة قصيدته « لبنان » . ففي الاولى نشاط منبعث عن صدق شعور بالاسف على ايام الشباب وعن اسلوب ريّان بحلاوة التعبير . اسمعه يقول —

شيَّعتُ احلامي بقلبٍ باكِ ولممتُ من طُرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردهِ امشي مكانهما على الاشواكِ

ومنها —

لم تُبقِ مني يا فؤاد بقيَّةً لفتوَّةٍ او فضلة لعراكِ
كنَّا اذا صفَّقت نستبق الهوى ونشدُّ شدَّ العصبة الفتَّاكِ
واليوم تبعثُ فيَّ حين تهزّني ما يبعث الناقوس في النسَّاكِ
يا جارة الوادي طربتُ وعادني ما يشبه الاحلام من ذكراكِ

قابل هذا الشعور النشيط وهذا الانسجام الطلي بقوله في مقدمة « لبنان »

وأغنَّ اكحل من مها « بكفيّةٍ » علقتْ محاجرهُ دمي وعلقتهُ
لبنان دارتُهُ وفيه كناسه بين القنا الخطَّار خُطَّ نحيتهُ
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فاتيت دون طريقه فزحمته
فازورَّ غضباناً وأعرض نافراً حالٌ من الغيد الملاح عرفتهُ
فصرفتُ تلعابي الى اترابه وزعمتهنَّ لبانتي فأغرتهُ
فمشى اليَّ وليس اولَ جؤذرٍ وقعت عليه حبائلي فقنصتهُ

(١) الصناعتين ١٢٨

لما ظفرتُ به على حَرَم الهدى   لابن البتول وللصلاة وهبتهُ
قالت ترى نجم البيان فقلت بل   أُفق البيان بارضكم يمَّمتهُ

فهذا الكلام مبتذل المعاني سقيم الاخراج تخمد النفس لدن قراءته وما ابعده عمّا اعتدنا ان نراه لشوقي من رواء يمتاز به شعره بل ما اشبهه باشعار المقلدين المتكلفين الذين يحاولون نظم ما لا يشعرون به

هذا التفاوت في نشاط العاطفة كثيراً ما يكون مقياساً في الموازنة بين قطعتين او قطع في موضوع واحد كقصيدتي البحتري والمتنبي في وصف الاسد او القصائد البديعية في مدح النبي او معارضات «يا ليل الصب» وغير ذلك مما نظم في حادثة واحدة او غرض واحد

الاستواء – وهو متعلق بالاسلوب وسنبحثهُ مفصلاً في كلامنا عن جمال الاسلوب

الروعة – ما الذي ينطوي تحت قولنا ادب رائع ؟ للجواب على هذا السؤال لا بد لنا من تحديد معنى الروعة . فالروعة من صفات الجمال . والجمال درجات او ظلال متنوّعة – منها الظَّرف واللباقة والرشاقة والحلاوة والروعة وغير ذلك . واذا سلّمنا ان كلّ هذه الصفات تجتمع في معنى عام هو الجمال فاننا لا نسلّم مثلاً ان كل جميل ابق او رائع او ان كلّ رشيق حلو ومليح . اذ لكلٍّ من هذه الدرجات مزايا خاصة . فما هي مزايا الروعة ؟ لعلنا نستطيع ان نجمعها في ثلاث وهي :

١ – **الجلال** . او الشعور بعظمة القوّة . والجلال اما ماديّ كاتساع البحر والسماء وشموخ الجبال والادواح وقوّة الاسد او الفيل . واما معنوي كتضحية الامّ وشجاعة البطل واقدام المغامر

فالجميل مهما كانت درجته لا يعدُّ رائعاً اذ خلا من صفة الجلال وهي قد تكون ايجابية او سلبية – نقول روعة الحياة وروعة العاصفة كما نقول روعة الموت وروعة السكون

٢ – **الهيبة** . الرائع مَهيب. نشعر ازاءه لاول وهلة بضعفنا فننكمش لدى جلاله الفائق . وهو شعور المحدود امام المطلق

٣ – **التسامي** . لكنَّ هذا الشعور بالضعف والانكماش لا يطول بل يعقبه حالاً

شعور بالانطلاق والاتساع والتعالي نحوه . فهو مهيب يروعنا اولاً ثم لا نلبث ان ننجذب الى روعته فنتسامى عمّا يحول دون التمتع بالحريّة المثلى والجمال الاسنى

فالرائع اذن هو الجميل الذي تشعر النفس لديه بجلال شامل لا يحدّ ولا يقاس . فاذا ذهب هذا الشعور حبطت روعته او زالت . وكثيراً ما يكون الجلال الرائع مزيجاً من المادّي والمعنويّ كجلال المغيب مثلاً لا ينحصر فعله في اثارة شعورنا بجمال الطبيعة من الوان وصور بل قد يتعدّى ذلك الى الشعور بالجمال الروحي من آمال واشواق واسف وغير ذلك

وجلال الطهارة قد يقترن مثلاً بجمال الوردة البيضاء ، ومجرى النهر العظيم بحوادث التاريخ العظيمة . وكلما تسامى الجمال عن ان يُدرك بالحواس زاد تأثيره وزادت روعته لانه يعكس لنا بشكل اعظم القوّة المطلقة ، وبالتالي يثير في نفوسنا من الشعور ما لا تحدّه حدود المادة والحس

فالادب الرائع اذن لا يقف عند حدّ الاصابة في التشبيه او دقة الوصف او عرض حقائق الحياة بل هو الذي يثير في نفوسنا الشعور بالعظمة والهيبة والتسامي – هذه الصفات التي تحررنا من قيود المادة وتعلو بنا الى الملإ الاعلى – الى سدّة الجمال المطلق

الخيال في الادب

للخيال في الادب مقام ممتاز. تقرأ مثلاً في جريدة خبراً عادياً عن طوفان فظيع حدث في بلاد نائية لا تعرفها وعمّا اصاب سكانها من اضراره الجسيمة، فلا تتأثر به تأثرك مما يصيب بطلاً من ابطال رواية تطالعها للتسلية والتفكهة. ولماذا؟ لان كاتب الرواية قد وُهب من قوة التخيُّل ما حوّل حوادث الرواية الموضوعة الى حقيقة ملموسة مسَّت عواطفك وجعلتك تعيش بين اشخاصها

وليس الفرق غالباً بين الادب الرائع والادب العادي الا فرقاً في قوة الابتداع التخيُّلي. واهم ما يتناوله هذا الابتداع ثلاثة – التصميم الموضوعي – والتصوير البياني – والتوسّع النظري

فالتصميم الموضوعي. يراد به ابتداع فكرة او موضوع تدور عليه القطعة الادبية وهو عظيم الشأن في الآداب العالمية. على ان ادبنا القديم لم يكن ذا حظ كبير من ذلك. خذ اكثر الدواوين الشعرية منذ ايام الجاهلية الى بدء نهضتنا الحديثة ترها متشاكلة المواضيع وكذلك الادب المنثور من رسائل ومقامات وفصول شتى. اما القصة فقد اجاد العرب في القصيرة منها لكنهم قصّروا في وضع الروايات الطويلة القائمة على تخيُّل واسع المرمى واستيعاب شامل للاحوال والحوادث

ولا يُنكر ان في الادب العربي القديم ما قد يدلُّ على ابتداع وسعة خيال – كرسالة الغفران مثلاً – فان المعرّي قد رسم لنا فيها من احوال النعيم والجحيم وسكانهما من رجال العلم والادب ما يجعلها في عداد القطع الخيالية الطريفة. وهناك سواها ولكنها قليلة وليس من الغضاضة ان نقول ان الثقافة الغربية قد اثرت في ادبنا الحديث ووسعت امامه أفق التخيُّل فصرنا نرى فيه هذه النزعة الى ابتكار الموضوع في شكل فكرة رئيسية تكون محور الكلام وهدفه العام. واليك بعض الامثلة الشعرية على ذلك من ادبنا الحديث:

المواكب ، لجبران . وهي نظرات شاعر في الايام وقد جعلها شبه محاورة بين شخصين الاول شيخ خبرَ الدهر وذاق حلوه ومرّه ، والثاني شاب في عنفوان قوّته يعيش في الغاب بعيداً عن الناس . فيتحدث الاول عن الحياة وما فيها من ظلم وحزن وشهوة وتغرُّض وجبن وجهل وعبودية وتمويه وشهرة كاذبة وضلال في فهم الروح وما الى ذلك ويردّ عليه الثاني نافياً وجود ذلك في الغاب متعالياً بانغام قيثارته عن الآلام والاوصاب . والفكرة الرئيسية في القصيدة ان الشقاء انما يلازم الحياة القائمة على التنافس القتال والحرص على الشهوة وان لا راحة الا في الحياة الطبيعية البعيدة عن مفاسد الناس ومتاعبهم

العنقاء ، لايليا ابو ماضي . والعنقاء طائر خرافي وهو عند العرب احد المستحيلات الثلاثة و يرمز به في هذه القصيدة الى السعادة . ونحن نرى الشاعر مفتشاً عنها في كل مكان – في الطبيعة والعمران – بين القصور والاكواخ فلا يقف لها على اثر . وهكذا تمرُّ الايام وهو دائب في التفتيش حتى يستولي عليه اليأس والاسى . وفي يأسه يدرك متأخراً ان السعادة الحقيقية ليست شيئاً نلتمسه خارج نفوسنا –

حتى اذا نشر القنوط ضبابه　　فوقي فغيَّبني وغيَّب موضعي
عصر الاسى روحي فسالت ادمعاً　　فلمحتها ولمستها في ادمعي
وعلمت حين العلمُ لا يجدي الفتى　　انَّ التي ضيَّعتها كانت معي

الباحث الازلي ، لعبد الرحمن شكري . ويقصد بالباحث الازلي العقل المفكِر وهو يبحث منذ بدء الوجود عن ضالته المنشودة – الحقيقة – فلا يهتدي اليها . والشاعر مع تقريره بان الحقيقة مجهولة يرى ان ابتغاءها والطموح اليها من واجب الانسان المفكِر . لان هذا الطموح المقرون بالسعي هو سبيل الرقيّ –

ليس الطموح الى المجهول من سَفَهٍ　　ولا السموُّ الى حقٍ بمكروهِ
فالعيش حبٌ لما استعصت مسالكه　　تجاربُ المرء تدميه وتُعليهِ

التمثال ، لعلي محمود طه . ويرمز به الشاعر الى الامل الذي ينحته الانسان وهو شابٌ من قلبه وروحه . يبدع في تصويره وصقله متخيلاً فيه الحياة ومرحها وجمالها . ولكن الزمان يمضي ولا يزال تمثاله طيناً جامداً حتى تخمد وقدة الشباب في دم الصانع الطامح . فاذا هو على كرور الزمان رجل عاجز لا امل له ولا رجاء –

مرَّ نور الضحى على آدميٍّ مطرقٍ في اختلاجة المصعوقِ
في يديه حطامة الامل الذاهب في ميعة الصِّبا الموموقِ

على بساط الريح ، لفوزي معلوف . وهي رحلة يطير بها الشاعر على اجنحة الخيال الى عالم الارواح

يطير مفتشاً عن روحه المقيمة في العالم الاعلى فيحملنا معه في طيارة تخترق طبقات الجوّ. وهناك يسمعنا احاديث الطيور عن الانسان ثم احاديث النجوم والارواح . وكلٌّ منها يصف الانسان بالانانية وحب الاذى

نسيَ الخيرَ حين اوغل في الـشرّ فداس الضمير في عصيانهْ

هكذا تنظر اليه الكائنات العلوية فلا يجد منها غير الجفاء والكراهية . ويبقى وحيداً شريداً في الفضاء حتى تتجلى له روحه فتعانقه بشوق وتنتهر الكائنات العلوية النافرة منه قائلة

جاء من ارضهِ يفتش عني بائساً فاخشعوا احتراماً لبأسه
ودعوهُ معي ففي قُبلاتي شهدُ عطفٍ يُنسيه علقم كأسه

ويقضي مع روحه بضع دقائق هي الذّ ما ذاقه في حياته ولكنه لا يلبث ان يهبط الى الارض وحيداً لان روح الشاعر تأبى ان تعيش في العالم الارضي . ثم يفيق من حلمه واذا به على فراشه وليس من شيء قربه غير قلمه – ذلك الرفيق الامين الذي ليس له من خلٍ وفيٍ سواه .

يا يراعي ما زلتَ خير صديقٍ ليَ منذ امتزجتَ بي ، وستبقى
باسماً من سعادتي حين اهنا باكياً من تعاستي حين اشقى
يا يراعي رافقت كلَّ حياتي فأروِ عني ما كان حقاً وصدقا
انا لم ألقَ مثلَ صمتك صمتاً حوّلته عرائس الشِعر نُطقا

* * *

ويدخل في باب التصميم الموضوعي الحكاية الشعرية والرحلات الخيالية الرامية الى فكرة خاصة وهي شائعة اليوم وتتناول شتى المواضيع الاجتماعية والتاريخية والادبية كقصيدة الوفاء لالياس فياض ، والجمال والكبرياء لشبلي ملاط ، والريال المزيف لبشاره

الحوري ، وثورة في الجحيم للزهاوي ، وعبقر لشفيق المعلوف ، وطوفان لعمر ابو ريشه ، وحديث بيت للعقاد ، ونيرون لخليل مطران وسواها

اما النثر فقد خطا في هذا السبيل خطوة اوسع فظهر في ادبنا الحديث عشرات من المؤلفات القصصية والاجتماعية والتاريخية والنقدية مما لا يتسع لذكره المقام . وشتأن بين الترسّل القديم القائم بالاكثر على جمال الصنعة ، والترسّل الحديث القائم على عرض فكرة روحية او تقرير حقيقة اجتماعية .

التصوير البياني . والادب العربي غنيٌّ به ، ولادبائنا القدماء والمحدثين بدائع تذكر واكثرها من باب التشبيه والتمثيل والاستعارة وقد تناول ذلك ابن الاثير في « المثل السائر » تحت باب المعاني لجعل المعنى المبتدع (او المتخيَّل) نوعين – نوعاً منتزعاً من غير شاهد الحال ونوعاً من شاهد الحال . والمتأمّل لا يرى من فرق كبير بينهما . ويمثل ابن الاثير على الاول بقول ابي تمام في ملك احتجب عن الشعراء

يا ايها الملك النائي برؤيته   وجوده لمُراعي جوده كثبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً   ان السماء ترجّى حين تحتجبُ

والابداع هنا في لطف التشبيه اذ جعل الحجاب بمثابة الغيم الذي هو من بشائر الخير لا الحرمان

وقول ابن بقيّ الاندلسي في منادم جميل اثقلت جفونه الخمرة –

بأبي غزالاً غازلته مقلتي   بين العُذيب وبين شطّي بارقِ
عاطيتهُ والليل يسحب ذيلهُ   صهباء كالمسك الفتيق لناشقِ
حتى اذا مالت به سِنة الكرى   زحزحته شيئاً وكان معانقي
ابعدتهُ عن اضلعٍ تشتاقهُ   كي لا ينام على وسادٍ خافقِ

والشاهد في البيت الاخير حيث ابدع في جعل الصدر وسادة خافقة وتلطّفه بابعاد الحبيب عنها لئلا يُزعج

وقول ابن السمّاك المغربي في الخمر ولطافتها – (وقد مرّ آنفاً)

ثقلتْ زجاجات اتتنا فرّغاً   حتى اذا مُلئت بصرف الراحِ

خفّت فكادت ان تطير بما حوت وكذا الجسوم تخفّ بالارواحِ

وقد اصاب ابن الاثير اذ قال « وهذا معنى مبتدع اشهد انه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً ويرقّ كما رقّت لطفاً ويفوح كما فاحت نشراً »

اما النوع الثاني فقد مثّل عليه بقول المتنبي من قصيدة في سيف الدولة مطلعها — « ايقدح في الخيمة العُذَّل » . وكان سيف الدولة قد خيّم في ارض ديار بكر استعداداً لغزو للروم . وحدث ان ريحاً عصفت فاسقطت خيمته فتطيَّر النـاس لذلك « وقالوا فيه اقوالاً » . اما شاعره فتناول هذه الحادثة وقال يعتذر عن سقوط الخيمة —

رأت لون نورك في لونهـا كلون الغزالة لا يُغسلُ
وان لهـا شرفـاً باذخاً وان الخيـام بهـا تخجل
فلا تنكرنَّ لها صرعةً فمن فرح النفس مـا يقتل
ولمّـا امرتَ بتطنيبها أُشيع بانّك لا ترحل
فمـا اعتمد الله تقويضها ولكن اشار بمـا تفعل

فانظر كيف جعل سقوط الخيمة نتيجة لفرحها العظيم ولشعورها بشرف الانتماء الى الامير . بل انظر كيف حوَّل التطيُّر الى تفاؤل في حسن تعليله لذلك السقوط بانه اشارة من الله الى سيف الدولة بوجوب الرحيل والهجوم العاجل على الاعداء .

ومن هذا التخيُّل الجميل قول ابي الحسن الانبـاري في مرثاته « علوٌّ في الحياة وفي المماتِ » يصوّر لنا عظمة الوزير الذي يرثيه وقد صلبه اعداؤه

ولما ضاق بطن الارض عن ان يضمَّ علاك من بعد المماتِ
اصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافياتِ

فقد نظر الى المصلوب وجعلنا نتخيل انه انمـا رُفع الى الجوّ لان الارض احقر من ان تكون قبراً له . والقصيدة ملأى بمثل هذه التخيُّلات الجميلة . ومثل ذلك تصوير المتنبي ما اصابه من الحمى التي كانت تنتابه مساء ثم تهبط في الصباح مصحوبة بعرق شديد . فقد تخيّلها وجعلنا نتخيلها حبيبة ذات حياء تأتيه زائرة تحت استار الظلام ثم يطردها الصبح فتجري مدامعها لوعةً واشفاقاً . قال —

وزائرةٍ كأنَّ بها حياءٌ فليس تزور الا في الظلامِ
بذلتُ لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نَفَسي وعنها فتوسعه بانواع السقامِ
كأنَّ الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعةٍ سجامِ

ومن هذا الباب وصف ابن الساعاتي للنرجس . وذلك انه مرَّ بنواحي صيدا وهي بيد الافرنج فرأى مروجاً كثيرة نباتها النرجس . واتفق انه هرب بعض الاسارى من صيدا فارسلت الخيل وراءه فردَّته . فنظم الشاعر بهذه المناسبة الابيات التالية :

لله صيداء من بلادٍ لم تُبقِ عندي هماً دفينا
نرجسها حلية الفيافي قد طبَّق السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيمٌ وارضها تنبتُ العيونا

والشاهد في البيت الاخير حيث جعل عيون النرجس عيوناً على الاعداء . وفي الشعر قديمه وحديثه ما لا يحصى من مثل هذه الصور الجميلة فنقف عند هذا الحدّ

التوسع النظري : ويراد به النفوذ الى ما وراء المحسوسات والمشاهدات ورؤية ما هنالك من قيم روحية او حقائق معنوية . ومن ذلك اكثر الوقفات التاريخية والتأملات الفكرية حيث ينفذ الاديب الى مناطق يفتحها امامه الخيال الواسع « فيجعل المرئيات (كما سترى في باب الوصف) اساساً لغير المرئيات ويولّد من المحسوسات صوراً مجرَّدة يرسمها للبشر تأمُّلات وذكريات. يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة وتمرُّ امامه على صفحات الماء حوادث الايام فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان . وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر نشعر بها لرؤيتنا بعض المشاهد الطبيعية » . وهذا هو الوصفُ الخيالي ويختلف عن الحسي بانه وصف لتأثرنا مما نشاهد ولما يثيره فينا من وحي داخلي . هكذا ننظر الى البحر فتتجسم لنا عظمة الكون وجلال الطبيعة وقد يحملنا المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في سبيل العلى ولعلنا نذكر الامم التي كانت على شواطئ. هذا البحر كيف عظمت وكيف تقلبت عليها الاحوال . وفي الحرب مجال واسع للخيال – هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرع عنها من عوامل اساسية في بناء العمران . ومثل ذلك اذا وقفت على الجبال العظيمة او امام

الانهار التاريخية او تماثيل العظماء ومآثر العلماء فانت في كل ذلك تستخدم الحس توصلاً الى صور الخيال البعيدة . وهذا التوسع الخيال قلما اهتم به الادب العربي القديم فلم يترك لنا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير (١) . اما ادباء هذا العصر فلهم فيه محاولات تذكر – كما فعل شوقي في قصيدته النيلية التي مطلعها –

من ايِّ عهدٍ في القرى تتدفّقُ وبايِّ كفٍّ في المدائن تُغدقُ

فهو يصف النيل وصفاً مسهباً ذاكراً ما قام على ضفافه من ممالك واديان ومن مشى عليها من ابطال وانبياء . وقد لهج الادب الحديث بذكر هذا النهر العظيم وسواه كالفرات ودجلة والاردن والعاصي واليرموك ، ووقف امام الآثار القديمة كالاهرام وبعلبك وتدمر والبتراء وكارنك . واستخلص من عالمي الطبيعة والحيوان فِكَراً جميلة للمتأملين او عِبَراً بالغة للمعتبرين

(١) راجع امراء الشعر العربي ١٩٩–٢٠٣

الفكرة في الادب

كما انه من العسير جداً في الادب فصل العاطفة عن الخيال كذلك عسير فصل الفكر عنها . فالعاطفة هي كما رأينا ، حالتنا النفسية عند التأثر بمؤثر – والخيال هو الصورة التي نحاول بها رسم ذلك التأثير . اما الفكر فهو ادراك المؤثرات او فهم ما يحيط بنا من عالَمي الحسّ والروح . ففي البيتين التالين مثلاً :

أليس وعدتني يا قلب اني اذا ما تبت عن ليلى تتوبُ
فها انا تائبٌ عن حبِّ ليلى فما لك كلما ذُكرت تذوبُ

عاطفة محبّ متألم يحاول السلوّ فلا يستطيع ويصوّر لنا قلبه شخصاً يعِد ولا يبرّ بالوعد .
وابيات المتنبي –

إثلثْ فانّا ايها الطَلَلُ نبكي وتُرزم تحتنا الابلُ
او لا ، فلا عتبٌ على طللٍ ان الطلول لمثلها فُعُلُ
لو كنت تنطق قلت معتذراً بي غير ما بك ايها الرجل
ابكاك انك بعض من شَغفوا لم أبكِ اني بعض من قتلوا

ترينا الشاعر المتألم للفراق يتخيل طلل الاحبّة شخصاً قد اماته فراقهم فهو لذلك لا يستطيع الكلام كالشاعر . اما قول ابي تمام

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمّعاً ففزت به الا بشملٍ مبدّدِ
ولم تُعطني الايام نوماً مسكّناً ألذّ به الاّ بنومٍ مشرّدِ

ففيه عاطفة مقرونة بوصف اختبار او حقيقة ادركها اهل العزم والاقدام وهذا الوصف هو ما نسميه بالفكرة

فالخيال والفكرة غير العاطفة ولكنهما عند التحقيق لا ينفصلان عنها . الخيال في القطعتين الاوليين يصوّر ما في نفس الشاعر من ألم الفراق . والفكرة في القطعة الاخيرة

تبين لنا تأثير الاقدام في حياة الانسان

ومعلوم ان الفكر واسع يتناول كل مناطق الوجود واساسه حسن النظر في الحياة والطبيعة وما يتجلى فيهما من صور وحقائق . والحقائق نوعان رئيسيان – حقائق مطلقة وحقائق محدودة ، فالمحدودة تنحصر في المعلومات الخاصة والاختبارات المقيّدة بزمان او حال . كَكثير من المعلومات التاريخية والطبيعية والاجتماعية واللغوية . اما المطلقة فهي حقائق عامة تمثّل لنا اختبار الناس في كل زمان ومكان ، كقولنا – سعادة الحريّة – شرف المعرفة – جمال الطهارة – خير المجموع – على قدر اهل العزم تأتي العزائم – حُجبت النار بالشهوات – لا تدركون البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون – انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب – انما المرء يرتقي للمعالي سلّماً من مرارة الاختبار

وبديهي ان الفكر الادبي اكثر ارتباطاً بالمطلقة لاتساعها ولان الادب بطبيعته ينفر من القيود ويطلب الاعلى والابعد في الوجود . على ان للمعلومات المحدودة اثراً هاماً فيه فهي التي تغذّيه وتوسع مدى الافق امامه . وقد كانت ولا تزال مما يفرق الادب الراقي عن الادب الساذج . ولعل ذلك ما حدا الاقدمين ان يحتموا على الاديب سعة الاطلاع . فقدامة مثلاً يطلب منه دراسة علوم اللغة والنسب والرواية [1] . وابن الاثير يزيد على ذلك الامثال ومؤلفات السلف والاحكام السلطانية والاخبار والقرآن [2] . وللقلقشندي في صبح الاعشى مطالب اوسع

ولا بد هنا من التنبيه الى امر هام – وهو ان المعلومات المحدودة ليست بنفسها مقياس الرقيّ في فن الادب والبلاغة . فاذا كان الشاعر الحديث مثلاً قد عرف التلفون والسيّارة والراديو والطيارة وذكرها او وصفها في شعره لم يُعدّ لاجل ذلك وحده اشعر من القديم الذي لم يعرف غير النياق او حمر الوحش في الصحراء . ان العبرة ليست في الاطلاع فقط بل في جعل ذلك الاطلاع اساساً لفكر اعمق ونظر اصدق في الحياة

فحسن التفكير مبني على سعة الاطلاع وهو بدوره اساس لتلك النظرات العالية التي تخترق سجف المجهول وتصل الى منطقة الحياة العليا – الى الحقائق التي تجلو لنا الوجود الانساني السامي وتصوّره لنا افضل تصوير

---

(١) نقد النثر ٧٢ (٢) المثل السائر ٥

وليس يكفي ان يكون للاديب طبيعة حسَّاسة فان الطبيعة الحسَّاسة المنحصرة في نطاق ضيّق من الاختبار والمعرفة لا تستطيع ان تغذي الطبقــة الراقية من البشر ومهما كان ميله الفطري فانه يحتاج الى اطلاع واسع والى مادة فكرية حرَّية بالعرض على الجمهور. ويدخل في نطاق هذه المادة :

١ مرمى القطعة الادبية اي الفكرة التي يرمي الاديب الى اظهارها
٢ فهم الحوادث (تاريخية او طبيعية او اجتماعية وسياسية) لاستخراج العِبر منها
٣ فهم الطبيعة الانسانية — اي نفسية الفرد والجمهور
٤ الاطلاع على اختبارات الآخرين (من مخترعات ومكتشفات ومؤلفــات) ولا يتحتم بذلك ان يكون الاديب إماماً اختصاصياً في كل علم خبيراً بدقــائقه الفنية بل ان يكون ذا المام قيّم بالمسائل العامَّة التي تغذّي العقل وتوسّع دائرة الخيال وتساعد الذهن على ادراك الوجود . واذا قيل كيف يختلف الادب في ذلك عن الفلسفة كان الجواب — في طريقة التأدية — فالفلسفة تؤدي رسالتها (وهي محاولة فهم المبادىء الكلية) عن طريق البحث المنطقي او التحليل العقلي ، والادب يؤديها عن طريق الرسم. الاديب لا يحلل او يقيس ويستنتج ولكنه ينظر ويصوّر فيرينا من معاني الحياة ما لا نراه عادة ويسمعنا من نغماتها ما لا نسمع

ولا ينكر ان المطبوعين قد يستنيرون بالالهام دون العلم او الاطلاع العام . على ان الالهــام درجات تبدأ بسذاجة القرن الاول وتنتهي بثقافة القرن العشرين . فاذا كان المطبوعون ادق حساً وارهف ذهناً من سواهم فلا مندوحة لهم للوصول الى الدرجات العليا من الاستعداد لتلقّي الالهام . وانما يكون ذلك بدقّة الفهم المبني على سعة الاختبار فمــا الخطرات الالهامية الا اختبارات سابقة كامنة في نفوسنا تتبلور حول نواة جديدة

ان الاديب الحقيقي لا يستطيع ان يواجه العالم بلغة جوفاء. لا افكار منيرة فيهــا او خيالات عالية . فما الادب الا فكر قيّم ورسم جميل ولا بد للاول من غذاء وللثاني من طبع ورياضة

وهاك ما يقوله بهذا الصدد اديبــان كبيران من ادباء الغرب هما جون رسكن وبوفون. قال الاول[1] — « ان اسوأ سيئات التثقيف ناشئة عن الوهم الفادح ان اللغة الراقية

(1) Brown — The Writer's Art p. 147

هي صنعة بيانية او لغوية . وإن هي عند التحقيق الا الاعتناء بابراز الفكر الجيد . كلُّ حسنات اللغة معنوية . فهي دقيقة اذا تعمَّد الكاتب الحقيقة ، واضحة اذا جرت مع الطبع ، متينة اذا اقترنت بالرغبة والايمان ، بهجة اذا كان فيها روح النظام والاتزان »

وقال الثاني من خطبة القاها سنة ١٧٥٣ في الاكادمية الفرنسية وموضوعها الاسلوب الانشائي (Style) (١)

« لم يخلُ عصر من اناس سيطروا على الآخرين بقوَّة لسانهم . على ان الكتابة الجيدة والخطابة الجيدة هما وليدتا عصر النور . فالبلاغة الحقيقية تحتم وجود عبقرية مثقَّفة . وهي تختلف عن الطلاقة اللسانية التي تمنحها الطبيعة لبعض الافراد ممَّن يعتمدون الوسائل الجسدية (كالصوت والاشارات) في اثارة عواطف الجمهور . على ان الطلاقة اللسانية والوسائل الجسدية لا تغني في الحلقات الراقية التي تضم افراداً من ذوي العقول الراجحة والاذواق الدقيقة والشعور المهذَّب . فهؤلاء قلما يهتمون بالحركات اللبقة والاشارات المنظمة والاصوات الجوفاء . المهمّ هنا المادَّة — الافكار وطريقة عرضها . فليس الاسلوب العالي ما يشنّف الاذن ويروق العين بل ما يؤثر في النفس ويشبع العقل . ان العقل البشري لا يستطيع ان يخلق شيئاً طفرةً وانما هو يُنتج ما ينتجه بعد ان يلقَّح بالاختبار والتأمل . فالكتابة الجيدة هي الفكر الجيّد والاختبار الجيد والتعبير الجيد »

(١) مقتطفة من المصدر السابق بين الصفحات ٢٧٦-٢٨٤

الاسلوب الادبي

ويراد به ترتيب الافكار في العبارات . وقد كان عند منشئي العرب القدماء ذا اصول عرفية يتمسَّك بها الجميع فيجري كلامهم على وتيرة واحدة . فلو حاولنا مثلاً ان نقابل بين اساليب الصاحب والصابي وابن زيدون والقاضي الفاضل وعماد الدين وابن الاثير وابن الخطيب وسواهم لما وجدنا فيها لشخصياتهم الكتابية من البروز ما نجد للاصول الفنية المجمع عليها – فجميعهم ، برغم بعض اختلافات يسيرة بينهم ، يسلكون منهجاً واحداً من حيث الازدواج والسجع والتنميق البديعي . وما يقال عن الاسلوب الانشائي يقال عن الشعر فليس في القصيدة العربية عموماً منذ اقدم الازمان حتى عهد متأخر ما يدلّ على تحوّل يُذكر في طريقة النظم او تطوُّر بارز في المواضيع والاغراض

واذا كان الاسلوب هو الشخص كما قال بعضهم فان الشخصية لا تظهر فيه الا اذا كان حرًّا طليقاً من قيود الصناعة المتَّبعة . ولا نقصد بذلك الى الفوضى وركوب الراس من حيث القواعد اللغوية بل نقصد الحريَّة اللازمة للتعبير عن الفكر او العاطفة تعبيراً خاصاً بالكاتب او الشاعر

على انه مهما تعددت الاسباب الشخصية فهناك رابطة عامَّة تربطها معاً وعلى اساس هذه الرابطة العامة تقوم مقاييس الانشاء الجيد واحكام الموازنة والنقد . واهم خصائصها ما يلي –

١ – **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** (او الموضوع) . ومما لا ريب فيه ان الكلام انواع فمنه الخطابي والخبري والخيالي والوصفي والعلمي . ولكلٍّ من هذه الانواع غاية ووسيلة يتوسَّل بها الى تلك الغاية . والبليغ مثلاً لا يستعمل في المباحث العلمية ما يستعمله في الوقفات الخطابية ولا في الوقائع القصصية ما يستعمله في النفثات الشعرية

وقد تنبَّه الاقدمون الى ذلك فجعلوا مطابقة الكلام لمقتضى الحال من ابواب البلاغة . وكما تقتضي البلاغة مطابقة الكلام عموماً للموضوع تقتضي **ملاءمة الالفاظ لمعانيها** .

فالجزل مثلاً ملائمٌ لما يستدعي العظمة والفخامة كمواقف الحروب وقوارع التهديد ووصف الفتوح وما الى ذلك . والرقيق لمواقف الحب والشوق والحزن ووصف المناظر اللطيفة وغير ذلك مما يستدعي النعومة والكياسة

وقد نظر بعض ادبائنا المتأخرين في الالفاظ الى ابعد من ذلك فوسموها بسمات الاحياء بل جعلوا لها احياناً صفات العقلاء . فقالوا الالفاظ الضاحكة والباكية والساخطة والراضية والساكنة والثائرة وغير ذلك وتخيّلوا لها شتى الاحوال التي لا نعرفها الا في المادّة . فالبلاغة عندهم لا تقف عند حدّ الملاءمة العامّة للمعاني بل تتطلب ان تكون الالفاظ مناسبة لمختلف الافكار والخوالج ملائمة لما يتجلى في الطبيعة او الحياة من الوان وروائح واصوات وحركات واحوال . وعليه فلا يعيب بعضنا ما عابه الاقدمون من استعمال لفظة نقاخ في مثل هذا البيت —

واحمق ممن يشرب الماء قال لي　　دع الخمر واشرب من نقاخٍ مبرَّدِ

اذ يرون في ثقل حروفها ما يوافق قصد الشاعر فهو يذمّ الماء ويحاول التنفير منها تعظيماً للخمر واغراء بها . فليس من البلاغة اذن ان يذكر الماء بلفظ رائق محبوب كالزلال مثلاً او النمير

وقس على ذلك مثل قولهم الشهوة الحمراء — والثورة العمياء — والليلة الجامحة — والاحتجاج الصارخ — والاعراس المجنونة وغيرها مما يدخل في باب الالفاظ الرمزية . ولعلّهم يجارون في ذلك الجرجاني الذي يقرّر في كتابيه دلائل الاعجاز واسرار البلاغة ان البلاغة اللفظية لا تتوقف على اللفظ ذاته بل على قرائنه (اي علاقته بسواه من الالفاظ) ومن القرائن ما تتطلبه ظلال المعاني من اصوات مناسبة المقام

٢— **الوضوح المنزّه عن الابتذال** . مما يطلب في الكتابة صوغ العبارات والالفاظ بطريقة يسهل على الذهن ادراك العلاقة بينها وبين المعاني . فوضوح المعاني هو غاية منشودة في كل كتابة . واذا قيل ان ذلك يصدق على الكتابة العلمية حيث يُطلب المعنى خالصاً من شوائب الابهام والحشو والاشتراك ولكنه لا يصدق على الروائع الادبية التي تزيد بلاغتها بما فيها من اشارات بعيدة ومناسبات دقيقة ، قلنا ان بلاغة الايماء الى المعاني البعيدة لا يراد بها الابهام والتعقيد المعنوي بل يراد استخدام الالفاظ والعبارات التي هي مع سهولتها مشرقة بالافكار ممتوجة بالعواطف منبّهة الى ما وراء المعاني من معان

ابعد . وكما ان الكلام العلمي مهما كان واضحاً لا يفهمه الا من له مسكة من معرفة كذلك الادب العالي لا يستطيع ان يدرك مراميه البعيدة الا من كان على شيء من الثقافة الادبية

فليس المراد بالوضوح استعمال المبتذل من الفاظ العامّة وتراكيبهم فان ذلك قد يحط الاسلوب الى دركة الاسفاف ، ولا هو مجرَّد الاتيان بالمعنى وان يكن بالفاظ محدودة جافّة لا حياة فيها ، بل هو غربلة الالفاظ وتجنُّب التشويش وعدم الاتِّزان في عرض المعاني

٣ – **تلاؤُم الصور المختلفة في القطعة الواحدة** . ان القطعة الادبية كالقطعة الموسيقية كلما تنوَّعت صورها المعنوية زاد جمالها بشرط ان يكون بين تلك الصور تلاؤم وتناسب . وهو داخل عند البيانيين القدماء في باب علم المعاني حيث يتطلب اللباقة في اختيار الفصل او الوصل والايجاز او الاطناب والتقديم او التأخير وما شاكل

ومما استحسنوه في الشعر من هذا القبيل – حسن الفواتح والخواتم ولطف المخرج وقد قال الجاحظ « اجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج » [1] . ولذلك عابوا الاقتضاب وهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر لا علاقة بينهما . وهو مما اخذه ابن الاثير على ابي نواس والبحتري فقال انه كثير في شعرهما [2] كقول الاول من قصيدته – « يا كثير النوح في الدمن »

فاسقني كأساً على عَذَلٍ كرهتْ مسموعه أذني
من كُميت اللون صافيةٍ خيرُ ما سلسلتَ في بدني
ما استقرَّت في فؤاد فتى فدرى ما لوعة الحزَنِ

ثم ينتقل فجأة الى المديح فيقول

تضحك الدنيا الى ملكٍ قام بالآثار والسننِ

وعكسه قول ابن الحجاج البغدادي

ألا يا ماء دجلة لست تدري بأني حاسدٌ لك طول عمري
ولو اني استطعت سكرتُ سكراً عليك فلم تكن يا ماء تجري
فقال الماء ما هذا ؟ عجيبٌ ! بمَ استوجبتُه يا ليت شعري
فقلتُ له لأنك كلَّ يومٍ تمرُّ على ابي الفضل ابن بشرِ

---

(١) العمدة ١–١٧١ (٢) المثل السائر ٤٢٧

تراهُ ولا اراهُ وذاك شيءٌ يضيق عن احتمالك فيه صبري

ففضلاً عن جمال المجاز ولطف التعبير تجد في الابيات اطراداً في الحديث وانتقالاً طبيعياً الى المديح

على انه كما يستحسن هذا الاطراد اذا جاء طبيعياً لطيفاً يستقبح اذا تُكلِّف فجاء بارداً غثاً كقول المتنبي من قصيدته « ملثُ القطر اعطشها ربوعا »

غدا بك كل خلوٍ مستهاما واصبح كل مستور خليعا

احبّك او يقولوا جرَّ نملٌ ثبيراً وابنُ ابرهيم ريعا

ومما عابوه هذا الهبوط من الرائع الى المبتذل . كقول احدهم يرثي المتوكل –

مات الخليفة ايها الثقلانِ فكأنني افطرت في رمضان

فانت تشعر بعلوّ الشطر الاول وحقارة الشطر الثاني وعدم الاستواء بينهما في المعنى والمقام وكذلك تشعر نفس الشعور في بيت ابي نواس يصف فرساناً –

جنٌّ على جنٍّ وان كانوا بشرْ فكأنما خيطوا عليها بالإبَرْ

ولو تأملت بيت المتنبي المشهور

لكل امرىءٍ من دهره ما تعوَّدا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

لم تتمالك (ان كنت منصفاً) الا ان ترى هذا الهبوط المعنوي . ففي الشطر الاول روعة ناشئة عن عرض فكرة جميلة واختبار انساني عام لكنها تخمد في الشطر الثاني لتقييدها بما تعوَّده ممدوحه من الطعن في العدى

ويظهر ذلك ايضاً في قول احدهم من قصيدة يصف الاحتفال بفتح الخليج في مصر (١)

ما زال هذا السدُّ ينظر فتحهُ اذنَ الخليفة بالنَّوال المرسلِ

حتى اذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كلُّ حامل معول

فجرى كأن قد ريق فيه عنبرٌ يعلوه كافور بطيب المندل

فلا تلاؤم او استواء بين قوله برز الامام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول

---

(١) المقريزي ٢–٣٦٥ (١٣٢٥)

والى هذا الاستواء يشير ابن الاثير في كلامه على التناسب بين المعاني او المؤاخاة وما يدخل تحتها من صحة التقسيم والترتيب والتفسير (١)

وقبله قال العسكري — « ويجب ان تجعل كلامك مشتبهاً اوله بآخره ومطابقاً هاديه لعجزه ولا تتخالف اطرافه ولا تتنافر أطرافه . وتكون الكلمة منه موضوعة مع اختها ومقرونة بلفقها . فانّ تنافر الالفاظ من اكبر عيوب الكلام » (٢) . وهو ينتقد قول الاعشى —

وانّ امرءاً اسرى اليكِ ودونه   سهوبٌ وموماةٌ وبيداء سملقُ
لمحقوقة ان تستجيبي لصوته   وان تعلمي ان المُعان موفّقُ

لان عجز البيت الثاني غير مشاكل لما قبله من الكلام . وللسبب نفسه ينتقد قول ابي تمام —

أأحمدُ ان الحاسدين حشودُ   وان مَصابّ الحزن حيث تريدُ

ويمثل ابن شرف القيرواني على الكلام المخلخل الاركان ، الضعيف الاستمكان ، المتزلزل البنيان » بقول امرىء القيس —

أمرخٌ خيامهمُ ام عُشَرْ   ام القلب في إثرهم منحدرْ
وهرٌ تصيد قلوب الرجال   وافلتَ منها ابن عمرو حُجُرْ

ثم يقول معقباً على ذلك (٣) — « فانت تسمع هذا الكلام الذي لا يتناسب ولا يتواصل ولا يتقارب ولا يحصل منه معنى ولا فائدة سوى ان السامع يدري انه يذكر فرقةً من احباب لكنّ ذلك عن ترجمة معجمة مضطربة — سأل عن الخيام أهي مرخ ام عُشر (وهما عودان) ثم قال « ام القلب في إثرهم منحدر » وليس هذا السؤال من السؤال الاول بشيء الاّ من بعد بعيد واحتيال شديد »

على انه كما يعاب عدم الاستواء في القطعة الادبية من هبوط واقتضاب وعدم تآخ يعاب التشاكل المملّ كالاطالة في وصف او تكلف بديعيّ . فالتفنن لازم لكي تستجمّ النفس نشاطها ولكن مع المحافظة على التلاؤم والتناسب . فكم من كتاب او رسالة فترت النفس لدن قراءتهما وذلك إما لافراط الكاتب في عرض صورة من الصور او لشغفه

(١) هذا فصل مفيد في المثل السائر ص ٤٣٦—٤٤٧ فليراجع

(٢) الصناعتين ١٠٦   (٣) اعلام الكلام لابن شرف (١٩٢٦) ٣٢

الزائد في توخي التدقيق ، وإما لتوخي ضرب من ضروب الاناقة كالسجع مثلاً مما يُحدث اجهاداً للقوى المتأثرة ولو بلغ غاية الاناقة كما ترى في الرسائل الديوانية والادبية منذ القرن الرابع الهجري

ان الالفاظ البسة المعاني فيجب ان تناسبها ايجازاً واطناباً – الايجاز في غير اخلال ، والاطناب في غير تكرير وإبرام

* * *

ومما يساعد على تحسين الاسلوب **تهذيب العبارة** مع البعد عن التصنّع . ولا خلاف بين اهل الادب ان الجري على السجية واجب وقديماً قالوا « ينبغي لصانع الكلام ان لا يتقدم الكلام تقدماً ولا يحمله على لسانه حملاً » وقالوا « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها لك فانَّ قلبك في تلك الساعة اكرم جوهراً واشرف حسناً واحسن في الاسماع واحلى في الصدور واسلم من فاحش الخطإ واجلب لكل غرَّة من لفظ كريم ومعنى بديع »(1)

على ان الجري مع السجية لا ينافي الاهتمام بتهذيب العبارة . بل ذلك دأب كثيرين من امراء الاقلام قديماً وحديثاً . وقد عيب على ابي تمام تقصيره في هذا الامر حتى اختلط في شعره الجيد بالرديء ، مع انه كثيراً ما كان يتصنع في البديع من جناس وطباق . فكما يجب على الكاتب او الشاعر ان يتجنَّب التقعُّر والتنطُّس والتصنُّع ، كذلك عليه ان يغربل عباراته ويصفّيها فيخرج منها ما يضعف المعنى او يحدث قلقاً في الرصف او يدعو الى اطالة لا فائدة منها

كلمة ختامية . وهنا لا بد من الاشارة الى اختلاف الاذواق وانه امر طبيعي . على ان ذلك لا يعني عدم وجود مقاييس عامَّة للجمال الادبي . وقد حاولنا فيما مرَّ معنا ان نتعرَّف الى هذه المقاييس ، بقي ان نسأل كيف ندرِّب انفسنا على فهم الادب وعلى تذوُّق الجمال فيه . والجواب اننا ندربها على ذلك بان نعيش في الجو الادبي الاعلى – ان نرافق الادباء المشهود لهم في كل الاجيال ونطالع روائعهم ونمتع انفسنا بجمالها . بذلك نهذّب اذواقنا اذ نروّضها على ادراك اللفظ المناسب والمعنى الرائع والايقاع الجميل – ومن هنا فائدة دراساتنا الادبية واطلاعنا على روائع العصور وتفهمنا لعناصر الجمال في اقوال البلغاء

(1) الصناعتين ١٠١

مناحي النقد الادبي
او
كيف ننظر في الادب لنتفهم معانيه

كان النقد الادبي القديم منذ صدر الدولة العباسية يُعنى بمذهبين مذهب اللفظ ومذهب المعنى . فقوم يجعلون مقياس البلاغة جمال اللفظ وحسن الصياغة اللفظية . فلا بدع ان يشبه قدامة الشاعر بالصانع ويشبه المادة الشعرية بالمادة الصناعية من خشب وحديد وفضة ويقول : ليس على الشاعر الا ان يجيد الصناعة ولا حرج عليه ان يستعمل اي معنى اراد رفيعاً كان ام وضيعاً [1] . فهو يقيس التفوق الادبي بمقاييس خارجية من مقابلة في الفقرات ومشاكلة في الالفاظ وحسن تفصيل واصابة تشبيه وما الى ذلك

ومثله العسكري فهو مع اهتمامه باصابة المعنى يتوكأ على اللفظ ويجعله مدار البلاغة فيقول : والكلام اذا كان لفظه غثاً ومعرضه رثاً كان مردوداً ولو احتوى على اجل معنى وانبله وارفعه وافضله [2]

وعلى هذا الغرار جملة من البيانيين والنقاد ممن ينظرون الى الادب نظرهم الى صناعة لفظية

ومنهم من يقدم المعنى وبه يقيس بلاغة الكتابة والشعر ، وذلك ما يعنيه ابن الاثير بقوله : ان العرب انما تحسن الفاظها عناية بالمعاني ، فهي خدم المعاني والمخدوم اشرف [3]

والحق يقال ان كلام القدماء في نسبة المعاني للالفاظ كثيراً ما ترى عليه مسحة من الغموض والاضطراب — حتى المعاني عندهم تختلف مدلولاتها او تضيق وتتسع بحسب الزمان والمكان . ولعل مذهب الجرجاني اقرب الى المعقول فهو لا يرى البلاغة في اللفظ لذاته او في المعنى لذاته بل فيما يسميه « النظم » اي في تناسق الالفاظ في الجملة وفقاً لتناسق المعاني ، وان سر البلاغة بل سر الاعجاز قائم على سمو هذا التناسق

---

(١) نقد الشعر ٤ (٢) الصناعتين ٤٩ (٣) المثل السائر ٢١٤

ولسنا الآن في موقف الموازنة بين هذه المذاهب وانما غرضنا ان نبيّن ان البيانيين الأُوَل قد عالجوا هذه الاصول النقدية معالجة الخبير وتركوا لنا في مصنفاتهم تراثاً لا يستهان به

على انَّ هناك مناحي فنية لم يعنَ بها القدماء تمام العناية — هناك تحليل النفس والبيئة والنظر في خصائص العاطفة والخيال والفكر ، ومن الانصاف ان نقرّ بالفضل في هذه لبعض نقاد الغرب الذين عالجوها بطريقة لم نعهدها لقدمائنا او قدمائهم

وأهمّ هذه المناحي ما يلي —

المنحى البِيئي (نسبة الى البيئة)

ويراد بها درس الادب بدرس المؤثرات الخارجية التي تطبع اثرها في نفس الأديب . خذ النقائض الأموية مثلاً ، فلا يكفي لتذوّق الفن فيها ان نفهم معانيها اللغوية وصورها المجازيّة — لا يكفي ان نشرحها على طريقة النحاة او ان نحللها تحليل البيانيين والعروضيين بل علينا ايضاً ان نفهم الجوّ الذي نشأت فيه والاحوال التي دفعت اليها — هذا التهاجي السياسي وهذه المفاخرات العصبيّة والحزبية ترجع الى عوامل فعّالة في ذلك العصر . فما هي تلك العوامل وكيف يظهر اثرها في نفوس الشعراء ونفثاتهم ؟ ذلك هو درس البيئة من نواحيها الجغرافية والاجتماعية والسياسية وهو ضروري لادراك كنه العواطف والغوص الى اعماق الكلام

ولا يُنكر ان للقدماء محاولات شتى في هذا الباب تظهر لك في كتب التراجم القديمة كالاغاني واليتيمة والذخيرة والوفيات والخزانة ومعجم الادباء وما اليها . على انها محاولات فقط ولا تعدّ من قبيل الدراسات الوافية — فهم لم يكونوا غالباً يمحصون المعلومات تمحيصاً يُعتمد عليه ، بل كانوا أميل الى محاكاة من سبقهم دون تنقيب او تجريح . هذا من جهة البيئة ، اما الاشخاص فلا يعيرونهم ادنى اهتمام الأ متى بلغوا سن الرشد او نبغوا في عالم الادب ولذا فنحن لا نعرف الا اليسير عن حداثة ادبائنا وحياتهم العائلية . فهذا المتنبي وهو اشهر الشعراء ولم يعن الشرّاح بديوان عنايتهم بديوانه ، ومع كل ذلك فاكثر ما تجده في دراساتهم اقوال مكرّرة عما طرّزه السابق للّاحق . ومن اسبق من ترجم له القاضي ابو الحسن الجرجاني في الوساطة ، فالثعالبي في اليتيمة ، ثم تبعها كثيرون منهم ابن خلِّكان

وياقوت والبديعي وسواهم. فاذا راجعت ما كتبوه عن حياته وشعره وجدتهم يجرون على وتيرة واحدة – ينقلون ويدوّنون وقلّما يحللون او يجرّحون . وقد ظلّ مؤرخو الادب على ذلك حتى هذه الحقبة الاخيرة التي بدأت فيها طلائع التنقيب العلمي فاخذ النقّاد يهتمون بدرس البيئة واثرها درساً يغربلون فيه الروايات ويدققون في ارسال الاحكام

ولفهم العلاقة بين الادب وبيئته نضرب لك بعض الامثلة من تاريخنا الادبي الحديث. خذ قصيدة شوقي في الحرب العثمانية اليونانية ومطلعها –

بسيفك يعلو الحقّ والحقّ أغلبُ　　ويُنصَر دين الله أيّان تضربُ
وما السيف الأ آية المُلك في الورى　　وما الامر الأ للذي يتغلّبُ
تنام خطوب المُلك ان بات ساهراً　　وان هو نام استيقظت تتألّبُ

ومنها يصف بطولة الاتراك في معركة ملونا

فهل من ملونا موقف ومسامع　　ومَن جَبَليها منبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنيها العجيبين في الورى　　ومدخلها الاعصى الذي هو اعجبُ
هل البأس الأ بأسهم وثباتهم　　ام الحزم الأ عزمهم والتلبّبُ
ام الدين الا ما رأت من جهادهم　　ام الملك الا ما اعزّوا وهيّبوا

والقصيدة طويلة جدًّا وقد نُظمت سنة ١٨٩٧ . فاذا قرأها قارئ اليوم دون تفهّم للجوّ الذي نُظمت فيه – الجوّ السياسي في الشرق الادنى وعلاقة الناظم به – لم يستطع ان يفهم خوالج الشاعر المصري واسباب ترنُّحه بالخلافة والاسلام والمجد القومي والوطنية العثمانية . وللوصول الى ذلك لا بد من معرفة سنّ الشاعر ونشأته وارتباطه بالحياة التركية وما كان بين مصر وتركيا من اواصر حيوية واثر الايادي الاوروبية في هذه الحرب وموقف العالم الاسلامي ازاء المستعمرين – ما لم يعرف القارئ ذلك كله لا يتاح له التمتع بشعر تنشد فيه عواطف الفخر الآن بسلطنة اصبحت في خبر كان

ومثل ذلك قصيدة حافظ في المصريين والسوريين ومطلعها –

لمصر ام لربوع الشام تنتسبُ　　هنا العلى وهناك المجد والحسبُ
خدران للضاد لا زالت ربوعها　　قلبُ الهلال عليها خافقاً يجبُ

ومنها

ايرغبان عن الحسنى وبينهما تلك القرابة لم يُقطع لها سببُ

ويقول في الختام –

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

فلكي تلمس نفوسنا ما في نفس الشاعر يجب ان ندرس ما كان بين السوريين والمصريين يوم نُظمت هذه القصيدة من تنافس عنصري واقليمي نشأ عن هجرة السوريين الى مصر واحتكاكهم اجتماعياً واقتصادياً باهل وادي النيل والاسباب المباشرة التي حملت حافظاً على نظم قصيدته الرائعة

وما يصدق على هاتين القصيدتين يصدق على كثير من الادب القديم والحديث

ولا بد هنا من القول انه ليس كل ما يعكس البيئة يدخل في باب الادب العالي . وانما يكون الادب عالياً اذا ألبس البيئة التي يعكسها مسحة من الاشراق تعلو بها عن مستوى المعلومات العادية . نعم ان الاختبار مادة الادب ولكنه ليس الادب نفسه . الادب هو انفعال النفس من الاختبار محولاً الى الآخرين بطريقة تسمو بالنفس عن الاختبار المادي نفسه . واذا كان لزاماً علينا ان ندرس اثر البيئة لنتذوق ادباً ما فلا يجوز لنا ان نجعل ذلك الاثر اساساً للحكم على روعة الادب او قيمته

المنحى المثالي

أيجوز الحكم على الادب بالنظر الى المثل العليا في الحياة ؟ أنقيس درجته بقياس الغاية الانسانية التي يرمي اليها ؟

سؤال اختلف النقاد في الاجابة عليه . ولعلّ اختلافهم هذا ناشئ عن اختلافهم في النظر الى الغاية . فالغاية نوعان – غاية محدودة وغاية مطلقة . فالاولى ما تقيدت بالدعوة الى شيء معيّن كالحضّ على حسن التصرف – وطلب الآخرة او طلب العلم – او كتعظيم شخص – او ترويج مبدا – او اصلاح خلل وغير ذلك من الاغراض الخاصة التي قد تدخل في حيّز الادب فيكون الاديب بمثابة داعية او مشوّق او معلّم او مهذّب

اما المطلقة فلا تدعو الى شيء خاصّ وانما هي فعل انعكاسي ينشأ في النفس – هي

تحرّك العاطفة لدى تأثرها بالجمال . فانك قد تقرأ رائعة من روائع الادب فتشعر – كما لو كنت امام منظر طبيعي خلّاب – انك في جوّ غير عاديّ وان روحك قد خاصت من ادران الحياة العادية واتصلت بالملإ الاعلى ملأ الحرّية والمحبة والجمال . هذا الشعور بالجمال المشرق وهذا التسامي عن العادي المبتذل في الحياة هو ما نقصد اليه بقولنا غاية مطلقة . فقول الاديب الانكليزي « دريدن » « ان غاية الشعر العظمى هي الابهاج وليست الفكرة التثقيفية فيه الا غرضاً ثانوياً ناشئاً عن قوة الابهاج » لا ينافي ما رأيناه في الغاية المطلقة من الشعور بالسموّ والجمال وانما ينافي جعل الشعر وسيلة للتعليم او الوعظ او الدعاية

ومهما قلنا ان الفن غاية بذاته فلا مهرب من الحقيقة ان اساسه تأثّر النفس بما في الوجود من جمال يجذبنا اليه او قبح ينفّرنا منه . وليس الانجذاب الى الجمال او النفور من القبيح الا تشوّقاً نفسياً الى اسمى ما يتصوّره الانسان في الحياة . وهذا يوافق ما ذهب اليه ارسطو فهو اول القائلين بان غاية الفن هي الابهاج لا التثقيف . على انه لا يقف عند هذا الحدّ بل يقول ان الابهاج السامي لا يمكن ان يتأتى عن مقاييس سافلة او عن فهم مشوّش للطبيعة البشرية (١)

فالابهاج الفني درجات متفاوتة تعلو او تسفل بالنسبة الى مصادرها . واذا سلّمنا أنّ مقياس الادب هو الابهاج لم يكن من تناقض في قولنا ان الادب الاسمى هو ما اشبع اسمى رغائبنا – هو الذي يروي ظمأنا الى الجمال المطلق اذ يرفع نفوسنا من الاختبار المحدود او المبتذل ويحملها الى ذروات التصوّر الرائع

وان نظرةً واحدة الى الروائع الادبية العالمية قد تجلو لنا هذه الحقيقة . خذ مثلاً الاوديسي لهوميروس التي يروي فيها ما حدث للبطل يوليسس بعد عودته من طرواده وحال امرأته بنلوب في اثناء غيابه . فالمدقق فيها يرى خلال الوقائع المختلفة رابطة خفيّة – هي روح الصبر على المكروه واحتمال المشاق في سبيل الواجب ، تلك الروح التي تتصف بها النفوس الكبيرة والتي تثير فينا حاسّة النبل والوفاء

وخذ الكوميديا الالهية لدانتي التي تصف لنا بروعتها الخاصة مشاهد الجحيم والنعيم –

---

(1) Butcher—Aristotle's Theory (1907) 226—239

او رواية فوست لغوته وما كان من حديثه مع شيطانه . ففي كل منها تلك النزعة المثالية التي ترتفع بها عن مستوى الادب العادي . الاولى تمثل لنا جلال العدل المطلق – ذلك العدل الذي هو اساس التقدم في الوجود ، والثانية تصور لنا اختبار الانسان النهائي – ان السعادة ليست في الحصول على الرغائب ولكن في السعي لاسعاد الآخرين

وما يصدق على هذه يصدق على جميع الروائع التي تستحق هذا الاسم[١]

المنحى الجوهري

ويراد به توجيه النظر الى جوهر الكلام وتحليل ما فيه من عاطفة او خيال او فكرة. ففي قول الشاعر –

بكيت على سرب القطا اذ مررنَ بي فقلتُ ومثلي بالبكاء جديرُ
أسرب القطا هل من يُعير جناحه لعلّي الى مَن قد هويت اطيرُ

لا يقف الناقد او المتذوّق عند النظر في بيئة الناظم وغايته او التحليل اللغوي والبياني لالفاظه وعباراته ، بل يتطلّب ما هو اعمق من ذلك – العاطفة المتأجّجة والخيال المحلّق . نحن الآن نبحث عن سرّ الجمال لا عن اداته – عن الروح التي تتجلّى في النظم لا عن النظم ذاته ، فنسأل ما الذي يحبب هذين البيتين الينا ؟ ما الذي يمسّ نفوسنا ويثير شعورنا وينسينا ولو برهة ما حولنا من الوجود المادّي

هوذا محبٌّ مسكين حكم الدهر عليه بالبعاد فلم يزده ذلك الاّ حبّاً ووفاء وتعطشاً للقاء ، ويمرُّ به القطا طائراً فوق البادية فيتقد وجده وتجري دموعه ويتقدم من الطير مستعطفاً طالباً منها جناحاً يطير به الى ربوع الحبيب . لكن القطا تمرُّ به غير مبالية فيبقى في مكانه والهاً باكياً متذكّراً . صورة رائعة يرسمها لنا الشاعر بالوان وظلال من الحبّ الوفيّ والشوق الملتهب والفراق الاليم – وهذه الالوان والظلال هي عناصر الفن الجوهرية وهي التي اذا احسن الشاعر انتقاءها والملاءمة بينها جاء شعره من النمط العالي الذي يرينا

(١) من اراد التوسع في دراسة اهمّ الروائع العالمية فليراجع كتاب :
Portor—The Greatest Books in the World.—

جمال الحياة ويسمعنا انغام الازل . واعتبر ذلك في قول المتنبي يصف فرار الاسد من بدر بن عمار –

وأمرُّ مما فرَّ منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلا

فليس فرار الاسد من الصيادين امراً غير عادي . وليس جمال هذا البيت قائماً على جمال لفظه او الظروف التي تلابسه بل هو شيء احمق – هو تحويل الفرار الناشىء عن خوف الاسد الى حكمة خالدة : اسدٌ يفرّ من الموت الى ما هو امرّ من الموت – الى العار الذي تأباه النفوس الكريمة وتفضل عليه الموت . وفي ذلك ادرك الشاعر غايتين – الاولى مطلقة وهي سموّ الشجاعة وعار الهزيمة ، وغاية محدودة هي مدح الامير

وخذ قول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته في فتاته نُعم وهو يراقب ليلاً مخيَّم قبيلتها –

وبتُّ اناجي النفس اين خباؤها وكيف لِما آتي من الامر مصدرُ
فدلَّ عليها القلبَ ريّاً عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

واسأل نفسك – وانت قد لا تحبّ غزَات عمر – ما وجه الجمال في هذين البيتين ؟ اسهولة الالفاظ ورشاقة التعبير فحسب ؟ ام وراء ذلك ما يتجلّى فيها من حرارة الوجد في الفؤاد ورائحة الحبيب المنبعثة مع النسيم وما لتلك الرائحة وذلك الوجد من قوّة على هدي المحب الى حيث يريد – سحر احبّ الذي يتغلّب على المصاعب ويهزأ بالاهوال ويرينا في ذلك الليل نور الجمال

واليك هذه العبارات من قول جبران في (الارض) « نحن نكلّم صدرك بالسيوف وانتِ تغمرين كلامنا بالزيت والبلسم . نحن نستودعكِ الجيف وانت تملأين بيادرنا بالاغمار ومعاصرنا بالعناقيد . نحن نصبغ وجهك بالدم وانت تغسلين وجوهنا بالكوثر . نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق » . هنا وراء موسيقى الالفاظ موسيقى داخلية هي هذه العاطفة التي تختلج في نفس الكاتب اذ يقابل بين حسنات الارض وسيئات الاحياء . هذه الفكرة الخيالية التي تجعل من الارض اماً حنوناً لا تفكّر الا بالخير ولا تقابل السيئة الا بالحسنة ، ومن الناس اولاداً قساةً دأبهم الاقتتال والاتيان بالمنكرات

ونحن نوافق الجرجاني في ان النمط العالي من الكلام قائم على تناسق الالفاظ وفقاً

لتناسق المعاني . ونعني بذلك انه صورة فكرية عميقة او خيالية سامية تبرزها عاطفة صادقة بما يلائمها من العبارات . وعلى هذا المقياس نحلل الروائع المختلفة محاولين النفوذ الى الجمال الجوهري فيها . واليك واحدة منها على سبيل المثال وهي مرثاة الانباري في الوزير ابي طاهر الذي صلبه عضد الدولة ، ونجتزىء منها بما يلي –

علوٌّ في الحياة وفي المماتِ　　لحقٌّ تلك احدى المعجزات
كأنَّ الناس حولك حين قاموا　　وفود نَداك ايام الصِلات
ولما ضاق بطن الارض عن ان　　يضمَّ علاك من بعد الوفاة
اصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا　　عن الاكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس بقيت تُرعى　　بحرّاسٍ وحفّاظٍ ثقات
وتُضرم حولك النيران ليلاً　　كذلك كنت ايام الحياةِ
اسأت الى النوائب فاستثارت　　فانت قتيل ثأر النائبات
وكنت تُجير من صرف الليالي　　فصار مطالباً لك بالتِرات
وما لك تربةٌ فاقول تسقى　　لانك فوق هطل الهاطلات

ولا بد هنا ان نسأل –

١– لماذا نُظمت وما الحال التي قيلت فيها . وهذا السؤال يجمع بين غاية الناظم والعوامل التي اثارت عواطفه . ولا نستطيع الجواب عنه ما لم نطَّلع على سيرة القتيل والدوافع التي ادّت الى صلبه . وهذا قد يقودنا الى درس حالة الدولة البويهية في ذلك العهد وما كان من تنازع بين امرائها على السيادة في بغداد وموقف الوزير ابي طاهر من ذلك . ثم نقرن درسنا للحالة السياسية بدرسنا لاخلاق المرثي وعلاقاته الاجتماعية وصلة الشاعر به . وهذا التحليل البيئي يقتضي من دقة الملاحظة وتوخي الحقيقة ما لا يستغني عنه نقد ادبي او تاريخي. على انه ليس درساً للادب نفسه ، ففي درس الادب نتناول امرين (١) العواطف التي تثيرها القصيدة في نفوسنا –(٢) صورها الخيالية . فهنا عطف على رجل فاضل ظلمه اعداؤه فقتلوه اشباعاً لشهوة الانتقام– وهنا ثورة على قوةٍ غاشمة تستبدّ بالفضلاء وتقضي على حياتهم المفيدة – وهنا اسف حادٌّ على فقدان تلك المكارم العالية والصفات الحميدة – وبالتالي اثارة خفيَّة للراي العام على الظلم ودفع الى مناصرة الحق . هذه هي العواطف التي تنعكس في نفوسنا لدن قراءتها. وها قد مرَّ على هذه القصيدة اكثر من الف

سنة ولا نزال نتأثر بها ، ولقد قرأها قبلنا اجيال عديدة ولا ريب انهم قد شعروا هـذا الشعور ولولا ذلك لما بقيت الى الآن ولما عدّها الناس من الادب الخالد

واذا التفتنا الى اسلوبها الداخلي ، الى المعاني التخيلية ظهر امامنا صور فنية هي سر الجمال فيها — منها

تخيّل الصليب اداة لرفعة المصلوب بدلاً من اذلاله

تخيل الحراس حوله من ظواهر عظمته لا عظمة اعدائه

تخيل النيران الموقدة حوله انها نيران القرى التي اعتاد ان يوقدها لضيوفه

تخيل الزمان طالباً للثأر منه ، معيناً للظلام عليه وذلك لكثرة ما اجار الناس من نوائبه

تخيل الفقيد مدفوناً بين السحب المواطل وانه لذلك في غنى عن ان يدعى له كما يدعى لسواه بان تسقي الغيوث ثراه

فاذا اضفت الى ذلك روعة الاسلوب اللفظي وملاءمته لعواطف القصيدة وخيالاتها تجلّى لك السر في جمالها ودوام تأثيرها

. . . .

وعلى ذكر الاسلوب اللفظي نعيد القول ان جماله مرتبط بجمال الجوهر المعنوي — على اننا نستطيع ان نصف هذا الجمال الخارجي بصفات عامة تشترك فيها جميع الروائع الادبية ، وقد مرّ ذكرها في الكلام عن الاسلوب الادبي وهي التي عني بها البيانيون وشرحوها شرحاً وافياً في كتبهم فليراجعها من شاء

المختارات النثرية

وتشمل امثلة من الاساليب الكتابية الرئيسية — القصصية — والترسلية — والخطابية — والعلمية

النثر القصصي

وهو يتناول الروايات والقصص والحكايات والمسرحيات . فالرواية قصة طويلة ذات وقائع واشخاص مختلفة وهي مرتبطة بحادثة رئيسية وموجّهة نحو هدف واحد

وهذا النوع من الادب جديد في تاريخنا الادبي لا نرى للقدماء من عناية به . وقد كان الروائيّون الحديثون في اول امرهم عيالاً على كتبة الغرب يترجمون رواياتهم ويتابعونهم في طريقتهم ، ثم نشأ جملة من كتّاب العربية ممّن عالجوا الفن الروائي وهم وان لم يبلغوا من ذلك ما بلغه ادباء الغرب لا يزالون يخطون الى الامام ، والامل انهم سيصلون قريباً الى غايتهم المنشودة

اما الحكاية او القصة القصيرة فقديمة في الادب العربي . يشهد بذلك ما لدينا من قصص القرآن والحديث واخبار العرب وحكايات كليلة ودمنة والف ليلة وليلة وسيرة عنترة بن شداد وكتب المقامات والسِيَر والنوادر وغير ذلك مما يقابل بافضل ما كتب في اللغات الاخرى

والقصة العربية القديمة اكثرها من باب الاخبار والنوادر واللطائف وتشمل الفكاهة والعِبرة والاختبار وما الى ذلك ممّا يتسع له مجال القصة . على ان العناية قد انصرفت في هذا العصر الاخير الى القصة ذات العقدة المشوّقة الى حلٍ . وهي تدرس بعض نواحي الحياة او تشرح بعض الخوالج النفسية ، وعادةً تروي لنا حادثاً مؤثراً فتثير في نفوسنا من الشعور ما يجعلنا اشدّ نشاطاً واقدر على ادراك مرمى الكاتب ومشاركته في شعوره

وليس في ادبنا القديم ما يُعدّ فنّاً مسرحياً فلم يكن للعرب ادنى عناية بالتمثيل كما كان لليونان مثلاً او الرومان . فلما حدثت النهضة الحديثة كانت المسرحية العربية كما كانت الرواية ادباً تقليدياً يُعتمد فيه على ما تُرجم من ادب الغرب .ثم نشط البعض الى وضع المسرحيات النثرية والشعرية ولا يزال ادبنا يخطو ببطء في هذا السبيل

وللادب القصصي عند كل الأمم مقام لا يستهان به . ذلك لان القصة معرض الحياة العامّة والخاصّة فهي للفنّان فنّ وللناقد نقد وللمفكر تحليل وللمصلح باب واسع للاصلاح ولطالب اللهو ملهاة مروّحة للنفس . وتمتاز عن سواها من الفنون الادبية بما فيها من عناصر التشويق والتسلية والابهاج

وكما انه ليس كل نظم شعراً حقيقياً ولا كل كتابة ترسّلاً رفيعاً ، كذلك ليس كل حكايةٍ قصة ادبية . ان خواطر النفس وخوالج القلب لا تسمّى ادباً ما لم تقترن بجمال التعبير وطرافة الاخراج . فالقصيدة الرائعة لا تقف عند حدّ الاصابة في تشبيه او وصف بل تتجاوز ذلك الى ما يثير في نفوسنا الشعور بالعظمة والتسامي اذ ترفعنا عن العادي الى الرائع – الى ملإ الفن الراقي الذي يسحر النفوس ويلقي على الحياة مسحة من الجمال . كذلك القصة لا تُعدّ ادباً بمجرّد ما تسرده من حوادث او تزوّقه من عبارات بل بما يملأ نفوسنا من روعة الفكر ونشاط العاطفة وجمال التأدية ، فهي لذلك من افضل الوسائل في التأثير على نفسية الافراد والجماعات وتوجيه ميولهم الى ما يرقي شعورهم ويرفع مستواهم .

مقتل عمر

ملخصة عن الطبري والعقد

وهي من باب الاخبار التاريخية او سِيَر الابطال

خرج عمر(١) بن الخطاب يوماً يطوفُ في السُّوق . فلقيَه ابو لؤلؤةَ غلامُ المُغيرة بن شعبة . فقال : يا اميرَ المؤمنين أعدِني(٢) على المُغيرة بن شُعْبة ، فإن عليَّ خراجاً كثيراً ، قال : وكَمْ خراجُك ؟ قال : درهمان في كل يوم ، قال : ما صِناعتُك ؟ قال : نجّار ، نقّاش ، حدّاد ، قال : فما أرى خراجَك بكثير على ما تصنعُ من الاعمال ، قد بلغني أنك تقول : لو أردتُ أن أعمل رَحًى تطحن بالريح فعلت ، قال : نعم ، قال : فاعمل لي رَحًى ، قال : لئن سلمتُ لأعملَنَّ لك رَحًى يتحدَّث بها مَن بالشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه

فقال عمر : لقد توَعَّدني العبدُ آنفاً ، ثم انصرف الى منزله

فلما كان الصبحُ خرج عمرُ الى الصلاة ، وكان يوكّل بالصفوف رجالاً فاذا استوَت جاء هو فكبَّر . ودخل ابو لؤلؤة في الناس ، في يده خنجر له رأسان نِصابه في وسطه فضرب عمرَ ستَّ ضربات ، إحداهنّ تحت سرَّته ، وهي التي قتلته

فلما وجدَ عُمَر حرَّ السلاح سَقط وقال : أفي الناس عبدُالرحمن ابن عوف ؟ قالوا : نعم يا امير المؤمنين هوذا . قال : تقدم فصلِّ بالناس ، فصلّى عبدالرحمن ابن عوف وعمر طريح ، ثم احتُمِل فأُدخل داره

---

(١) عمر بن الخطاب ، ثاني الخلفاء الراشدين ، المضروب بعدله المثل ، اسلم قبل الهجرة بخمس سنين وبويع بالخلافة يوم وفاة ابي بكر وقتل سنة ٢٣ هـ (٢) أعداه اعانه

ولما أحسَّ الناسُ قربَ موته قالوا له : يا امير المؤمنين لو استخلفتَ ! قال : إن تركتُكم فقد تركَكم مَن هو خيرٌ مني ، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم مَن هو خيرٌ مني ، ولو كان ابو عُبيدة بن الجراح حيّاً لاستخلفته ، فان سألني ربي قلت : سمعتُ نبيك يقول : « انه امينُ هذه الأُمة ». ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حيّاً لاستخلفته. فان سألني ربي قلتُ : سمعتُ نبيك يقول : « إن سالماً يحب الله حُبّاً لو لم يَخَفه ما عصاه

قيل له : فلو انك عهدتَ الى عبدالله بن عمر ، فانه لذلك اهل لدينه وفضله وقديم إسلامه ، فقال : بِحَسْبِ آل الخطاب أن يحاسَبَ منهم رجلٌ واحد عن أمةِ محمد ولوددت اني نجوتُ من هذا الامر كفافاً (١) ، لا لي ولا عليّ

ثم راحوا فقالوا : يا امير المؤمنين ، لو عهدت ? فقال : قد كنتُ اجمعتُ بعد مَقالتي لكم ان أُولّي رجلاً امرَكم ارجو ان يحمِلَكم على الحق - واشار الى علي - ثم رأيتُ ألاّ اتحمّلها حيّاً ولا ميتاً . فعليكم بهؤلاء الرَّهط الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راضٍ : سعدُ بن ابي وقّاص ، وعبدُ الرحمن بن عوف ، وعليُّ بن ابي طالب ، وعثمانُ بن عفّان ، والزبيرُ بن العوّام ، وطلحةُ الخير

وقال لعبد الرحمن : ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً وانتظروا اخاكم طلحة ثلاثاً - وكان غائباً - فان جاء وإلا فاقضُوا امرَكم . أنشدُكَ الله يا عليّ إن وليتَ من امور الناس شيئاً أن تحملَ بني هاشم على رقاب الناس . انشدُكَ الله يا عثمان إن وليتَ من امور الناس شيئاً أن تحملَ بني ابي مُعيط على رقاب الناس . انشدُكَ الله يا سعد إن وليتَ من امور الناس شيئاً أن تحمل اقاربَك على رقابِ الناس . قوموا فتشاوَرُوا ، ثم اقضوا امركم وليصلِّ بالناس صُهيب

ثم دعا ابا طلحة الانصاريَّ فقال : قم على بابهم فلا تدعْ احداً يدخلُ اليهم . وأُوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوّأوا الدار والايمان : أن يُحسِنَ الى محسنهم، وأن يعفُوَ عن مسيئهم ، وأُوصي الخليفة من بعدي بالعرب فانهم مادّة الاسلام : أن يؤخذ من صدقاتهم حقُّها فتوضع في فقرائهم ، وأُوصي الخليفة من بعدي بذمة محمد رسول الله : أن يُوفى لهم بعهدهم . اللهمَّ هل بلّغت ! تركتُ الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة

(١) الكفاف : الذي يكون بقدر الحاجة

يا عبدالله بن عمر اخرج فانظر مَن قتلني ؟ فقال : يا امير المؤمنين ، قتلك ابو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة . قال الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل سجدَ لله سَجدَةً واحدةً . يا عبدالله بن عمر اذهب الى عائشة فسلها ان تأذنَ لي أُدفن مع رسول الله وأبي بكر . يا عبدالله بن عمر إن اختلف القوم فكُنْ مع الاكثر ، وان كانوا ثلاثة وثلاثة فاتبع الحزب الذي فيه عبدالرحمن . يا عبدالله ائذن للناس

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه ويقول : أعن ملإٍ[1] منكم كان هذا ؟ فيقولون : معاذ الله ! ودخل في الناس كعب (وكان قد قال لعمر لمّا طعن انه لا يعيش اكثر من ثلاثة ايام) . فلما نظر اليه عمر قال :

فأوعدني كعبٌ ثلاثاً اعدُّها ولا شكَّ انَّ القول ما قال لي كعبُ
وما بي حذارُ الموت إني لميتٌ ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ثم فاضت روحه رحمه الله

(١) اي عن مشاورة من اشرافكم وجماعتكم

الجارية الحسناء عُمارة[1]

كانت هذه الحسناء لعبدالله بن جعفر[2] . فرآها يوماً يزيد بن معاوية واحبّها فرام الحصول عليها وعهد بذلك الى احد الدهاة العراقيين . والقصة تدور على ما قام به هذا الداهية ، وهي تجمع جمعاً شائقاً بين لطف التحيُّل ومكارم الاخلاق

* * *

كانت عند عبدالله بن جعفر بن ابي طالب رضوان الله عليهما جارية مغنّية يقال لها عُمارة . فلما وفد عبدالله على معاوية خرج بها معه فزاره يزيد ذات يوم واقام عنده فاخرجها اليه . فلمّا نظر اليها وسمع غناءها وقعت في نفسه فاخذه عليها ما لم يملك نفسه معه وجعل يمنعه من ان يبوح به مكان ابيه مع يأسه من الظفر بها . فلم يزل يُكاتمه الى ان مات معاوية وافضى اليه الامر وتقلّد الخلافة يزيد فاستشار بعض من يَثِقُ به في امرها : فقال انّ امر عبدالله لا يُرام وانت لا تستجيز اكراهه ولا يبيعها بشيء ابداً وليس يغني في هذا الامر الا الحيلة . قال : اطلبْ لي رجلاً عاقلاً من اهل العراق ظريفاً اديباً له معرفة ودراية ، فطلبوه فأتوه به فلما دخل عليه استنطقه فرأى بياناً وحلاوة وفقهاً . فقال له اني دعوتك لامر ان ظفرت به فهو حظوتك آخر الدهر ويدٌ اكافيك عليها . ثم اخبره بامره فقال يا امير المؤمنين ان عبدالله بن جعفر ما يرام مـا قِبَلَهُ الا بالخديعة و إن يقدر على ما سألت رجلٌ فارجو ان اكونَهُ ، والقوّةُ بالله ، وأعنّي يا امير المؤمنين بالمال . قال خذْ ما احببت فاخذ واشترى من طُرَف الشام وثياب مصر ومتاعها للتجارة ومن الرقيق والدوابّ وغير ذلك حاجته وشخص الى المدينة فاناخ بعَرَصة عبدالله بن جعفر واكترى منزلاً الى جانبه ثم توسّل اليه وقال انا رجل من اهل العراق وقدمت بتجارة فاحببتُ ان اكون في جوارك وكنفك الى ان ابيع ما جئت به

---

(١) عن البيهقي ١٤٦ (المحاسن والمساوى.)

(٢) هو ابن اخي الامام علي بن ابي طالب وأحد مشاهير الاجواد

فبعث عبدالله الى قهارمته[1] وقال اكرموا جارنا واوسعوا عليه المنزل . فلما اطمأنَّ العراقيّ وسلَّم عليه اياماً وعرَّفه نفسه هيَّأ له بغلةً فارهةً وثياباً من ثياب العراق وألطافاً وبعث بها اليه وكتب رقعة يقول فيها : يا سيّدي انا رجل تاجر ونعمة الله عليَّ سابغة وعندي احتمال وقد بعثت اليك بشيء من اللُّطف وهو كذا ، ومن الثياب والعطر وبعثت ببغلة خفيفة العنان وطيَّة الظهر فاتخذها لرحلك وانا اسألك بقرابتك من رسول الله (صلعم) الا قبلت هديَّتي ولم تُوحشني بردّها فاني ادين الله عزَّ وجلَّ بحبّك وحُبِّ اهل بيتك وانَّ افضل ما في سفري هذا ان استفيد الانس بك واتشرف بمواصلتك

وامر عبدالله بقبض هديَّته وخرج الى الصلاة فلما رجع مرَّ بالعراقيِّ في منزله فقام اليه وقبَّل يده وسلم عليه . واستكثر منه فرأى ادباً وظرفاً وحلاوة وفصاحة فاعجب به وسرَّ بنزوله عليه فجعل العراقيّ يبعث كل يوم بلُطف الى عبدالله وبطُرَف . فقال عبدالله جزى الله ضيفنا هذا خيراً فقد ملأنا شُكراً واعيانا على مجازاته . فانهما لكذلك اذ دعاه عبدالله ودعا بعمارة وجواريه فلما تعشَّيا وطاب لهما وسمع غناء عمارة تعجَّب وجعل يزيد في عجبه اذ رأى ذلك يسرّ عبدالله الى ان قال له : أرأيت مثل عمارة . قال : لا والله يا سيّدي ما رأيت مثلها وما تصلح الا لك وما ظننت انه يكون في الدُّنيا مثل هذه حسنَ وجهٍ وحذق عملٍ . قال : كم تساوي عندك . قال : ما لها ثمن الا الخلافة . قال : تقول هذا لما ترى من رأيي فيها ولتجلب سروري . قال والله يا سيّدي اني لاحبّ سرورك وما قلت لك الا الجدّ . وبعد فاني رجل تاجر اجمع الدرهم الى الدرهم طلباً للربح ولو اعطيتها بعشرة آلاف دينار لاخذتها . قال عبدالله بعشرة آلاف دينار ؟ قال نعم ، ولم يكن في ذلك الزمان جارية بعشرة آلاف دينار . فقال عبدالله كالمازح انا ابيعكها بعشرة آلاف دينار . قال قد اخذتُها . قال هي لك . قال قد وجب البيع وانصرف العراقيّ

فلما اصبح لم يشعر عبدالله الا وبالمال قد وافاه . فقال عبدالله بعث العراقيّ بالمال ؟ قالوا نعم بعشرة آلاف دينار وقال هذه ثمن عمارة . فردَّها اليه وقال انما كنت امزح وما أعلمك ان مثلي لا يبيع مثلها . قال جعلت فداك ان الجدَّ والهزل في البيع سواء . قال ويحك لا اعلم موضع جارية تساوي ما بذلت ولو كنت بائعها من احد لآثرتك ولكني كنت امازُحك وما ابيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموقعها من قلبي . قال العراقيّ فان كنت

---

(١) جمع قهرمان وهو وكيل الدخل

مازحاً فاني كنت جاداً وما اطّلعت على ما نفسك وقد ملكتُ الجارية بالثمن وليست تحلّ لك وما من أخذها بدّ . فمنعه اياها

فخرج العراقيّ وهو يقول استحلفك في مجلس امير المؤمنين . فلما رأى عبدالله الجدّ منه قال بئس الضيف ما طرقنا طارق ولا نزل بنا ضيف اعظم بليّة علينا منك ، تُحلّفني فيقول الناس اضطهده وقهره والجأه الى ان استحلفه . أمَا والله ليعلمنّ اني سأبلي في هذا الامر الصبر وحسن العزائم وجميل العزاء

ثم امر قهرمانه بقبض المال وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار ثم سلّمها الى قهرمانه وقال أوصِل الجارية اليه مع ما معها وقل هذا لك ولك عندنا عِوَضٌ مما الطفتنا به

فقبض العراقيّ الجارية وخرج. فلما برز من المدينة قال لها يا عمارة اني والله ما ملكتك قطّ ولا انت لي ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار وماكنت لاقدم على عبدالله بن جعفر فاسلبه احبّ الناس اليه لنفسي ولكني دسيسٌ من قِبل امير المؤمنين يزيد ، وانت له وفي طلبك بعثني . فاستتري مني فان دخلني الشيطان في امرك فامتنعي

ثم مضى بها حتى ورد دمشق فتلقاه الناس يحملون جنازة يزيد وقد استخلف ابنه معاوية فاقام الرجل اياماً ثم تلطّف للدخول عليه فشرح له القصة ، فقال هي لك . فارتحل العراقيّ وقال للجارية اني قلت الكِ ما قلت حين اخرجتك من المدينة لاني لم املكك وقد صرت الآن لي وانا أشهدك اني قد وهبتك لعبدالله بن جعفر . فخرج بها حتى قدم المدينة فنزل قريباً من عبدالله . فدخل عليه بعض خدمه فقال هذا العراقيّ ضيفك الصانع بنا ما صنع – لا حيّاه الله – قد نزل . فقال مه ! انزلوا الرجل واكرموا مثواه . فارسل الى عبدالله إن اذنت ، جُعلت فداك ، لي في الدخول عليك دخلةً خفيفة اشافهك فيها بحاجتي واخرج. فأذن له فلما دخل عليه خبّره بالقصة وحلف له بالمُحرّجات من الايمان انه ما رأى لها وجهاً الا عنده وهاهي ذه . فادخلها الدار فلما رآها اهل الدار والحشم تصايحوا ونادوا عُمارة عُمارة فلما رأت عبدالله خرّت مَغشيّاً عليها وجعل عبدالله يمسح وجهها بكمّه ويقول يا حبيبتي أ حلمٌ هذا ، فقال له العراقيّ بل ردّها الله بوفائك وكرمك . فقال عبدالله قد علم الله كيف كان الامر فالحمد لله على كلّ حال ثم امر ببيع عِيرٍ له بثلاثة عشر الف دينار وامر بها للعراقيّ فانصرف الى العراق وافر العرض والمال

معن ابن زائدة والاسود (١)

قال معن بن زائدة : لما هربت (٢) من المنصور خرجتُ من باب حرب ، بعد أن أقمت في الشمس اياماً ، وخففتُ لحيتي وعارضيَ ، ولبستُ جُبَّةَ صوفٍ غليظة ، وركبتُ جملا ، وخرجتُ عليه لأمضيَ الى البادية . فتبعني أسود متقلدٌ سيفاً ، حتى اذا غِبتُ عن الحرس قبض على خِطام الجمل فأناخه وقبض عليَّ ، فقلتُ : ما شأنك ؟ فقال : انتَ بغيةُ اميرِ المؤمنين ! فقلت له : ومن انا حتى يطلبني اميرُ المؤمنين ؟ فقال : معنُ بن زائدة . فقلت له : يا هذا ! اتقِ الله ، وأين أنا من معن ؟ فقال : دَعْ هذا عنك ، فانا والله أعرفُ بك . فقلت له : فان كانت القصةُ كما تقول ، فهذا جوهرٌ حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ؛ فخذه ولا تسفِك دمي

فقال : هاته ، فاخرجته اليه ، فنظر اليه ساعةً ، وقال : صدقتَ في قيمته ، ولستُ قابله حتى اسألك عن شيء ، فان صدقتني أطلقتُك ، فقلت : قل ! فقال : إن الناس وصفوك بالجود ، فأخبرني : هل وهبتَ قطُّ مالك كله ؟ قلتُ : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا قال : فثلثه ؟ قلتُ : لا ، حتى بلغ العشر فاستحييتُ ، وقلتُ : أظن أني قد فعلتُ هذا ! فقال : ما ذاك بعظيم . أنا والله راجل ورزقي من ابي جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهرُ قيمته ألفُ دينار ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ! ولتعلم أنَّ في الدنيا من هو أجودُ منك ، فلا تعجبك نفسُك ، ولتحقِر بعد هذ

---

(١) ابن خلكان ٢ – ١٠٩ ونهاية الارب ج ٣ ص ٢١١

(٢) كان سبب غضب المنصور ان معناً كان منقطعاً الى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني امية ، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن الى يزيد وابلى بلاء حسناً حتى قتل يزيد ، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك (قصص العرب)

كلَّ شيءٍ تفعلهُ ، ولا تتوقف عن مكرُمة . ثم رمى بالعقد اليَّ وخلَّى خطـام الجمل وانصرف

قلت : يا هذا ! قد والله فَضحْتني ، ولَسفْكُ دَمِي أهونُ عليَّ مما فعلتَ نخذ مـا دفعتُه اليك ، فاني عنه في غنًى . فضحك ثم قال : اردتَ ان تكذّبني في مقامي هذا ! فوالله لا آخذُه ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً ابداً ، ومضى

فوالله لقد طلبته بعد أن امنت وبذلتُ لمن يجيء به ما شاء ، فما عرفتُ له خبراً ، وكأنَّ الارض ابتلعته

الأمويّ والرشيد (١)

رُفع الى هرون الرشيد أن رجلًا بدمشق من بقايا بني أُميَّة عظيمُ المال ، كبير الجاه ، مطاع في البلد ، له جماعة واولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد ، وأنه لا يؤمَن منه ، فعظُم ذلك على الرشيد

فقال لخادمه منارة : اخرج الساعة وابدأ بالرجل ، فقيّده وجئني به ، واجعله في محمِل تقعد انت في شقّه وهو في الآخر ، وتَفقَّدْ دارَه واحفظ ما يقول الرجل حرفاً بحرف

قال منارة : فأتيتُ بيت الرجل ودخلتُ بغير إذنه . فلما رأى القومُ ذلك سألوا بعضَ مَن معي عني . فلما صرتُ في صحن الدار نزلتُ ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً ، فظننت ان الرجلَ فيهم . فقاموا ورحَّبوا بي ، فقلتُ : أفيكم فلان ؟ فقالوا : نحن أولادُه وهو في الحمّام ، فقلت : استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله ، وانا أَتفقَّد الدارَ والاحوال والحاشية ، فوجدتُها ماجتْ موجاً كبيراً . فلم أزل كذلك حتى خرج الرجلُ بعد أن طال مكثُه . واستربتُ به واشتدَّ خوفي وقلَقي من ان يتوارى ، الى ان رأيتُ شخصاً بزيِّ الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعةٌ كُهول وأحداث وصبيان ، وهم اولاده وغلمانه ، فعلمتُ أنه الرجل . فجاء وسلّم وسألني عن امير المؤمنين واستقامة امر حضرته ، واخبرتُه بما وجب . وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدَّم يا منارة وكلْ معنا ، فقلت : ما لي الى ذاك من سبيل ، فلم يعاودني واكل هو ومَن معه . ثم جاءوا بمائدة حسنة ، فقال : يا منارة ساعدنا على الاكل ، فامتنعتُ عنه فما عاودني

فلما فرغ من اكله قام الى الصلاة فصلّى واكثر من الدعاء والابتهال ثم قال لي : ما أقدَمك يا منارة ؟ فاخرجتُ كتاب امير المؤمنين فدفعتُه اليه ففضّه وقرأه ثم أمر اولادَه

---

(١) تجد القصّة مفصّلة في ثمرات الاوراق على هامش المستطرف ١٤٦

بالانصراف ، وقال : هذا كتابُ اميرِ المؤمنين ، ولستُ أُقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة. هاتِ قيودَكَ يا منارة . فدعوتُ بها وقيَّدتُه وحملته

وركبتُ في الشق الآخر وسرتُ بالرجل وليس معه احدٌ حتى صِرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدِّثني بانبساط حتى انتهينا الى بستان حسن في الغُوطة . فقال لي: أترى هذا؟ قلت : نعم ، قال : إنه لي وفيه من غرائب الاشجار كيت وكيت . ثم انتهى الى آخر فقال مثلَ ذلك ، ثم انتهى الى مزارعَ حسان وقُرى فقال مثل ذلك

فاشتدَّ غيظي منه وقلت : ألستَ تعلم أن اميرِ المؤمنين أهمَّه امركَ حتى ارسلَ اليكَ مَن انتزَعكَ من بين اهلكَ ومالِكَ وولدِكَ واخرَجكَ فريداً مقيَّداً لا تدري الى ما يصيرُ اليه امرُكَ ولا كيف يكون ! وانت فارغ القلب من هذا حتى تصفَ ضياعَكَ وبساتينكَ ؟

فقال لي مجيباً : إنَّا لله وإنَّا اليه راجعون ! اخطأتُ فراستي فيك . لقد ظننتُ انك رجلٌ كاملُ العقل ، وأنَّكَ ما حللتَ من الخلفاء هذا المحلَّ الا لما عرفوكَ بذلك ، فاذا بكلامك يشبه كلام العوامَّ ، والله المستعان !

امَّا قولك في اميرِ المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إيايَ الى بابه على صورتي هذه ، فإني على ثقةٍ من الله عز وجل الذي بيده ناصيةُ اميرِ المؤمنين ، ولا يملكُ اميرُ المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلا باذن الله عزَّ وجل – ولا ذنبَ لي عند اميرِ المؤمنين اخافه . وبعد اذا عرف اميرُ المؤمنين امري وعرف سلامتي وصلاح نيتي سرَّحني مكرَّماً ، فان الحسدة والاعداء رَمَوني عنده بما ليس فيَّ وتقوَّلوا عليَّ الاقاويلَ ، فلا يستحلُّ دمي، ويردُّني مكرَّماً ويقيمني ببلاده معظَّماً مبجَّلاً . وان كان قد سبقَ في علم الله عزَّ وجل انه يبدرُ اليَّ منه بادرةُ سوءٍ وقد حضر أجلي ، وكان سَفكُ دمي على يده ، فاني أحسنُ الظنَّ بالله الذي خَلَقَ ورزق وأحيا وأماتَ . وان الصبر والتسليم الى من يملكُ الدنيا والآخرة ! وقد كنت احسب انك تعرف هذا ، فاذ عرفتُ مبلغَ فهمِكَ فاني لا اكلِّمك بكلمةٍ واحدة حتى يفرِّق بيننا اميرِ المؤمنين ان شاء الله تعالى !

قال منارة : ثم اعرض عني فما سمعتُ منه لفظةً غيرَ التسبيح او طلب ماء او حاجة حتى شارفنا الكوفة

ودخلتُ على الرشيد وقبَّلتُ الارض بين يديه ، ووقفتُ ، فقال : هات ما عندك

يا منارة ، فسُقْتُ الحديث من أوله الى آخره ، فلما جئتُ على آخره قال : صَدَق والله . ما هذا الرجل الا محسودُ النعمة مكذوبٌ عليه . ولعمري لقد أزعجناه وآذيناه وروَّعنا أهلَه ، فبادر بنزع قيوده وائتني به . ففعلت وأدخلته على الرشيد

فما هو إلا أن رآه حتى رأيتُ ماء الحياء يجول في وجه الرشيد . فدنا الاموي وسلّم بالخلافة ووقف ، فردّ عليه الرشيد ردًّا جميلًا وأمره بالجلوس فجلس . فاقبل عليه الرشيدُ وسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضلُ هيئة وأمورٌ أحببنا معها ان نراك ونسمع كلامك ونُحسِن اليك ، فاذكر حاجتك . فاجاب الاموي جواباً جميلًا ، وشكر ودعا . ثم قال : يا امير المؤمنين : ان تردَّني الى بلدي واهلي وولدي . قال : نفعل ذلك ، ولكن سلْ ما تحتاج اليه في مصالح جاهك ومعاشك ، فان مثلك لا يخلو ان يحتاج شيئاً من هذا . فقال : يا امير المؤمنين عمالك مُنصفون . وقد استغنيتُ بعدلهم عن مسألتي ، فأموري مستقيمة وكذلك أهلُ بلدي بالعدل الشامل في ظلِّ امير المؤمنين

فقال الرشيد : انصرف محفوظاً الى بلدك ، واكتبْ الينا بأمرٍ ان عرض لك . فودَّعه الاموي

قال منارة : فلمّا ولّى خارجاً قال الرشيدُ يا منارة احمله من وقتك وسرْ به راجعاً كما جئتَ به ، حتى اذا وصلتَ الى مجلسه الذي اخذتَه منه فدَعه وانصرف !

ابن جامع في دار الرشيد (١)

قصة مغنٍّ مشهور وكيف وصل الى دار الرشيد ونال اعجابهُ وجوائزه

حدَّث اسمعيل بن جامع السَّهمي قال: ضمَّني الدهر ضمًّا شديداً بمكة فانتقلت منها بعيالي الى المدينة. فاصبحت يوماً وما املك الا ثلاثة دراهم. فهي في كمّي اذ انا بجارية حُمراء على رقبتها جرّة تريد الرَّكي (٢) تسعى بين يديَّ وتُرنّم بصوت شجي تقول:

شكونا الى احبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما اقصر الليل عندنا
وذاك لانَّ النوم يغشى عيونهم ... سراعاً وما يغشى لنا النوم اعينا

(قال) فأخذ الغناء بقلبي ولم يدرْ لي منه حرف. فقلت: يا جارية لقد اعجبني والله حسن غنائكِ فلو شئتِ اعدتِ. قالت: حبًّا وكرامةً، ثم اسندت ظهرها الى جدار قريب منها ورفعتْ احدى رجليها فوضعتها على الاخرى ووضعت الجرَّة على ساقها ثم انبعثت تغنيه. فوالله ما دار لي منه حرف، فقلت: احسنتِ فلو شئتِ اعدتِه مرَّة اخرى. ففطنت وكلحت وقالت: ما اعجبَ امرَكم. احدكم لا يزال يجيء الى الجارية عليها الضريبة (٣) فيشغلها. فضربتُ بيدي الى الثلاثة الدراهم فدفعتها اليها وقلت: اقيمي بها وجهكِ اليوم الى ان نلتقي. (قال) فأخذتها كالكارهة وقالت: انت الآن تريد ان تأخذ مني صوتاً احسَبك ستأخذ به الف دينار والف دينار والف دينار. (قال) وانبعثت تغني. فأعملتُ فكري في غنائها حتى دار لي الصوت وفهمته وانصرفت مسروراً الى منزلي اردّده حتى خفَّ على لساني

---

(١) عن روايات الاغاني (المطبعة اليسوعية ١-٢٧٠)
(٢) الركي البئر
(٣) الضريبة القطعة من القطن او الصوف

ثم اني خرجت اريد بغداد فدخلتها ، فنزل بي المكاري على مكان ، فبقيت لا ادري اين اتوجّه ولا من اقصد . فذهبت امشي مع الناس حتى أتيت الجسر فعبرتُ معهم ثم انتهيت الى شارعِ المدينة فرأيت مسجداً بالقرب من دار الفضل بن الربيع مرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سراة[١] . فدخلته وحضرت صلاة المغرب واقمت بمكاني حتى صلّيت العشاء الآخرة على جوع وتعب . وانصرف اهل المسجد وبقي رجل يصلي خلفه جماعة ينتظرون فراغه ، فصلّى ملياً . ثم انصرف فرآني فقال : احسَبك غريباً . قلت : اجل . قال : فمتى كنت في هذه المدينة . قلت : دخلتها آنفاً وليس لي بها منزل ولا معرفة وليست صناعتي من الصنائع التي يُمتّ بها الى اهل الخير . قال : وما صناعتك . قلت : اتغنّى . (قال) فوثب مبادراً ووكّل بي بعضَ من معه . فسألت الموكّل بي عنه . فقال : هذا سلام الابرش . (قال) واذا رسول قد جاء في طلبي ، فانتهى بي الى قصر من قصور الخلافة وجاوزني مقصورةً الى مقصورة . ثم أُدخلتُ مقصورةً في آخر الدهليز ودعا بطعام ، فأُتيت بمائدة عليها من طعام الملوك ، فاكلت حتى امتلأت . فاني لكذلك اذ سمعت ركضاً في الدهليز وقائلاً يقول : أين الرجل ، قيل : هو هذا . قال : ادعوا بغَسولٍ[٢] وخلعةٍ وطيب . ففُعل ذلك بي . فحُملت على دابّة الى دار الخليفة وعرفتُها بالحرس والتكبير والنيران . فجاوزت مقاصير عدّة حتى صرت الى دار قوراء[٣] فيها اسرّة في وسطها قد أُضيف بعضُها الى بعض . فامرني الرجل بالصعود فصعدت . واذا رجلٌ جالسٌ عن يمينه ثلاثُ جوارٍ في حُجورهنّ العيدان وفي حُجر الرجل عود . فرحّب الرجل بي . واذا مجالسُ حِيالَه . فلم ألبث ان خرج خادم من وراء الستر فقال الرجل : تغنّ . فانبعث يغنّي بصوت لي وهو :

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على قَتَبِ ولم ترَ الشمس الا دونها الكِللُ
تمشي الهوينا كأنّ الريح تُرجعها مشيَ اليعافير في جيآتها الوَهِلُ[٤]

فغنّى بغير اصابة واوتار مختلفة ودساتين[٥] مختلفة . ثم عاد الخادم الى الجارية التي تلي الرجل فقال لها : تغنّي . فغنّت ايضاً بصوت لي كانت فيه احسن حالاً من الرجل ، وهو :

(١) اشراف (٢) ماء يغتسل به (٣) واسعة

(٤) القتب محمل الجمل — الكلل الستائر — اليعافير الظباء (٥) من اصطلاحات الموسيقى

لئن مصرُ فاتتني بما كنت ارتجي واخلفني فيها الذي كنت آملُ
فما كلُّ ما يخشى الفتى بمُصيبةٍ ولا كل ما يرجو الفتى هوَ نائلُ

ثم عاد الى الثانية ، واحسبه اغفلها وما تغنَّت به . ثم عاد الخادم الى الجارية التي تليها فانبعثت تغني بصوت الحكم الوادي وهو :

تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا فقلت لها ان الكرام قليلُ

(قال) وتوقعتُ مجيء الخادم اليَّ فقلت للرجل : بأبي انت خذ العود فشدَّ وتر كذا وارفع الطبقة وحطّ دستان كذا . ففعل ما امرته . وخرج الخادم فقال لي : تغنَّ عافاك الله ؟ فتغنَّيت بصوت الرجل الاول على غير ما غنّاه . فاذا جماعة من الخدم يحضرون حتى استندوا الى الاسرّة وقالوا : ويحك لمن هذا الغناء . قلت لي : فانصرفوا عني بتلك السرعة . وخرج اليَّ الخادم وقال : كذبتَ هذا الغناء لابن جامع . ودار الدور فلما انتهى الغناء اليَّ قلت للجارية التي تلي الرجل : خذي العود . فعلمتْ ما أُريد فسوَّت العود على غنائها للصوت الثاني ، فتغنيتُ به . فخرجت اليَّ الجماعة الاولى من الخدم فقالوا : ويحك لمن هذا ؟ قلت : لي . فرجعوا وخرج الخادم فتغنيت بصوت لي فلا يُعرف الا بي . وسقوني فتزيدت ، فتزلزلت والله الدار عليهم . وخرج الخادم فقال . ويحك لمن هذا الغناء ؟ قلت : لي . فرجع ثم خرج فقال : كذبت هذا غناء ابن جامع . فقلت : انا اسمعيل بن جامع . فما شعرت الا وامير المؤمنين وجعفر بن يحيي قد اقبلا من وراء الستر الذي كان يخرج منه الخادم . فقال الفضل بن الربيع : هذا امير المؤمنين قد اقبل اليك . فلما صعد السرير وثبت قائماً فقال لي : ابنُ جامع ؟ قلت : ابنُ جامع جعلني الله فداك يا امير المؤمنين . قال : ويحك متى كنت في هذه البلدة . قلت : آنفاً دخلتها في الوقت الذي علم بي امير المؤمنين . قال : اجلس ويحك يا ابنَ جامع . ومضى هو وجعفر فجلسا في بعض تلك المجالس وقال لي : أبشِر وابسُط املك . فدعوت له . ثم قال : غنِّ يا ابن جامع ؛ فخطر بقلبي صوت الجارية الحمراء . فأمرت الرجل باصلاح العود على ما اردت فوزن العود وزناً وتعاهده حتى استقامت الاوتار واخذت الدساتين مواضعها وانبعثت أُغني بصوت الجارية الحمراء . فنظر الرشيد الى جعفر وقال : أسمعت كذا قط ؟ فقال : لا والله ما خرق مسمعي قطُّ مثله . فرفع الرشيد رأسه الى خادم بالقرب منه فدعا بكيس فيه الف دينار . فجاء به فرمى به اليَّ فصيّرته تحت فخذي ودعوتُ لامير المؤمنين . فقال :

يا ابن جامع ردَّ على امير المؤمنين هذا الصوت . فرددتُه وتزَيَّدت فيه . فقال له جعفر : يا سيدي أما تراه كيف يتزَّيد في الغناء ، هذا خلافُ ما سمعناه اولاً وان كان الامر في اللحن واحداً

(قال) فرفع الرشيد رأسه الى ذلك الخادم فدعا بكيس فيه الف دينار . فجاءني به فصيَّرته تحت فخذي . وقال : تغنَّ يا اسمعيل ما حضَرك . فجعلتُ اقصد الصوت بعد الصوت ممـــا كان يبلغني انه يشتري عليه الجواري فاغنّيه . فلم ازل افعل ذلك الى ان عسعس الليل . فقال : اتعبناك يا اسمعيل هذه الليلة بغنائك فأعِد على امير المؤمنين الصوت (يعني صوت الجارية) فتغنيت . فدعا الخادم وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه الف دينار . (قال) فذكرت ما كانت الجارية قالت لي فتبسَّمت . ولحظني فقال : ويحك مما تبسَّمت . فجثوت على ركبتي وقلت : يا امير المؤمنين الصدقُ منجاة . فقال لي بانتهـــار . قل : فقصصت عليه خبر الجارية . فلما استوعبه قال : صدقت قد يكون هذا . وقام ، ونزلت من السرير ولا ادري اين اقصد . فابتدرني فرّاشان فسارا بي الى دار قد أمر بهـــا امير المؤمنين ففُرشت وأُعدّ بها جميع ما يكون في مثلها من آلة جلساء الملوك ونُدمائهم من الخدم ومن كل آلة وخَول الى جوار ووصفاء . فدخلتها فقيراً واصبحت من جِلّة اهلها ومياسيرهم

قصة ابي حسن الخراساني[١]

مع الخليفة المعتضد

وهي من قصص « الف ليلة وليلة » وهو كتاب معروف وقد نقل الى اهم اللغات الاوروبية ويُعرف في الانكليزية « بالليالي العربية » . واساسه حادثة جرت للملك شهريار ملخصها ان هذا الملك غضب على زوجته لخيانتها فقتلها وامر ان يُجعل له في كل ليلة حسناء يتزوجها ثم يقتلها من الغد

وجاء دور الحسناء شهرزاد وكانت لبيبة خلّابة الحديث فاخذت تخرّفه بحكاياتها ليلة بعد ليلة (وهو يقول لا اقتلها حتى اسمع بقيّة حديثها) حتى رزقت منه ثلاثة اولاد . وكان قد مرّ عليها معه الف ليلة وليلة فعفا عنها واستبقاها . وقد اختلف العلماء في اصل الحكايات . والواقع ان لها ثلاثة اصول رئيسية – هندي وفارسي وعربي . وهذا الاخير يشمل القسم الاكبر من الكتاب . وحكاياته قسمان . قسم نشأ في بغداد حوالى القرن العاشر للميلاد ، وقسم نشأ متأخراً في مصر . وقصتنا هذه من الحكايات البغدادية التي يكثر فيها ذكر الخليفة هرون الرشيد وسواه من الامراء والخلفاء وفيها كثير من اخبارهم ونوادرهم

* * *

خرج الخليفة متنكراً يتفقّد حال رعاياه . فقادته خطواته الى دار فخمة لتاجر غني يدعى ابا الحسن الخراساني . ولحظ الخليفة ان جميع اواني البيت موسومة باسم جدّه المتوكّل فاحفظه[٢] ذلك . ثم اظهر نفسه للتاجر وامره ان يبيّن كيف وصلت هذه الاواني الى داره . فقصّ عليه التاجر القصة التالية . قال :

---

(١) بتصرف عن الف ليلة وليلة ج٥ (٢) فساءهُ

بينما انا في دكاني على عادتي يا امير المؤمنين واذا بجارية قد اقبلت عليَّ لم ترَ العيون اجمل منها منظراً فقالت : أهذه حجرة ابي الحسن عليّ بن احمد الخراساني ؟ قلت لها : نعم . قالت : اين هو ؟ قلت : هو انا – ولكن اندهش عقلي من فرط جمالها يا امير المؤمنين . ثم انها جلست وقالت لي : قل لغلامك يزن لي ثلاثمائة دينار . فامرته ان يزن لها ذلك المقدار فوزنه لها . فاخذته وانصرفت وانا ذاهل العقل . فقال لي غلامي : أتعرفها ؟ قلت : لا والله . قال : فلمَ قلت لي زن لها ؟ فقلت : والله اني لم ادرِ ما اقول مما بهرني من حسنها وجمالها . فقام الغلام وتبعها من غير علمي ، ثم رجع وهو يبكي وبوجهه اثر ضربة . فقلت له : ما بالك ؟ . فقال : اني تبعت الجارية لانظر اين تذهب ، فلما احسّت بي رجعت وضربتني هذه الضربة فكادت ان تتلف وتقلع عيني . ثم مكثت شهراً لم ارها ولم تأتِ وانا ذاهل العقل في هواها يا امير المؤمنين . فلما كان آخر الشهر واذا بها جاءت وسلمت عليّ فكدت ان اطير فرحاً . فسألتني عن خبري وقالت : لعلك قلت في نفسك ما شأن هذه المحتالة كيف اخذت مالي وانصرفت . فقلت : والله يا سيدتي ان مالي وروحي ملكٌ لكِ . فاسفرت عن وجهها وجلست لتستريح والحلي والحلل تلعب على وجهها وصدرها . ثم قالت لي : زن لي ثلثمائة دينار . فقلت : سمعاً وطاعة « ثم وزنت لها الدنانير فاخذتها وانصرفت . فقلت للغلام : اتبعها فتبعها ، ثم عاد اليَّ وهو مبهوت . ومضت مدة ولم تأتِ . فبينما انا جالس في بعض الايام واذا بها قد اقبلت عليَّ وتحدثت ساعة ثم قالت لي : زن لي خمسمائة دينار فاني قد احتجت اليها . فاردت ان اقول لها : على اي شيء اعطيك مالي ؟ فمنعني الغرام من الكلام ، وانا يا امير المومنين كلما رأيتها ترتعد مفاصلي ويصفرُّ لوني وانسى ما اريد ان اقول واصير كما قال الشاعر –

فما هو الا ان اراها فجاءةً فأبهتَ حتى لا اكاد اجيبُ

ثم وزنت لها الخمسمائة الدينار فاخذتها وانصرفت . فقمت وأتبعتها بنفسي الى ان وصلتْ الى سوق الجواهر فوقفتْ على انسان فاخذت منه عقداً والتفتت فرأتني . فقالت : زن لي خمسمائة دينار . فلما نظرني صاحب العقد قام اليَّ وعظّمني فقلت له : اعطها العقد وثمنه عليَّ . فقال : سمعاً وطاعة . فاخذت العقد وانصرفت

فتبعتها حتى جاءت الى الدجلة ونزلت في مركب . فأومأتُ الى الارض لأُقبلها بين يديها فذهبت وضحكت . ومكثت واقفاً انظرها الى ان دخلت قصراً فتأملته فاذا هو

قصر الخليفة المتوكل . فرجعت يا امير المؤمنين وقد حلَّ بقلبي كل همّ في الدنيا وكانت قد اخذت مني ثلاثة آلاف دينار . فقلت في نفسي : قد اخذت مالي وسلبت عقلي وربما تلفت نفسي في هواها . ثم رجعت الى داري وقد حدثت امي بجميع ما جرى لي ، فقالت لي : يا ولدي اياك ان تتعرض لها بعد ذلك فتهلك . فلما رحت الى دكاني جاءني وكيلي الذي بسوق العطارين وكان شيخاً كبيراً فقال لي : يا سيدي ما لي اراك متغير الحال يظهر عليك اثر الكآبة فحدثني بخبرك . فحدثته بجميع ما جرى لي معها ، فقال لي : يا ولدي ان هذه من جواري قصر امير المومنين وهي محظيّة الخليفة فاحتسب المال لله تعالى ولا تشغل نفسك بها . واذا جاءتك فاحذر ان تتعرض لها واعلمني بذلك حتى ادبّر امراً لئلا يحصل لك تلف . ثم تركني وذهب وفي قلبي لهيب النار

فلما كان آخر الشهر واذا بها قد اقبلت عليَّ ، ففرحت بها غاية الفرح . فقالت لي . ما حملك على انك تتبعني ، فقلت لها : حملني على ذلك فرط الوجد الذي بقلبي ، وبكيت بين يديها . فبكت رحمة لي وقالت : والله ما في قلبك شيء من الغرام الا وفي قلبي اكثر منه ، ولكن كيف اعمل والله ما لي من سبيل . ثم دفعت اليَّ ورقة وقالت : خذ هذه الى فلان الفلاني فانه وكيلي واقبض منه ما فيها . فقلت : ليس لي حاجة بمال وما لي وروحي فداكِ . فقالت : سوف ادبّر لك امراً يكون فيه وصولك اليَّ وان كان فيه تعب لي : ثم ودعتني وانصرفت

فجئت الى الشيخ العطار واخبرته بما جرى لي . فجاء معي الى دار المتوكل فرأيتها هي المكان الذي دخلت فيه الجارية . فصار الشيخ العطار متحيراً في حيلة يفعلها . ثم التفت فرأى خياطاً قبال الشباك المطلّ على الشاطئ . وعنده صنّاع فقال : بهذا تنال مرادك

...

(وتقول القصة انه غمر هذا الخياط بكرمه فعرّفه بمملوك للجارية وهذا دبّر حيلة الوصول الى قصر الخليفة . ويتابع الخراساني قوله) —

فلما اصبحت توجهت اليه ودخلت حجرته[1] . فلما جاء قال : انها لما فرغت من خدمتها عند الخليفة بالامس ودخلت حجرتها حدثتها بحديثك جميعه وقد عزمت على الاجتماع بك ، فاقعد عندي الى آخر النهار فقعدت عنده . فلما جنّ الليل اذا بالمملوك اتى ومعه قميص منسوج من الذهب وحلة من حلل الخليفة فألبسني اياها وبخّرني فصرت اشبه بالخليفة . ثم

(١) حجرة المملوك

اخذني الى محل فيه الحُجَر صفين من الجانبين وقال لي : هذه حجر الجواري الخاصّة فاذا مررتَ عليها فضع على كل باب من الابواب حبَّة من الفول ، لان من عادة الخليفة ان يفعل هكذا في كل ليلة الى ان تأتي الى الدرب الثاني الذي على يدك اليمنى فترى حجرةً عتبة بابها من المرمر ، فاذا وصلت اليها فمسّها بيدك ، وان شئت فعدّ الابواب فهي كذا وكذا باباً فادخل الباب الذي علامته كذا وكذا فتراك صاحبتك وتأخذك عندها . واما خروجك فان الله يهوّن عليّ فيه ولو أخرجك في صندوق . ثم تركني ورجع وصرت امشي واعدّ الابواب واضع على كل باب حبة فول . فلما صرت في وسط الحجر سمعت ضجّة عظيمة ورأيت ضوء الشموع واقبل ذلك الضوء نحوي حتى قرب مني . فتأملتهُ فاذا هو الخليفة وحوله الجواري ومعهنَّ الشمع . فسمعت واحدة منهنَّ تقول لصاحبتها : يا اختي هل نحن لنا خليفتان ان الخليفة قد جاز على حجرتي وشممت منه رائحة العطر والطيب ووضع حبة الفول على حجرتي كعادته وفي هذه الساعة ارى ضوء شموع الخليفة وها هو مقبل . فقالت ان هذا امر عجيب لان التزيي بزيّ الخليفة لا يجسر عليه احد

ثم قرب الضوء مني فارتعدت اعضائي ، واذا بخادم يصيح على الجواري ويقول : ها هنا . فانعطفوا الى حجرة من الحجر ودخلوا . ثم خرجوا ومشوا حتى وصلوا الى بيت صاحبتي . فسمعت الخليفة يقول : هذه حجرة من ؟ فقالوا هذه حجرة شجرة الدر . فقال : نادوها . فنادوها فخرجت وقبّلت اقدام الخليفة . فقال لها : اتشربين الليلة . فقالت : ان لم يكن لحضرتك والنظر الى طلعتك فلا اشرب ، فانني لا اميل الى الشراب في هذه الليلة . فقال للخادم : قل للخازن يدفع لها العقد الفلاني

ثم امر بالدخول الى حجرتها فدخلت بين يديه الشموع ودخل في حجرتها . واذا بجارية امامهم وضوء وجهها غالب على ضوء الشمعة التي بيدها فقربت مني وقالت : من هذا ؟ ثم قبضت عليّ واخذتني الى حجرة من الحجر وقالت لي : من انت ؟ فقبلت الارض بين يديها وقلت لها : اناشدكِ الله يا مولاتي ان تحقني دمي وترحميني وتتقربي الى الله بانقاذ مهجتي ، وبكيت فزعاً من الموت . فقالت : لا شكّ انك لص . فقلت : لا والله ما انا لصّ فهل ترين عليّ اثر اللصوص . فقالت اصدقني خبرك وانا اجعلك في اماني فقلت : انا عاشق جاهل احمق قد حملتني الصبابة وجهلي على ما ترين مني حتى وقعت في هذه الورطة . فقالت : قف هنا حتى اجيء اليك . ثم خرجت وجاءتني بثياب جارية من جواريها والبستني تلك الثياب في تلك الزاوية وقالت : اخرج خلفي . فخرجت خلفها حتى وصلت الى

حجرتها وقالت : ادخل هنا . فدخلتُ حجرتها فجاءت بي الى سرير وعليه فرش عظيم وقالت : اجلس لا بأس عليك اما انت ابو الحسن الخراساني الصيرفي ؟ قلت : بلى . قالت : قد حقن الله دمك ان كنت صادقاً ولم تكن لصاً ، والا فانك تهلك لا سيما وانت في زيّ الخليفة ولباسه وبخوره . واما أن كنت ابا حسن عليّ الخراساني الصيرفي فانك قد امنت ولا بأس عليك فانك صاحب شجرة الدر التي هي اختي فانها لا تقطع ذكرك ابداً وتخبرنا كيف اخذت منك المال ولم تتغير وكيف جئت خلفها الى الشاطىء . واومأت لها الى الارض تعظيماً . وفي قلبها منك اكثر مما في قلبك منها . ولكن كيف وصلت الى ها هنا أبأمرها ام بغير امرها ؟ بل خاطرت بنفسك وما مرادك الا الاجتماع بها . فقلت : والله يا سيدتي اني انا الذي خاطرت بنفسي وما غرضي من الاجتماع بها الا النظر والاستماع لحديثها . فقالت : احسنت . فقلت : يا سيدتي الله شهيد على ما اقول ان نفسي لم تحدثني في شأنها بمعصية . فقالت : بهذه النية نجاك الله ووقعت رحمتك في قلبي . ثم قالت لجاريتها : يا فلانة امضي الى شجرة الدر وقولي لها : ان اختكِ تسلم عليكِ وتدعوكِ فتفضلي عندها في هذه الليلة على جاري عادتكِ فان صدرها ضيّق

فتوجهت اليها ثم عادت واخبرتها انها تقول : متّعني الله بطول حياتكِ وجعلني فداكِ والله لو دعوتني الى غير هذا ما توقفت لكن يضرّني صداع الخليفة وانتِ تعلمين منزلتي عنده . فقالت للجارية : ارجعي اليها وقولي لها : لا بُدَّ من حضورك لسرّ بينكِ وبينها . فتوجهت اليها الجارية . وبعد ساعة جاءت مع الجارية ووجهها يضيء كأنه البدر . فقابلتها واعتنقتها وقالت : يا ابا الحسن اخرج اليها وقبّل يديها . وكنت في مخدع في داخل الحجرة فخرجت اليها يا امير المؤمنين . فلما رأتني قالت لي : كيف صرت بلباس الخليفة وزينته وبخوره . ثم قالت : حدّثني بما جرى لك . فحدّثتها بما جرى لي وبما قاسيته من خوف وغيره . فقالت يعزُّ عليَّ ما قاسيته من اجلي والحمد لله الذي جعل العاقبة الى السلامة وتمام السلامة دخولك في منزلي ومنزل اختي . ثم اخذتني الى حجرتها وقالت لاختها : اني قد عاهدته ان لا اجتمع معه في الحرام . ولكن كما خاطر بنفسه وارتكب هذا الهول لاكوننَّ ارضاً لوطء قدميه وتراباً لنعليه

فقالت لها اختها : بهذه النية نجّاهُ الله تعالى . فقالت : سوف ترينَ ما اصنع حتى اجتمع معه في الحلال . فلا بدَّ ان ابذل مهجتي في التحيُّل على ذلك . فبينما نحن في الحديث واذا بضجّة عظيمة . فالتفتنا فرأينا الخليفة قد جاء يريد حجرتها من كثرة ما هو

كلِف بها . فاخذتني يا امير المؤمنين وحطّتني في سرداب وطبقته عليّ وخرجت تقابل الخليفة فلاقته ثم جلس . فوقفت بين يديه وخدمته . ثم امرت باحضار الشراب ، ومـا زالت تغنيه حتى طرب فقال تمني علي يا شجرة الدر فقالت اتمنى عليك عتقي يا امير المؤمنين لما فيه من الثواب فقال انتِ حرةٌ لوجه الله تعالى . وبعد ان سمع منهـا بعض الاصوات المطربة خرج يقصد جاريته ام المعتز بالله

واما ما كان من امر شجرة الدرّ فانها جاءت اليَّ وهي فرحانة وقالت : اني صرت حرةً بقدومك المبارك لعلَّ الله يعينني على ما ادّبره حتى اجتمع بك في الحلال . فقلت : الحمد لله . فبينما نحن في الحديث واذا بخادمها قد دخل علينا فحدثناه بما جرى لنا فقال : الحمد لله الذي جعل آخره خيراً ونسأل الله ان يتمّ ذلك بخروجك سالماً . فبينما نحن في الحديث واذا بالجارية اختها قد جاءت وكان اسمها فاتر . فقالت : يا اختي كيف نعمل حتى نخرجه من القصر سالماً فان الله تعالى منَّ عليَّ بالعتق وصرت حرةً ببركة قدومه . فقالت لها : ليس لي حيلة بخروجه الأ أن ألبسه ثياب النساء . ثم جاءت ببدلة من ثيـاب النساء فالبستنيها . ثم خرجتُ يا امير المؤمنين في ذلك الوقت . فلما جئت الى وسط القصر واذا بامير المؤمنين جالس والخدم بين يديه فنظر اليَّ وانكرني غاية الانكار وقال لحاشيته : اسرعوا وأتوني بهذه الجارية الذاهبة . فلما اتوا بي رفعوا نقابي . فلما رآني عرفني وسألني فاخبرته بالخبر ولم اخفِ عليه شيئاً . فلما سمع حديثي تفكر في امري . ثم قـام من وقته وساعته ودخل حجرة شجرة الدر فقال : كيف تختارين عليَّ بعض اولاد التجار . فقبلت الارض بين يديه وحدثته بحديثها من اوله الى آخره على وجه الصدق . فلما سمع كلامهـا رحمها ورقَّ قلبه لها وعذرها في العشق واحواله ثم انصرف . ودخل عليها خادمها وقال لها : طيبي نفساً ان صاحبكِ لما حضر بين يدي الخليفة سأله فأخبره كما اخبرتهِ حرفاً بحرف . ثم رجع الخليفة واحضرني بين يديه وقال لي : ما حملك على التجرؤ على دار الخلافة . فقلت . يا امير المؤمنين حملني على ذلك جهلي والصبابة والاقبال على عفوك وكرمك ثم بكيت وقبّلت الارض بين يديه . فقال : عفوت عنكما . ثم امرني بالجلوس فجلست فدعا بالقاضي احمد ابن ابي داود وزوّجني بها وامر بحمل جميع ما عندها اليَّ وزفّوها عليَّ في حجرتها . وبعد ثلاثة ايام خرجتُ ونقلت جميع ذلك الى بيتي . فجميع ما تنظره يا امير المؤمنين في بيتي وتنكره كلّه من جهازها

قصة

القرد والغيلم

وهي باب من ابواب « كليلة ودمنة » . وهذا الكتاب مجموعة حكايات جعلها واضعها على ألسن البهائم والطير وضمّنها كثيراً من الحِكَم والمواعظ . ويرجع الكتاب الى اصل هندي وقد نُقل الى اللسان الفهلوي (الفارسي القديم) مع بعض زيادات ، وعن الفارسية نقله عبدالله بن المقفَّع الى العربية . والترجمة العربية هي اصل جميع الترجمات الاوربية وتعدّ من الطبقة الاولى في بلاغة الانشا.

ولما كان الكتاب مشهوراً يعرفه الجميع فاننا نكتفي هنا بهذه القصة منه محرّضين المتأدبين على الاستزادة من ادبه العالي

* * *

قال بيدبا زعموا ان قرداً كان ملك القِرَدة يقال له ماهرٌ وكان قد كَبِرَ وهرم . فوثب عليه قردٌ شابٌ من بيت المملكة فتغلّب عليه واخذ مكانه فخرج هارباً على وجهه حتى انتهى الى الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقى[1] اليها وجعلها مُقامه[2] . فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين اذ سقطت من يده تينةٌ في الماء فسمع لها صوتاً وإيقاعاً[3] فجعل يأكل ويرمي في الماء فأطربه ذلك فاكثر من تطريح التين في الماء وثَمَّ[4] غيلمٌ كلما وقعت تينةٌ اكلها . فلما كثر ذلك ظَنَّ ان القرد انما يفعل ذلك لاجله فرغبَ في مصادقته وأَنِسَ اليه وكلّمه وأَلِفَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه

طالت غيبة الغيلم عن زوجته فجزعت عليه وشكت ذلك الى جارةٍ لها وقالت

(١) صعد (٢) محل اقامته (٣) نغمة حسنة

(٤) هناك . والغيلم ذكر السلحفاة

قد خِفتُ ان يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله[١]. فقالت لها ان زوجكِ في الساحل قد أَلِفَ قرداً وأَلِفهُ القرد فهو مؤاكله ومُشاربه[٢] وهو الذي قطعه عنكِ ولا يقدر ان يقيم عندكِ حتى تحتالي لهلاك القرد. قالت: وكيف اصنع؟ قالت جارتها اذا وصل اليكِ فتمارضي[٣] فاذا سألكِ عن حالكِ فقولي ان الاطباء وصفوا لي قلب قردٍ

ثم ان الغيلم انطلق بعد مدة الى منزله فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة فقال لها: مالي اراكِ هكذا؛ فاجابته جارتها وقالت: ان زوجتك مريضة مسكينة وقد وصف لها الاطباء قلب قردٍ وليس لها دواءٌ سواه. قال الغيلم: هذا امرٌ عسير من اين لنا قلب قرد ونحن في الماء، وبقي متحيراً. ثم قال في نفسه: ما لي قدرةٌ على ذلك الا ان اغدر بخليلي[٤] وصاحبي، وإثمهُ[٥] عندي شديدٌ وأشدُّ من ذلك هلاك زوجتي لان الزوجة الصالحة لا يعدلها شيءٌ لانها عونٌ[٦] على امر الدنيا والآخرة

ثم عاد الى الساحل حزيناً كئيباً مفكراً في نفسه كيف يصنع. فقال له القرد يا اخي ما حبَسكَ[٧] عني. قال له الغيلم: ما حبسني عنك الا حيائي فلم اعرف كيف أكافئك على احسانك اليَّ. وأريد ان تُتمّ احسانك اليَّ بزيارتك لي في منزلي فاني ساكنٌ في جزيرة طيّبة الفاكهة، فاركب ظهري لاسبح بك فانَّ افضل ما يلتمسه المرء من أخلائه ان يَغشَوا[٨] منزله وينالوا من طعامه وشرابه ويعرفهم اهله وولَده وجيرانه. وانت لم تطأ منزلي ولم تذق لي طعاماً ولا شراباً وذلك منقصةٌ وعارٌ عليَّ. قال له القرد: وما يريد المرء من خليله الا ان يبذل له وُدَّه ويُصفي له قلبه وما سوى ذلك ففضولٌ[٩] قال الغيلم نعم، غير ان الاجتماع على الطعام والشراب آكدُ[١٠] المودَّة والأُنس. لأنَّا نرى الدوابَّ اذا اعتلفت[١١] معاً أَلِف بعضها بعضاً. وكان يقال لا ينبغي للعاقل ان يَلجَّ على اخوانه في المسئلة فان العِجل اذا اكثر مصَّ ضرعِ[١٢] أُمِّه نطحته

فرغب القرد في الذهاب معه فقال حباً وكرامة ونزل فركب ظهر الغيلم فسبَحَ به،

---

(١) اهلكه (٢) اي آكلهُ وشاربٌ معه (٣) اي تظاهري بانك مريضة
(٤) بصديقي (٥) ذنبه اي ذنب هذا الغدر (٦) معينة
(٧) اي ما منعك (٨) يأتوا (٩) اي زيادة بلا فائدة
(١٠) اي اكثر تاكيداً (١١) اطعمت العلف وهو ما تطعمه الدواب
(١٢) الضرع للبقر ونحوها بمنزلة الثدي للمرأة

حتى اذا تجاوز قليلاً عرض له قُبح ما اضمر في نفسه من الغدر فنكس رأسه ووقف وقال في نفسه كيف اغدر بخليلي لكلمة قالتها امرأة من الجاهلات . وما ادري لعلَّ جارتي قد خدعتني وكذبت بما روت عن الاطباء . فان الذهب يُجرَّب بالنار والرجالُ بالاخذ والعطاء والدواب بالحمل والجري ، ولا يقدر احد ان يُجرِّب مكر النساء ولا يقدر على كيدهنَّ وكثرة حِيلهنَّ

فقال له القرد : ما لي اراك مهتماً . فقال الغيلم : انما همّي لاني ذكرتُ ان زوجتي شديدة المرض وذلك يمنعني من كثير مما أُريد ان ابلغه من كرامتك وملاطفتك . قال القرد . ان الذي اعرف من حِرصك على كرامتي يكفيك مؤونة[1] التكلُّف . قال الغيلم أجل . . . ومضى بالقرد ساعة ثم توقَّف به ثانيةً . فساء ظنُّ القرد وقال في نفسه ما احتباس الغيلم وابطاؤه الا لامرٍ . ولستُ آمناً ان يكون قلبه قد تغيَّر لي وحالَ[2] عن مودتي فاراد بي سوءًا . فانه لا شيء اخفُّ واسرع تقلباً من القلب . وقد يُقال ينبغي للعاقل ان لا يغفل عن التماس ما في نفس اهله وولده واخوانه وصديقه عند كل امر وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود وعلى كل حال . فان ذلك كله يشهد على ما في القلوب . وقد قالت العلماء اذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبةٌ[3] فليأخذ بالحزم[4] في التحفُّظ منه . وليتفقَّد ذلك في لحظاته وحالاته فان كان ما يظنُّ حقاً ظفِرَ بالسلامة وان كان باطلاً ظفرَ بالحزم ولم يَضُرَّهُ ذلك

ثم قال للغيلم ما يحبسُك ومالي اراك مهتماً كأنك تُحدِّث نفسك مرةً أُخرى . قال يهمّني انك تأتي منزلي فلا تجد امري كما أُحبُّ لان زوجتي مريضة . قال القرد لا تغتمَّ فان الغمَّ لا يُغني عنك شيئاً . ولكن التمس ما يصلح لزوجتك من الادوية والاغذية . فانه يقال ليَبذُلْ ذوو المال مالهم في اربعة مواضع : في الصدقة وفي وقت الحاجة وعلى البنين وعلى الازواج ولا سيما اذا كنَّ صالحات . قال الغيلم صدَقت . وقد قالت الاطباء انَّ لا دواء لها الا قلب قرد . فقال القرد في نفسه : واسوءتاه[5] لقد ادركني الحِرص والشره على كبر سنّي حتى وقعت في شر ورطة . ولقد صدق الذي قال يعيش القانع الراضي

---

(١) ثقل وشدة (٢) انقلب (٣) شك (٤) ضبط الامر والاخذ فيه بالثقة
(٥) اي وا حزني

مستريحاً مطمئناً وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونَصَب(١) واني قد احتجت الآن الى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه

ثم قال للغيلم : وما منعك اصلحك الله ان تُعلِمني عند منزلي حتى كنت احمل قلبي معي · فان هذه سُنّة(٢) فينا معاشرَ القِرَدة اذا خرج احدنا لزيارة صديق له خلَّفَ قلبَه عند اهله او في موضعه لننظر اذا نظرنا الى حُرَمه وليس قلوبنا معنا · قال الغيلم : واين قلبك الآن ؟ قال خلّفته في الشجرة فان شئت فارجع بي الى الشجرة حتى آتيك به · ففرح الغيلم بذلك وقال : لقد وافقني صاحبي بدون ان اغدر به ثم رجع بالقرد الى مكانه · فلما قاربَ الساحل وثب عن ظهره فارتقى الشجرة · فلما ابطأ على الغيلم ناداه يا خليلي احملْ قلبك وانزل فقد حبستني · فقال القرد هيهات اتظن اني كالحمار الذي زعم ابن آوى انه لم يكن له قلبٌ ولا أذنان · قال الغيلم وكيف كان ذلك

قال القرد زعموا انه كان اسدٌ في اَجَمَةٍ(٣) وكان معه ابن آوى يأكل من فضلات طعامه · فاصاب الاسد جربٌ وضعف شديد وُجهد فلم يستطع الصيد · فقال له ابن آوى : ما لك يا سيّد السباع قد تغيرتْ احوالك · قال هذا الجرب الذي قد جَهدني وليس له دواء الا قلب حمار وأذناه · قال ابن آوى ما ايسر هذا · وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصّارٍ(٤) يحمل عليه ثيابه وانا آتيك به · ثم دلَفَ(٥) الى الحمار فأتاه وسلّم عليه وقال له ما لي اراك مهزولاً · قال لسوء تدبير صاحبي فانه لا يزال يُجيع بطني ويُثقل ظهري · وما تجتمع هاتان الحالتان على جسمٍ الا أنحلتاه وأسقمتاه · فقال له كيف ترضى المُقام معه على هذا · قال ما لي حيلة للهرب منه فلست اتوجه الى جهةٍ الا اضرَّ بي انسانٌ فكدّني(٦) وأجاعني · قال ابن آوى فانا ادلّك على مكان معزول عن الناس لا يمرُّ به انسانٌ ، خصيب المرعى فيه عانةٌ(٧) من الحُمُر ترعى آمنة مطمئنة · قال الحمار وما يحبسنا(٨) عنها فانطلقْ بنا اليها · فانطلقَ به نحو الاسد وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الاسد فاخبره بمكان الحمار · فخرج اليه واراد ان يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلّص الحمار منه فأفلت هلِعاً(٩) على وجهه · فلما رأى ابن آوى ان الاسد لم يقدر على الحمار قال

---

(١) اعياء (٢) عادة (٣) واحدة الاجم وهو الشجر الكثيف الملتف
(٤) مُحوِّر الثياب اي مبيّضها (٥) اسرع (٦) اتعبني
(٧) قطيع من الحمير (٨) اي ما يمنعنا (٩) اي ذهب مسرعاً مضطرباً

له يا سيد السباع أعجزت الى هذه الغاية ! فقال له ان جئتني به مرة أخرى فلن ينجوَ مني ابداً

فمضى ابن آوى الى الحمار فقال له ما الذي جرى عليك : ان احد الحُمر رآك غريباً فخرج يتلقاك مُرَحِباً بك ولو ثبتَّ لآنسك ومضى بك الى اصحابه . فلما سمع الحمار ذلك ولم يكن رأى اسداً قطّ صدّق ما قاله ابن آوى واخذ طريقه الى الاسد . فسبقه ابن آوى الى الاسد واعلمه بمكانه وقال له استعدَّ له فقد خدعته لك فلا يدركنَّك الضعفُ في هذه النوبة[1] ، فانه ان أفلتَ لن يعود معي ابداً والفُرَص لا تُصاب[2] في كل وقت . فجاش جأش الاسد[3] لتحريض ابن آوى له وخرج الى موضع الحمار فلما بصُرَ به عاجله بوثبةٍ افترسه بها ثم قال قد ذكرت الاطباء انه لا يؤكل الا بعد الاغتسال والطهور . فاحتفظْ به حتى اعود فآكل قلبه وأُذنيه واترك لك ما سوى ذلك قوتاً لك

فلما ذهب الاسد ليغتسل عمد ابن آوى الى الحمار فأكل قلبه وأُذنيه رجاء ان يتطيَّرَ[4] الاسد منه فلا يأكل منه شيئاً . ثم ان الاسد رجع الى مكانه فقال لابن آوى : اين قلب الحمار وأُذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم انه لو كان له قلبٌ يعقل به وأُذنان يسمع بهما لم يرجع اليك بعدما افلتَ ونجا من الهلكة

وانما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم اني لست كذلك الحمار الذي زعم ابن آوى انه لم يكن له قلب ولا أُذنان . ولكنك احتلت عليَّ وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك واستدركتُ فارط امري[5] . وقد قيل ان الذي يُفسده الحلم لا يُصلحه الا العلم . قال الغيلم صدقت الا ان الرجل الصالح يعترف بزلته واذا اذنب ذنباً لم يستحيِ ان يؤدَّب لصدقه في قوله وفعله . وان وقع في ورطة[6] امكنه التخلص منها بحيلته وعقله كالرجل الذي يعثر على الارض وعليها يعتمد في نهوضه

فهذا مَثل الرجل الذي يطلب الحاجة فاذا ظفر بها اضاعها

---

(١) الفرصة (٢) لا تدرك (٣) اي جبنت نفسه
(٤) يتشاءم اي يعتقد الشؤم وهو ضد البركة (٥) اي طلبت وانبت ما فاتني
(٦) شدة

الأمانة (١)

قال احد التجار :

قصدتُ الحج في بعض الاعوام ، وكانت تجارتي عظيمةً ، واموالي كثيرة ، وكان في وسطي هِمْيان(٢) ، فيه دنانير وجواهر قيمة وكان الهِميان من ديباج اسود

فلما كنت ببعض الطريق نزلت لأقضيَ بعض شأني ، فانحلَّ الهِميان من وسطي وسقط ولم اعلم بذلك الا بعد ان سرتُ عن الموضع فراسخ ، ولكنَّ ذلك لم يكن يؤثر في قلبي لما كنت احتويه من غنىً ، واستخلفت ذلك المال عند الله ، اذ كنت في طريقي اليه تعالى

ولما قضيتُ حجّتي وعُدتُ تتابعتِ المحنُ عليَّ حتى لم املك شيئاً · فهربت على وجهي من بلدي · ولما كان بعد سنين من فقري أفضيت الى مكان وزوجي معي ، وما أملك في تلك الليلة الا دانقاً(٣) ونصفاً · وكانت الليلة مَطيرة ، فأويت في بعض القرى الى خان خراب · فجاء زوجي المخاض فتحيرتُ . ثم ولدتْ فقالت : يا هذا الساعةَ تخرج روحي فاتخذ لي شيئاً اتقوى به · فخرجتُ أخبط في الظلمة والمطر حتى جئت الى بدّال(٤) فوقفت عليه ، فكلمني بعد جهد ، فشرحتُ له حالي ، فرحمني واعطاني بتلك القطع حلبةً وزبيباً واغلاهما ، واعارني إناء جعلت ذلك فيه · وجئت اريدُ الموضع ، فلما مشيتُ بعيداً وقربتُ من الخان زلقت رجلي وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه · فوردَ على قلبي امرٌ عظيم ما ورد عليَّ مثله قط فاقبلتُ ابكي وأصيح · واذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك في داره وقال : ويلك ما لك تبكي ؟ ما تدَعُنا ننام !

---

(١) الفرج بعد الشدة ص ١٣ ج ٢
(٢) الهميان المنطقة
(٣) الدانق : سدس الدرهم
(٤) البدال : بياع الاطعمة

فشرحتُ له القصة ، فقال : يا هذا البكاء كله بسبب دانق ونصف !

قال : فداخلني من الغمّ اعظم من الغمّ الاول ، فقلت : يا هذا والله ما عندي شيء لما ذهب مني ، ولكن بكائي رحمة لزوجي ولنفسي ؛ فإن امرأتي تموت الآن جوعاً . ووالله لقد حججتُ في سنة كذا وكذا وانا املك من المال شيئاً كثيراً ، فذهب مني هِميان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار ، فما فكّرتُ فيه ، وانت تراني الساعة ابكي بسبب دانق ونصف . فاسأل الله السلامة ولا تعايرني فتُبلَى بمثل بلواي

قال : فقال لي : بالله يا رجل ما كانت صفة هِميانك ، فاقبلت ابكي وقلت : ما ينفعُني ما خاطبتَني به ، أوَما تراه من جَهدي وقيامي في المطر حتى تستهزىء بي ايضاً ! وما ينفعني وينفعك من صفة هِمياني الذي ضاع منذ كذا وكذا !

قال : ومشيتُ . فاذا الرجل قد خرج وهو يصيح بي : خذ يا هذا ، فظننته يتصدق عليَّ ، فجئت وقلت له : اي شيء تريد ؟ فقال : صف هِميانك وقبَضَ عليَّ . فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له ، فوصفته فقال لي : ادخُل . فدخلتُ ، قال : اين امرأتُك؟ قلت : في الخان ، فانفذ غلمانه فجاءوا بها ، وأُدخلتْ الى حُرَمه[1] ، فاصلحوا شأنها واطعموها كل ما تحتاج اليه ، وجاءوني بجُبَّة وقميص وعمامة وسَراويل ، وأُدخلتُ الحمام سَحراً وطُرح ذلك عليَّ ، واصبحتُ في عيشة راضية . وقال : أقم عندي اياماً ، فاقمت عشرة ايام كان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير وانا متحيّر في عظم برّه بعد شدة جفائه !

فلما كان بعد ذلك قال لي : في اي شيء تتصرَّف ؟ قلت : كنت تاجراً ، قال : فلي غلّات وانا اعطيك رأس مال تتَّجر فيه وتَشركني ، فقلت : افعل . فاخرج لي مائتي دينار فقال : خذها واتجر فيها ها هنا ، فقلت : هذا معاش قد أغناني به الله يجب ان الزمه ، فلزمتُه

فلما كان بعد شهور رجعت فجئتُه واخذت حقّي واعطيته حقه ، فقال : اجلس فجلست ، فاخرج لي هِمياني بعينه وقال : أتعرفُ هذا ؟ فحين رأيتُه شهقت وأُغمي عليَّ

---

(١) حرم الرجل : اهل بيته

فما أفقتُ الأ بعد ساعة ! ثم قلت له : يا هذا ، أملكٌ انت ام نبيّ ! فقال : انا احفظه منذ كذا وكذا سنة ، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وطالبتك بالعلامة فاعطيتها اردت ان اعطيك للوقت هِميانك ، فخفتُ ان يغشى عليك فاعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتُك انها هبة وانما اعطيتُكها من هِميانك ؛ فخذْ هميانك واجعلني في حلّ ، فشكرته ودعوت له

واخذت الهميان ورجعت الى بلدي ، فبعتُ الجوهر وضممت ثمنه الى ما معي واتجرتُ ، فما مضت الاُسنيَّات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي !

* * *

ولما كان المقام لا يتّسع للتمثيل على جميع انواع النثر القصصي فاننا نجتزىء بما ذكرنا آنفاً ونوجّه نظر الراغبين في الاستزادة من القصص القديمة الى الكتب التالية :

قصص الانبياء – للكسائي	كليلة ودمنة – لابن المقفع
كتاب البخلاء – للجاحظ	كتاب الاغاني – للاصفهاني
الفرج بعد الشدة – للتنوخي	مصارع العشاق – لابن احمد السرّاج
الف ليلة وليلة – سيرة عنترة –	مقامات بديع الزمان
ثمرات الاوراق – للحموي	

وقد ظهر حديثاً في مصر مجموعة وافية في ثلاثة اجزاء تحت عنوان « قصص العرب » تضم عدداً كبيراً من الحكايات العربية واخبار العرب وهي حريّة بالمراجعة

اما الادب القصصي الحديث فلا يمكن هنا حصر ما ظهر فيه من روايات وحكايات موضوعة ومترجمة فنقف عند حدّ الاشارة اليها ونحيل طالب الاطلاع على انواع القصة العربية الحديثة الى النماذج التالية :

الاقليميات — قصص محمود تيمور ، وخليل تقي الدين

الاجتماعيات — قصص جبران جبران ، وعبرات المنفلوطي ، ووحي القلم للرافعي

السير — الايام . وعلى هامش السيرة لطه حسين ، عصفور من الشرق للحكيم

النوادر والفكاهات — المناهل لجرجس المقدسي ، واساطير الكيلاني

ومن الروايات الطويلة روايات زيدان وصروف وفرح انطون ونقولا حداد وكرم وعواد وسواهم

واننا نشير اشارة خاصة الى العدد الاول من السنة الرابعة لمجلة العروة الوثقى في الجامعة الاميركية (بيروت) ، وكذلك الى محاضرة للاستاذ محمود تيمور موضوعها نشوء القصة. ففي كلا المصدرين ما يفيد الباحث

النثر الترسلي

« والترسّل » من المصطلحات الادبية المولّدة(١) ، ويراد به كتابة الرسائل . وكانت الرسائل في اول امرها عبارة عمّا يدور من المراسلات بين شخصين ، ثم تطوّر المعنى مع الزمـان فصارت تشمل القطع الادبية المكتوبة لغرض خاص - كرسالة عبد الحميد الى الكتاب - والرسالة العذراء لابن المدبّر - ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ - والرسالة الحاتمية لابي علي الحاتمي - ورسالة الغفران للمعري - ورسائل اخوان الصفا - وسواها

والترسّل اليوم هو الفن الكتابي الذي يعبّر بطريقـة فنية عن خوالج الكاتب او افكاره فيدخل تحته كثير مما يُنشر في الصحف او المصنفات الادبية كنظرات المنفلوطي وعواصف جبران وتجاريب يكن واحاديث طه حسين ومطالعات العقاد وساعات هيكل ومصنّفات المازني والرافعي والريحاني ومَيّ ومبارك ونعيمه ونظرائهم من كتبة العصر

وللترسّل في صدر الاسلام طابع خاص عرف بايجازه وبُعده عن التصنّع يشهد بذلك اقوال الصحابة والتابعين وسواهم من رجال القرن الاول . ثم اخـذ منذ ايام عبد الحميد الكاتب (اي منذ اواخر العصر الاموي) بالتحوّل عن ذلك الى طريقة التبسّط وتوازن العبارات كما ترى في رسائل سهل بن هارون ، وابرهيم بن المدبّر ، والحسن بن سهل ، وعبدالله بن المعتز ، والجاحظ وهو اشهرهم . وفي اسلوبه يكثر تقطيع الجمل وتوازنهـا والتفنن في ايراد المعاني وكثرة الاستطراد

وفي القرن الرابع الهجري قويت شوكة السجع حتى غلب على سواه من اساليب الكتابة ولم يلبث بعد ابن العميد والصابي والصاحب بن عباد وبديع الزمـان ان اصبح النمط الشائع وصار المترسّلون ككثير من الشعراء لا همّ لهم الا التأنق بانواع البديع

وقد حاول ابن خلدون في القرن الثامن ان يصدّ تيار التأنق البديعي والسجع المتكلف

(١) اي المستحدثة في العصر العباسي

في الكتابة فحمل عليه حملة شعواء [1] لكنه لم يُفلح اذ كان التيار اقوى من ان يصدّه شخص واحد. وهكذا كرّت الاجيال والنمط الكتابي يجري على وتيرة واحدة والكتبة المتأخرون يقلّدون المتقدمين مثل القاضي الفاضل « ومدرسته » . وما زال التقليد هو الطريق المتّبع والكتابة تضعف بواسطته رويداً رويداً حتى بلغت قبل قرنين حضيض الضعف ولم تنهض منه الا في اواخر القرن الماضي حين اخذ الشرق العربي يستفيق من سُباته العميق وينفض عنه ظلام الجهل السائد . ومنذ ذلك الحين ظهرت في البلدان العربية — واسبقها لبنان وسوريا ومصر — حركة للتحرُّر من قيود التصنع القديم والركاكة اللغوية العامّة والرجوع الى الاسلوب المطلق الذي يعبّر عن النفس تعبيراً حرّاً. ولا شك ان انتشار الصحافة واقبال الجمهور عليها كانا من اهم العوامل في الاخذ بهذا الاسلوب

وبعد ان كان الترسّل ضيّق النطاق من حيث المواضيع ، قصير النظر في الحياة والطبيعة اصبح الآن بفضل التقدم العلمي والعمراني يتناول شتى المباحث ويعالج مختلف الشؤون — ينظر في الطبيعة وعبر التاريخ ويفكّر في مشاكل الفرد والمجتمع ويصف الوان الحضارة والعمران

ولما كان الترسّل المسجّع القديم يجري على وتيرة واحدة كانت شخصيات الكتاب قليلة البروز فيه . اما الكتابة الحرّة اليوم فلشخصيات اصحابها اثر بيّن فيها . واذا كان الاسلوب كما يقولون هو الشخص فانما ذلك يصح بالاكثر على الكتّاب الحديثين الذين يعالجون المواضيع الكتابية كلٌّ على نمطه الخاص

(١) المقدّمة ٥٦٧ و٥٦٨

من رسائل صدر الاسلام

للترسُّل في صدر الاسلام كما ذكرنا آنفاً طابع خاص هو طابع البساطة المُحكمة . واهم مزاياه الايجاز والمتانة والبعد عن التصنُّع . وها نحن نثبت هنا بعض الامثلة من ذلك العصر على ان نعود اليه في كلامنا عن الاسلوب الخطابي

كتاب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري (١)

كان ابو موسى عاملاً لعمر وأحد كبراء المسلمين . وهو الذي انابه الامام عليٌّ عنه يوم التحكيم

« أمّا بعد فإن للناس نُفرة عن سلطانهم فاعوذ بالله ان تُدركني وإياك عَمياء مَجهولة وضغائنُ مَحمولة وأهواء متَّبعة ودنيا مُؤثَرة . فأقِم الحدود ولو ساعة من نهار ، واذا عرض لك امران احدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فان الدنيا تَنفَدُ والآخرة تبقى . وكن من خشية الله على وجل ، وأخِفِ الفسّاق واجعلهم يداً يداً ورِجلاً رجلاً . واذا كانت بين القبائل نائرة (٢) وتداعوا : يا آل فلان ، فإنما تلك نجوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام . وعُد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر امرَهم بنفسك . انت امرؤ منهم ، غير ان الله جعلك اثقلهم حِملاً . وقد بلغ امير المؤمنين أنه فَشا لك ولاهل بيتك هَيئةٌ في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبدَالله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرَّت بوادٍ خصيب فلم يكن لها هِمّةٌ الا السِّمن ، وإنما حتفُها في السِّمن ! واعلم ان للعامل مردّاً الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وان اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام »

---

(١) البيان والتبيين ٢-٢٣٣ (٢) النائرة — الفتنة الهائجة

كتاب الحجاج الى سليمان بن عبد الملك

كان بين الحجّاج وسليمان (قبل ان تولى الخلافة) جفاء . فكتب سليمان الى الحجاج كتاباً شديد اللهجة يتهدده فيه ويغلظ له القول . ولم يكن الحجاج من الذين يحتملون الضيم وهو رجل الدولة وسيفها البتّار فاجابه بما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجـاج بن يوسف الى سليمان بن عبد الملك ، سلام على من اتبع الهُدى ، اما بعد : فانك كتبتَ اليَّ تذكرُ اني امرؤٌ مهتوكٌ عني حجابُ الحق ، مُولعٌ بما عليَّ لا لي ، منصرفٌ عن منافعي ، تاركٌ لحظّي ، مستخفٌ بحق الله وحق وليّ الحق . وتذكر انك ذو مُصاوَلة [١] . ولَعَمري انك لَصَبي حديثُ السن تُعذَر بقلة عقلك وحداثة سنك ، ويُرقَبُ فيك غيرُك

فاما كتابك اليَّ فلَعَمري لقد ضَعُف فيه عقلك واستخفَّ به حِلمك . فلله ابوك ! أفلا انتصرتَ بقضاء الله دون قضائك ورجاء الله دون رجائك ، وأمتَّ غيظك وأمتَّ عدوّك وسترتَ عنه تدبيرك ولم تنبهه فيلتمسَ من مكايدتك ما تلتمسُ من مكايدته ! ولكنك لم تَشفَ [٢] بالامور علماً ولم تُرزَق من امرك حَزماً . جمعتَ اموراً دلاّك فيها الشيطانُ على أسوإ امرك فكان الجفـاء من خَليقتك والحمق من طبيعتك ، وأقبل بك الشيطانُ وأدبر وحدّثك أنك لن تكون كاملاً حتى تتعـاطى ما يَعيبك فتجذاقت [٣] حَنجرتك لقوله واتسع جوانبُها لكذبه

واما قولك : لو ملّكني اللهُ لعلّقتَ زينبَ ابنة يوسف [٤] بثديَيها فارجو ان يُكرمها الله بهوانك وان لا يوفّق ذلك لك ان كان ذلك من رأيك ، مع اني اعرفُ ذلك انك كتبت اليَّ والشيطانُ بين كتفيك ، فشرٌّ مُمْلٍ عليك على شر كاتبٍ راضٍ بالخسف . فأَحرِ بالحق ان لا يدلك على هدى ولا يردك الا الى ردى . وتحلّب [٥] فوك للخلافة فانت شامخ البَصَر طامح النظر تظن انك حين تملكها لا تنقطع عنك مُدَّتها . انها لَلُقطة [٦] الله ، اسأل الله ان يُلهمك فيها الشكرَ ، مع اني ارجو ان ترغبَ فيما رَغِب

(١) اي سطوة (٢) شفّ نظر (٣) تجذاق اظهر الحذق وادعى اكثر مما عنده
(٤) اي اخت الحجاج (٥) اي سال (٦) اللقطة اسم للشيء الذي تجده فتأخذه

فيه ابوك واخوك فاكون لك مِثلي لهما . وان نفخ الشيطان في منخريك فهو امر اراد الله نزعه عنك واخراجه الى من هو اكمل به منك . ولعمري انها لنصيحة فان تقبلها فمثلها قبل ، وان تردها عليَّ اقتطمتها دونك . وانا الحجاج »(١)

الامام العادل

لما وليَ عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب الى ابي سعيد الحسن البصري ان يكتب اليه بصفة الإمام العادل فبعث اليه بهذه الرسالة(٢) . والحسن البصري من سادات التابعين وكان معروفاً بالعفة والورع والزهد وقد نشأ في وادي القرى وتلقَّى الفصاحة من أعرابه وتوفي سنة ١١٠ هـ. وهو شيخ واصل بن عطاء رأس المعتزلة

« اعلم يا امير المؤمنين أن الله جعلَ الإمام العادل قوامَ كلِّ مائل ، وقصد(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصفة(٤) كل مظلوم ، ومَفزَعَ كل ملهوف . والإمام العدل يا امير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتادُ لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلَكة ، ويحميها من السباع ، ويكنُفها من اذى الحرّ والقرّ . والامام العدل يا امير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ويدّخر لهم بعد مماته . والامام العدل يا امير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها ، حمَلَته كُرهاً ووضعته كرهاً وربَّته طفلاً ، تسهر بسهره وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتفطمه أُخرى ، وتفرحُ بعافيته وتغتمّ بشكايته . والامام العدل يا امير المؤمنين وصيُّ اليتامى وخازن المساكين ، يربّي صغيرهم ويمون كبيرهم . والامام العدل يا امير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تَصلُح الجوانح بصلاحه ، وتفسُد بفساده . والامام العدل يا امير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمَع كلام الله ويُسمِعهم ، وينظر الى الله ويُريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم

(١) عن جمهرة رسائل العرب ٢-٢٨٨ (٢) تجدها في العقد الفريد ١-١٢ ونهاية الارب ٦-٣٧ (٣) هداية ورشاد (٤) اسم من الإنصاف

فلا تكن يا امير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال ، فافقر اهله وفرق ماله . واعلم يا امير المؤمنين ان الله أنزل الحدودَ ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا اتاها من يَليها ؟ وان الله أنزل القِصاصَ حياةً لعباده ، فكيف اذا قتلهم مَن يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا امير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلةَ اشياعِك عنده وانصارِك عليه ، فتزوَّدْ له ولما بعدَه من الفزَع الاكبر .

واعلم يا امير المؤمنين ان لك منزلاً غير المنزل الذي انت فيه يَطُول فيه ثَواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويُسلِمونك في قعره فريداً وحيداً . فتزوَّد له ما يَصحَبُك يومَ يفرُّ المرءُ من اخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، واذكر يا امير المؤمنين اذا بُعثِر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور ، فالاسرار ظاهرة ، والكتابُ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً الا احصاها

فالآن يا امير المؤمنين وانت في مَهَل قبل حلول الاجل وانقطاع الامل لا تحكُمْ يا اميرَ المؤمنين في عِبادِ الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُكْ بهم في سبيل الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبِرين على المستضعَفين . فانهم لا يَرقُبون في مؤمنٍ إلاً [1] ولا ذمّةً ، فتبوء باوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك وتحملَ أثقالك ، وأثقالاً مع اثقالك . ولا يغرَّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسُك ، ويأكلون الطيّبات في دنياهم بإذهاب طيّباتكَ في آخرتك . لا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن أنظر الى قدرتك غداً ، وانت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَتِ [2] الوجوهُ للحي القيوم

اني يا امير المؤمنين و إن لم أبلغ بعِظَتي ما بلغهُ أولو النُّهى من قبلي فلم آلُكَ [3] شفقةً ونصحاً . فأنزِلْ كتابي اليك كمُداوي حبيبه ، يسقيه الادوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

---

(١) عهدًا (٢) خضعت وذلت (٣) لم اقصر

منتخبات

من رسالة الدرة اليتيمة

لعبدالله بن المقفع

وهو فصول بليغة في الآداب والاخلاق العالية مما يحتاج اليها الناس . وقد نقلنا ما يلي من باب الصَّديق [١] وفيه يظهر تفكير هذا الكاتب ومتانة اسلوبه

* * *

أبذُل لصديقك دمَكَ ومالَك ولمعرفتك رِفْدَك [٢] ومحضرك وللعامَّة بِشرك وتحنُّنك ولعدوِّك عدلك ، واضْنَنْ بدينك وعِرضك عن كلّ احد

إن سمعتَ من صاحبك كلاماً او رأياً يُعجبك فلا تنتحله [٣] تزيُّناً به عند الناس ، واكتفِ من التزيّن بان تجتنيَ الصواب اذا سمعته وتنسُبه الى صاحبه . واعلم ان انتحالك ذاك سخطةٌ [٤] لصاحبك وأنَّ فيه مع ذلك عاراً فان بلغ ذلك بك ان تُشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعتَ مع الظلم قلة الحياء ، وهذا من سوء الادب الفاشي في الناس . ومن تمام حُسن الخُلق والادب أن تسخوَ نفسك لأخيك بما انتحلَ من كلامك ورأيك وتنسُبَ اليه رأيَهُ وكلامهُ وتزيِّنهُ مع ذلك ما استطعت

إن رأيتَ صاحبك مع عدوِّك فلا يغضبنَّك ذلك فانما هو احد رجلين ، ان كان رجلاً من إخوان الثقة فانفعُ مواطنهِ لك اقربُها من عدوِّك لشرٍّ يكفُّه عنك وعورةٍ يسترُها

---

(١) راجع الرسالة في مجموعة « رسائل البلغاء » لناشرها الاستاذ محمد كرد علي

(٢) الرفد بالكسر العطاء ، والمحضر الحضور ، والبشر بالكسر طلاقة الوجه

(٣) اي لا تدَّعه ولا تنسبه لنفسك (٤) اي كراهة واغضاب

منك وغائبة يطّلع عليها لك . فاما صديقك فما أغناك أن يحضُرَه ذو ثقتك . وان كان من غير خاصّة إخوانك فبأيِّ حقٍّ تقطعه عن الناس وتُكلّفه أنْ لا يُصاحب ولا يُجالس الا من تهوى

تحفّظ في مجلسك وكلامك من التطاول (١) على الاصحاب وطِبْ نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراةً لئلا يَظنّ اصحابُك ان ما بك (٢) التطاول عليهم

اذا أقبلَ اليك مُقبلٌ بودّه فسرّكَ ألّا يُدبِرَ عنك فلا تُنعِم (٣) الاقبال عليه والتفتّح له فان الانسان طُبِعَ على ضرائب (٤) لؤم فمن شأنه ان يَرحلَ عمّن لَصِقَ به ويَلصق بمَن رحل عنه

استحيِ الحياء كله من ان تُخبِر صاحبك أنك عالمٌ وأنه جاهل مُصرّحاً او مُعرّضاً وإنِ استطلتَ على الاكفاء فلا تثقنَّ منهم بالصفاء

إن آنستَ من نفسك فضلاً فتحرّج ان تذكره او تبديه . فاعلم ان ظهوره منك بذلك الوجه يُقرّر لك في قلوب الناس من العيب اكثر مما يقرّر لك من الفضل . واعلم إنك إن صبرتَ ولم تَعجَلْ ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف ولا يخفينَّ عليك أن حرص الرُجل على اظهار ما عنده وقلة وقاره في ذلك بابٌ من البخل واللوم وأنَّ من خير الاعوان على ذلك السخاء والتكرُّم

إن احببتَ ان تلبسَ ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحلية المودّة عند العامّة وتسلك الجدَدَ الذي لا خبارَ (٥) فيه ولا عِثارَ فكنْ عالماً كجاهل وناطقاً كعيِيٍّ . فامّا العلم فيرشدك واما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد واما المنطق اذا احتجتَ اليه فَسيُبلغ حاجتك واما الصمت فيُكسبك المحبة والوقار

واذا رأيتَ رجلاً يُحدّث حديثاً قد عَلِمتَه او يُخبر خبراً قد سمعته فلا تشاركه فيه ولا

---

(١) التطاول التفضل ورفع النفس (٢) ما اسم موصول اسم ان والتطاول خبرها

(٣) اي تزد (٤) جمع ضريبة وهي الطبيعة

(٥) الجدد المستوي من الارض . والخبار ارض رخوة

تتعقبه عليه حرصاً على ان يعلم الناس انك قد علمته فان في ذلك خفّةً وشحاً (١) وسوء ادبٍ وسُخفاً

إحفظْ قول الحكيم الذي قال لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدْل وفيما بينك وبين صديقك الرضى، وذلك ان العدوَّ خصمٌ تضربه بالحجة وتغلبه بالحكّام وأنَّ الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ فإنما حُكمه رضاه

وطِّن نفسك على انه لا سبيل لك الى قطيعة أخيك وان ظهر لك منه ما تكرهُ فانه ليس كالمرأة التي تُطلّقها اذا شئت، ولكنه عِرضُك ومُروءتك فانما مُروءة الرجُل إخوانه وأخدانه (٢). فان عثر (٣) الناس على انك قطعتَ رَجُلاً من اخوانك وان كنت مُعذِراً (٤) نُزّل عند اكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال. وإن انت صبرتَ مع ذلك على مُقارّته (٥) على غير الرضى عادَ ذلك الى العيب والنقيصة فالاتئادَ الاتئادَ والتثبُّتَ التثبت

إلبسْ للناس لباسَين ليس للعاقل بُد منهما ولا عيشَ ولا مُروءةَ الا بهما، لباسَ إنقباضٍ واحتجازٍ (٦) تلبسُه العامّة فلا تُلفينَّ الا متحفِّظاً متشدداً متحرِّزاً مستعداً، ولباسَ انبساطٍ واستئناسٍ تلبَسُه للخاصّة من الثِّقات فتتلقّاهم ببنات صدرك وتفضي اليهم بموضوع حديثك وتضعُ عنك مؤونة الحذر والتحفُّظ فيما بينك وبينهم وأهل هذه الطبقة الذين هم اهلها قليلٌ لان ذا الرأي لا يُدخل احداً من نفسه هذا المُدخل الا بعد الاختبار والسَّبر والثقة بصدق النصيحة ووفاء العقل

ذلِّلْ نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك ما لا يكاد يخطئك فان الصبرَ صبران صبر الرجل على ما يكره وصبرُهُ عمّا يُحِب. فالصبر على المكروه اكثرهما واشبههما ان يكون صاحبه مضطراً. واعلم أنَّ اللئامَ اصبرُ اجساداً والكرام أصبرُ نفوساً، وليس الصبرُ الممدوحُ بأن يكون جِلد الرجل وقاحاً (٧) او رِجله

---

(١) الشح البخل. والسخف نقصان العقل

(٢) جمع خِدن الصديق والصاحب

(٣) اي اطلع (٤) اي مبدياً غاية عذرك

(٥) اي الاستقرار والسكون (٦) الاحتجاز الامتناع

(٧) صلباً

عَوِيَّة على العمل فإنما هذا من صفات الحمير،ولكن أن يكون للنفس غلوباً وللامور محتملاً وفي الضرِّ[١] متجملاً[٢]،ولنفسه عند الرأي والحفاظ مُرتبطاً،وللحزم مؤثراً وللهوى تاركاً وللمشقَّة التي يرجو عاقبتها مستخفاً،وعلى مُجاهدة الاهواء والشهوات مواظباً ولبصره بعزمه منفذاً

اذا تراكمت الاعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح[٣] في مدافعتها بالرَّوَغان منها فانه لا راحة لك الا في إصدارها . وان الصبر عليها هو يخففها وان الضجر منها هو يراكمها عليك فتعهّد[٤] من ذلك في نفسك خصلةً قد رأيتها تعتري[٥] بعض اصحاب الاعمال أنَّ الرجل يكون في امر من امره فيرِدُ عليه شغلٌ آخر ويأتيه شاغلٌ من الناس يكرهُ تأخيره فيكدِّرُ ذلك بنفسه تكديراً يُفسِد ما كان فيه وما وَرَدَ عليه حتى لا يُحكِمَ واحداً منهما .فان ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الامور ثمَّ اخترْ أولى الامرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرُغ منه . ولا يعظمنَّ عليك فَوتُ ما فات وتأخير ما تأخَّر اذا عملتَ الرأي معمله وجعلت شغلك في حقِّه

اياك والاخبار الرائعة وتحفَّظ منها فان الانسان من شأنه الحرص على الاخبار لا سيما ما راع منها . فاكثر الناس من يحدِّث بما سمع ولا يبالي ممن سمع وذلك مفسدةٌ للصدق ومزراةٌ[٦] بالرأي . فان استطعت ألاَّ تُخبر بشيء إلا وانت به مصدِّق وألاَّ يكونَ تصديقك الا ببرهان فافعل .

ولا تقلْ كما يقول السفهاء أُخبِرُ بما سمعتُ ، فان الكذب اكثر ما انت سامع، وان السفهاء اكثر من هو قائلٌ . وانك ان صرت للاحاديث واعياً وحاملاً كان ما تعي وتحمل عن العامّة اكثر مما يخترع المخترع باضعاف

اني مُخبرك عن صاحبٍ كان اعظم الناس في عيني وكان رأس ما اعظمه عندي صغرَ الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يُكثِرُ اذا وَجَد .

---

(١) سوء حال وشدة (٢) اي متصبراً (٣) الراحة

(٤) اي تفقد (٥) اي تصيب (٦) عيب او تهاون

وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء[١] ولا يُدلي بحجة حتى يجد قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم احداً على ما قد يكون العُذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً الا الى من يرجو عنده البرء ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً ، وكان لا يتبرَّم[٢] ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكَّى ولا ينتقم من الوليّ ولا يغفل عن العدوّ ولا يخصُّ نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحيلته وقوَّته . فعليك بهذه الاخلاق ان أطقتَ – وان تُطيق . ولكن أخذُ القليل خيرٌ من ترك الجميع ، وبالله التوفيق

---

(١) المراء الجدال (٢) يتضجر

الرسالة الحاتمية

وهي وصف مساجلة ادبيّة حاول فيها صاحبها ابو علي محمد بن الحسن المعروف بالحاتمي ان يُبيّن ما في شعر المتنبي من عيوب وسرقات وقد دفعه الى ذلك ان المتنبي كان شديد الاعتداد بنفسه « فلما ورد بغداد ترفّع عن مدح الوزير المهلّبي ذاهباً بنفسه عن مدح غير الملوك فشقّ ذلك على الوزير فاغرى به ادباء بغداد »

وقصده الحاتمي وهو احد اعلام الادب في بغداد وقد ذكر في اول رسالته السبب الذي حمله على ذلك قال(١)ـ

لمـّا ورد المتنبي مدينةَ السّلام منصرفاً عن مصر ومتعرّضاً للوزير ابي محمد المهلّبي ، التحف رداء الكِبْر ، واذال ذيول التيه ، ونأى بجنابه استكباراً ، وثنى عِطفيه جَبريّة وازورارا . فكان لا يلاقي احداً الا اعرض عنه تيها ، وزخرف القول عليه تمويها . يُخيَّل عُجبا اليه ، ان الادب مقصور عليه ، وانّ الشعر بحرٌ لم يرد غير مائه غيرُه ، وروضٌ لم يجن نُوّارَه سواه . فهو يجني جناه . ويقطف قطوفه دون من تعاطاه

فظلّ يمرح في تيهه حتى اذا تخيّل انه السابق الذي لا يُجارى في مضمار ، ولا يُساوى عذاره بعذار ، وانّه ربُّ الكلام ومالك رقّ الفصاحة نثراً ونظما ، وقريع(٢) دهره الذي لا يقارع فضلًا وعلما ، ثقلت وطأته على كثير ممّن وسمَ نفسه بِمِيسم الادب ، وأنبط(٣) من مائه اعذب مشرب ، فطأطأ بعض رأسه وخفض بعض جناحه ، وطأمن على التسليم له طَرْفه

وتخيّل الوزير المهلّبي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مساجلته ، ولا يرى نفسه كفوءاً له ولا يضطلع باعبائه فضلًا عن التعلّق بشيء من معانيه . ولم يكن هناك مزيّة يتميّز بها

(١) بتصرف عن وفيات الاعيان ١-٢٢٩ والصبح المنبي على هامش العكبري ١-١٤٤

(٢) سيّد (٣) استخرج

ابو الطيّب عن الهجين الجذَع من ابناء الادب فضلًا عن العتيق القارح[١] الا الشعر–ولعمري انَّ افنانه كانت فيه رطبة ، ومجانيه عذبة . فنهدتُ اليه متتبعًا عوارَه[٢]، ومقلمًا اظفاره ومذيعًا اسراره وناشرًا مطاويه ومنتقدًا من نظمه ما تسمّح فيه ، ومتحينًا ان تجمعنا دارٌ يشار الى ربّها فأجري انا وهو في مضمار يُعرَف به السابقُ من المسبوق ، واللاحقُ من المقصِر عن الأحوق . وكنتُ اذ ذاك ذا سحاب مدرار ، وزندٍ في كلّ فضيلة وارٍ. هذا وغديرِ الصِبا صافٍ ، ورداؤه ضافٍ ، وديباجة العيش غضّة وارواحه معتلّة وغمائمه منهلّة، وللشبيبة شِرّة[٣] وللإقبال من الدهر غُرَّة. حتى اذا عدَتْ عن اجتماعنا عوادٍ من الايام قصدتُ مُستقرَّه وتحتي بغلةٌ سفواء[٤] تنظر عن عيني باز ، وتتشوّف بمثل قادمتَي نسر ، وهي مركب رائع ، وكأنني كوكبٌ وقّاد من تحته غمامةٌ يقتادها زمام الجَنوب ، وبين يديَّ عدَّةٌ من الغلمان الرُوقة[٥] مماليكَ واحرارٍ يتهافتون تهافت فريد الدرّ عن اسلاكه . ولم أُورد هذا متبجّحًا ولا متكبرًا بذكره ، بل ذكرته لانَّ ابا الطيّب شاهدَ جميعَه في الحال ولم ترُعه روعته ، ولا استعطفه زبرجه[٦] ، ولا زادته تلك الجملةُ الجميلةُ الا عُجبًا بنفسه وإعراضًا عني بوجهه

وألفيتُ هناك فتيةً تأخذ عنه شيئًا من شعره ، فحين أُوذن بحضوري ، واستؤذن عليه لدخولي نهض من مجلسه مُسرعًا ، ووارى شخصه عني مستخفيًا . واعجلتهُ نازلاً عن البغلة وهو يراني لانتهائي بها الى حيث اخذَها طرْفُه[٧] . ودخلتُ فاعظمت الجماعةُ قدْري واجلستْني في مجلسه ، واذا تحته اخلاق عباءةٍ قد ألحّت عليها الحوادث ، فهي رسومٌ دائرة واسلاك متناثرة . فلم يكن الا ريثما جلستُ فاتانا ، فنهضت فوفّيته حقَّ السلام غير مشاحٍّ له في القيام – لانه انما اعتمد بنهوضه عن الموضع ان لا ينهضَ اليَّ – واذا به لابسٌ سبعةَ اقبيةٍ كلّ قباء منها لون ، وكنا في وَغرة[٨] القيظ وجمرة الصيف . فجلستُ مستوفزًا وجلس متحفزًا واعرض عني لاهيًا ، واعرضت عنه ساهيًا اؤنّب نفسي في قصده، واستخفّ رأيًا في تكلّف ملاقاته . فعبرَ هُنيَةً ثانيًا عِطفه، لا يُعيرني طرْفَه، واقبل على تلك الزعنفة التي بين يديه وكلٌّ يومىء اليه ويوحي بلحظه ويشير الى مكاني بيديه ،

---

(١) الجذع من الابل الحديث السن والقارح البالغ ويراد بهما هنا الاديب الناشىء والاديب المحنّك (٢) عيبه (٣) نشاط (٤) خفيفة سريعة

(٥) الحسان (٦) زينته (٧) اي رآها (٨) شدّة الحرّ

ويوقظه من سِنَته وجهله ، ويأبى الا ازوراراً ونفارا وعتوًا واستكبارا

ثم رأى ان يَثني جانبه اليَّ ، ويُقبل بعض الاقبال عليّ ، فاقسمت بالوفاء والكرم انه لم يزد على ان قال « أيش خبرُك ؟ » فقلت : بخير انا لولا ما جنيتُه على نفسي من قصدك ، ووسمتُ به قدري من مِيسم الذلّ بزيارتك ،وجشمت رأيي من السعي الى مثلك ممّن لم تهذّبه تجربة ولا ادّبته بصيرة

ثم تحدّرتُ عليه تحدُّرَ السيل الى قرارة الوادي وقلت له : أبنْ لي ممّ تيهُك وخُيلاؤك وعُجبك وكبرياؤك ، وما الذي يُوجب ما انت عليه من المذهاب بنفسك، والرمي بهمّتك الى حيث يقصر عنه باعُك ولا يطولُ اليه ذراعُك. هل هنا نسبٌ انتسبتَ الى المجد به ؟ او شرف علقت باذياله ، او سلطان تسلّطت بعزّه ، او علمٌ تقع الاشارة اليك به ؟ إنّك لو قدرت نفسك بقدرها او وزنتها بميزانها ولم يذهب بك التيه مذهبا ، لما عدوتَ ان تكون شاعراً مكتسبا !

فامتُقِع لونُه وغصّ بريقه ، وجعل يلين في الاعتذار ويرغب في الصفح والاغتفار ، ويكرّر الايمان انه لم يتثبّتني ولا اعتمد التقصير بي. فقلت : يا هذا ان قصدك شريفٌ في نسيب تجاهلتَ نسبه ، او عظيم في ادبه صغّرتَ ادبه ، او متقدّم عند سلطانه خفضتَ منزلته . فهل المجد تراثٌ دون غيرك ؟ كلّا والله ! لكنّك مددتَ الكِبر سِتراً على نقصك ، وضربته رُواقاً حائلاً دون مباحثتك !

فعاود الاعتذار فقلت لا عذر لك مع الإصرار . واخذت الجماعة في الرغبة اليَّ في مُياسرته وقبول عذره واستعمال الأناة التي تستعملها الحُرمة عند الحفيظة وهو يؤكد القسم انه لم يعرفني معرفةً ينتهز معها الفرصةَ في قضاء حقّي فاقول : ألم استأذن عليك باسمي ونَسَبي ؟ اما كان في هذه الجماعة مَن كان يعرفني لو كنت جهلتني ؟ وهَب ان ذلك كذلك ألم ترَ شارتي ؟ اما شممتَ عطرَ نشري ؟ ألم اتميّز في نفسك عن غيري ؟ وهو في اثناء ما اخاطبه يقول: خفّض عليك، اكفُف من غربك ، اردُد من سَورتك ، استأن فان الاناة من شِيَم مِثلك

فأصحب [1] حينئذٍ جانبي له ، ولانت عريكتي في يده ، واستحييتُ من تجاوز الغاية

---

(١) اصحب بمعنى لان او انقاد

التي انتهيت اليها في معاتبته . وذلك بعد ان رُضته رياضةَ الصعب من الإبل ، وأقبل عليَّ معظماً وتوسَّع في تقريظي مفخماً ، واقسم انه ينازع(١) منذ ورد العراق ملاقاتي ، ويعلل نفسه بالاجتماع معي ، ويسوّفها التعلق باسباب مودّتي

* * *

الى هنا انتهى كلام الحاتمي في ذكر السبب الذي دعاه ان التهجم على المتنبي . ثم يتقدم الى مساجلته واظهار معائبه . ويختم رسالته بقوله متباهياً –

فلما علوته بالكلام قال يا هذا اللغةُ مسلَّمة لك . فقلت وكيف تُسلّمها وانت اولى الناس بها واعرفهم باشتقاقها والكلام على افانينها

وشرع الجماعة يسألونني العفو عنه وقبول عذره ، وكنت بلغت شيئاً كان في صدري وعلمت ان الزيادة على الحدّ الذي انتهيت اليه ضربٌ من الأَشَر(٢) والبغي– ولا اراه في مذهبي . ورأيتُ له حقّ التقـدُّم في صنعته فطأطأت له كَنَفي واستأنفتُ من وضعه . ونهضت فنهض لي مشيّعاً الى باب الدار حتى ركبت واقسمتُ عليه ان يعود الى مكانه(٣)

---

(١) يشتاق (٢) البطر

(٣) والغريب ان للحاتمي رسالة اخرى اسمها الحاتمية يقابل فيها بين المتنبي وارسطو وهي بعكس هذه تعظم شأن المتنبي وتنعته بالتقدم والنّبل والاغراق في طلب الحكمة . وقد نشرها على حدة فؤاد افرام البستاني ١٩٣١ فلتراجع

يوم الموقف

من رسالة الغفران

لابي العلاء المعرّي

كان السبب الذي حمل المعرّي على تصنيف هذه الرسالة ان اديباً « حلبياً » يدعى ابن القارح بعث اليه برسالة يصف فيها حاله وما لقيه من ادباء زمانه، وهي طويلة وقد حشاها بكثير من الاخبار والاستطرادات . فاجابه عليها ابو العلاء بهذه الرسالة الفريدة في بابها. وفيها يتخيَّل ان ابن القارح قد صعد الى السماء وقام برحلة في ديار النعيم والجحيم فوصف ما شاهده هناك . وهي جميلة المشاهد يكثر فيها الوصف والتصنع اللفظي وتسودها روح النكتة المبطَّنة بالتهكم . ولعلها اقرب الى القصة منها الى الترسُّل ، على انها رسالة مشهورة وقد اخترنا منها هذا المشهد وهو حديث لابن القارح يصف فيه ما لقيه يوم الموقف وكيف اتيح له دخول الجنة . قال [1]_

لما نهضتُ انتفِضُ من الرَّيم [2] ، وحضرتُ عَرصات [3] القيامة ، ذكرتُ الآيةَ : « تَعرجُ الملائكةُ والرُّوحُ اليـه في يومٍ كان مِقدارهُ خمسينَ الفَ سَنَةٍ ، فاصبِرْ صبراً جميلاً » فطال عليَّ الأمدُ واشتد الظمأُ ، وانا رجلٌ مِهيـاف [4] . فافتكرتُ فرأيت امراً لا قِوَامَ لمثلي به ، ولقيني الملَكُ الحفيظُ بما زُبِرَ [5] لي من فِعل الخير ، فوجدتُ حسناتي قليلةً كالنُّفأِ في العام الارمل [6] ، إلاَّ أن التوبة في آخرها كأنَّها مصباحُ أبيل [7] ، رُفع لسالك السبيل

---

(١) ننقله من رسالة الغفران لناشرها كامل الكيلاني

(٢) القبر (٣) ساحات (٤) سريع العطش (٥) كتب

(٦) النفأ الرياض ، والعام الارمل قليل المطر (٧) الايل رئيس النصارى او الراهب

فلما اقمتُ في الموقف زُهاء شهر او شهرين ، وخفتُ من الغرق في العرق ، زَيَّنت لي النفسُ الكاذبةُ أن أنظمَ ابياتاً في رضوانَ ، خازنِ الجنانِ ، عملتها في وزن : « قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعرفانِ » ووسمتها برضوان . ثم ضانكتُ[1] الناس حتى وقفتُ منه بحيث يسمعُ ويرى ، فما حفلَ بي ، ولا اظنّه أبهَ لما اقول . فغبرتُ[2] بُرهةً نحو عشرة ايامٍ من ايام الفانية ، ثم عملتُ ابياتاً في وزن :

بانَ الخليطُ ولو طُووِعتَ ما بانا وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا

ووسمتها برضوانَ . ثم دنوت منه ، ففعلت كفعلي الاول ، فكأني أحرّكُ ثبيراً[3] والتمس من العضرم[4] عبيراً . فلم أزلْ اتتبعُ الاوزان التي يُمكن أن يُوسمَ بها رضوانُ حتى افنيتها ، وانا لا أجدُ عنده مَغوثةً ، ولا ظننته فهمَ ما اقول

فلما استقصيتُ الغرض فما أنجحتُ دعوتُ باعلى صوتي : « يا رضوان ! يا امين الملكِ الجبّار الاعظم على الفراديس ! ألم تسمعْ ندائي بك ، واستغاثتي اليك ؟ » فقال : سمعتك تذكر رضوان وما علمتُ مقصدك ، فما الذي تطلبه ايها المسكين ؟ فاقول : « أنا رجلٌ لا صبرَ لي على اللُّوابِ[5] وقد استطلتُ مُدّةَ الحساب ومعي صكٌّ بالتوبة وهي للذنوب كلها ماحية ، وقد مدحتك باشعارٍ كثيرة ووسمتها باسمك » . فقال : « وما الاشعارُ » فقلت : الاشعار جمع شِعْر ، والشِعر كلامٌ موزون تقبله الغريزة على شرائطَ إن زاد او نقص أبانه الحسُّ ، وكان اهل العاجلة يتقرّبون به الى الملوك والسادات فجئتُ بشيءٍ منه اليك لعلّك تأذن لي بالدخول في هذا الباب فقد استطلتُ ما الناس فيه وانا ضعيفٌ مَنينٌ[6] . ولا ريب أني ممّن يرجو المغفرة ، وتصحّ له بمشيئة الله تعالى» فقال : « إنك لَغبين الرأي ، اتأملُ ان آذنَ لك بغيرِ إذنٍ من ربّ العزّة ؟ هيهاتَ هيهات ! وأنّى لهم التناوُشُ[7] من مكانٍ بعيد ! »

فتركته وانصرفت بأملي الى خازن آخر يقال له زُفَرُ ، فعملتُ له كلمةً ووسمتها باسمه في وزن قول لَبيدٍ :

---

(١) ضايقت (٢) مكثت (٣) اسم جبل

(٤) العضرم تراب يشبه الجص (٥) العطش (٦) بمعنى ضعيف

(٧) التناول

تمنّى ابنتـايَ ان يعيشَ ابوهما　　　وهل انا الا من ربيعةَ او مُضرْ

وقربتُ منه فانشدتُها ، فكأني إنما أُخاطبُ ركوداً صماء [١] ، لأستنزلَ أبوداً عصماء [٢] ، ولم اترك وزناً مقيداً ولا مطلقاً يجوز ان يُوسَم بزُفَر الا وسمته به ، فما نجع . فقلت : « رَحِمك الله ! كنّا في الدار الذاهبة نتقرّب الى الرئيس والملك بالبيتين والثلاثة فنجد عنده ما نحبُّ . وقد نظمتُ فيك ما لو جُمِعَ لكان ديواناً وكأنك ما سمعتَ لي ! » فقال : لا اشعرُ بالذي حمتَ [٣] ، وأحسَبُ هذا الذي تجيئني به قرآنَ إبليس المارد ، ولا ينفُق [٤] على الملائكة ، انما هو للجانِّ ، وعلّموه وَلَد آدمَ . فما بُغيتك ؟ » فذكرت له ما أُريد ، فقال : « والله ما أقدِرُ لك على نفع ، ولا أملكُ لِخلقٍ من شَفْعٍ ، فمِن ايِّ الاممِ انت ؟ » فقلتُ : « من امّة محمد بن عبدالله بن عبد المطّلب » فقال : « صدقتَ . ذلك نبيُّ العرب ، ومن تلك الجهة اتيتني بالقريض ، لان ابليس اللعين نفثه في إقليم العرب فتعلّمه نساء ورجال . وقد وَجبَ عليّ نُصحك ، فعليك بصاحبك ، لعله يتوصّل الى ما ابتغيتَ » فيئستُ ممّا عنده

* * *

وبعد ان يصف مقابلته لحمزة عمِّ النبي ، ثم للامام علي وورودِه الحوض يقول :—

فطفتُ على العِترة المنتخَبين [٥] فقلتُ : « إني كنتُ في الدار الذاهبة اذا كتبت كتاباً وفرغت منه قلتُ في آخره : وصلى اللهُ على سيّدنا محمدٍ خاتم النبيين ، وعلى عِترته الاخيار الطيّبين : وهذه حُرمةٌ لي ووسيلة »

فقالوا : « ما نصنع بك ؟ » فقلتُ : إنّ مولاتنا فاطمة — عليها السلام — قد دخلت الجنّة منذُ دهرٍ . وانها تخرج في كل حين مقدارهُ اربعٌ وعشرون ساعةً من ساعات الدنيا الفانية . فتسلِّم على ابيها وهو قائمٌ لشهادة القضاء . ثمّ تعود الى مستقرّها في الجنان .

---

(١) الركود الصماء : الارض الظيطة　　(٢) الابود العصماء : البهيمة المتوحشة

(٣) قصدت　　(٤) يروج

(٥) الاسرة النبوية

فاذا هي خرجت كالعادة فاسألوها في امري باجمعكم ، فلعلها تسأل اباها فيّ » . فلمّا حان خروجها ، ونادى الهاتفُ أن غضّوا ابصاركم يا اهلَ الموقف حتى تعبرَ فاطمةُ بنت محمد — صلى الله عليه وسلم — اجتمع من آل ابي طالب خلقٌ كثير من ذكور وإناث ممّن لم يشربْ خمراً ، ولا عرف قطُّ منكراً ، فلقوها في بعض السبيل . فلما رأتهم قالت : «ما بالُ هذه الزّرافة[1] ألكم حالٌ تذكر ؟» فقالوا : نحن بخير . إننا نلتذُّ بتُحف اهل الجنّة غير أنّا محبوسون للكلمة السابقة ، ولا نريد ان نتسرّع الى الجنّة قبل الميقات ، اذ كنّا آمنين ناعمين ، بدليل قوله ، « إنّ الذين سبقَتْ لهم منّا الحسنى أولئك عنها مُبعَدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت انفسُهم خالدون ، لا يحزُنهم الفزعُ الاكبر وتتلقّاهم الملائكة هذا يومُكم الذي كنتم توعدون » . وكان فيهم عليُّ بنُ الحسين[2] وابناه محمدٌ وزيدٌ وغيرهم من الابرار الصالحين،ومع فاطمة عليها السلام امرأةٌ أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة . فقيل : « من هـذه ؟ » فقيل : « خديجةُ بنت خُويلد بن أسدِ بن عبد العزّى[3] » ومعها شبـابٌ على أفراس من نُور ، فقيل : « مَن هؤلاء ؟ » فقيل : « عبدالله ، والقاسمُ ، والطيّب ، والطاهر ، وابرهيم ، بنو محمدٍ صلى الله عليه وسلم »

فقالت تلك الجماعة التي سألتُ : هذا وليٌّ من اوليائنا قد صحّت توبته ، ولا ريب انه من اهل الجنة . وقد توسّل بنا اليك — صلى الله عليك — في أن يُراح من اهوال الموقف ويصير الى الجنة ، فيتعجّل الفوز »

فقالت لاخيهـا ابرهيم — صلى الله عليه — : « دونك الرّجلَ » فقال لي : تعلّق بركابي ؛ وجعلتْ تلك الخيل تخلّلُ الناس وتنكشف لها الأمم والاجيال[4] . فلما عظمَ الزحام طارت في الهواء وانا متعلّقٌ بالركاب

فوقفتُ عند محمدٍ — صلى الله عليـه وسلم — فقال : « من هذا الاتاويُّ[5] » فقالت : « هذا رجلٌ سأل فيه فلانٌ وفلان » وسمّت جماعةً من الائمة الطاهرين . فقال : حتى يُنظر في عمله . فسأل في عملي فوجده في الديوان الاعظم وقد خُتم بالتوبة ؛ فشفع لي ، فأذن لي في الدخول

---

(١) الجماعة (٢) هو زين العابدين حفيد الامام علي
(٣) اول زوجة للرسول (٤) اجناس الناس (٥) الغريب

تعطشي الى الحقائق

للامام الغزالي من كتابه المنقذ من الضلال الذي يشرح فيه ما عاناه في « استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق وتباين المسالك والطرق ». وكيف ارتفع « عن حضيض التقليد الى بقاع الاستبصار »

ويلقب الغزالي بحجة الاسلام وهو مفكِر كبير ولد في طوس ٤٥٠ هـ. وفيها نشأ ثم زار العراق ومصر والشام وكان واسع الاطلاع على علوم زمانه وقد انصرف الى التدريس والتأليف والتحقيق. وبعد ان جرَّب المذاهب المختلفة اعتنق التصوّف سنة ٤٨٨ وقضى عشرة اعوام بين الحجاز والشام وفلسطين ثم عاد الى وطنه واتخذ خانقاه (زاوية) للصوفية ولم يلبث زاهداً منقطعاً الى العلم والخير حتى توفي سنة ٥٠٥هـ. قال يصف نفسه والاطوار التي مرَّت بها حتى استقرت على مذهب الزهد التصوفي. « ولم ازل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن، وقد أناف السنُّ على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوضَ الجسور، لا خوض الجبان الحذور، واتوغّل في كل مُظلمة، واتهجم على كل مُشكلة، واتقحّم كل ورطة ورطة، واتفحّص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محقّ ومبطل، ومتسنّن ومبتدع[1] لا أُغادر باطنياً الاّ وأُحب ان أَطلع على بطانته، ولا ظاهرياً[2] الاّ وأُريد ان اعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً الاّ واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سرّ صفوته، ولا متعبداً الاّ واترصّد ما يرجع اليه حاصل

(١) مبتدع: من البدعة، ومعناها لغة: الاختراع؛ ثم غلبت على الحدث المكروه في الدين. ولفظ المبتدع لا يكاد يستعمل الا في الذم

(٢) الظاهرية: فرقة تنسب الى داود الظاهري، وهي الفرقة التي تأخذ بظاهر القرآن والحديث ولا تتكلف تأويلا او تفسيراً بعيداً

عبادته ، ولا زنديقاً [١] معطلاً [٢] الأ واتجسس وراءه لتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزةً وفطرةً من الله وُضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلَّت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا »

ثم يذكر لنا كيف اخذ يجدّ في طلب حقيقة العلم . وكيف التمس ذلك اولاً عن طريق العلم اليقيني فلم ينقع غليل نفسه . ولم ير امام طالب الحق الا فرقاً اربع هي اهل الكلام والباطنة والفلاسفة والصوفية «وان الحق لا يعدو عن هذه الاصناف فان شذ عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع اذ لا مطمع في الرجوع الى التقليد بعد مفارقته . فابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق »

وبعد ان يجرب الثلاثة الاولى من هذه المذاهب ويخوض عبابها غير هيَّاب من العواقب يقول « خبرناها فنفضنا اليد عنها » . فلا خير فيها عنده لطالب الحقيقة الساعي الى معرفة كنه الامور .

ولما فرغ منها اقبل على طريق الصوفية فوجد فيهـا ضالته المنشودة . وكان اذ ذاك يدرّس في بغداد وها هو يصف حاله اذ صمم على الاعراض عن الجـاه والمال والهرب من الشواغل الدنيوية – قال –

«ثم لاحظت احوالي ، فاذا انا منغمس في العلائق ،وقـد احدقت بي من الجوانب ،

---

(١) جاء في لسان العرب : « الزنديق : القائل ببقاء الدهر ». واختُلف في الزندقـة هل هي مذهب معين أم تطلق على كل ملحد ? فقد قال ابن قتيبة في كتابه « المعارف » عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية : « كانت النصرانية في ربيعة ، وكانت اليهودية في حمير ، و. .... وكانت الزندقة في قريش اخذوها من الحيرة . » وكذلك الخياط المعتزلي يستعملها في كتابه « الانتصار » للدلالة على فرقة خاصة

على ان ابن منظور يذكر في لسان العرب ان احمـد بن يحيى يقول : « ليس في كلام العرب زنديق ، فاذا ارادت العرب معنى ما تقوله العامة ، قالوا : ملحد ، ودهري » راجع لزيادة الايضاح « فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٢٨ (طبعة اولى) وضحى الاسلام له ايضاً ص ١٣٧ »

(٢) المعطل : من التعطيل وهو انكار صفات الخالق . فالمعطلة تقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ان لا عرش هناك ، ولا استواء فعلي ، بل يحملون لفظ « استوى » على معنى « استولى » ، وكذلك في سائر الصفات

ولاحظت اعمالي – واحسنها التدريس والتعليم – فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال

فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار ، اصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، واقدم فيه رجلاً واؤخر عنه اخرى . لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، الا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشيةً . فصارت شهوت الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : ألرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل ! فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن فمتى تقطع ؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وإياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ؛ وان اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والامر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما ألفت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة اشهر اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة . في هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت اجاهد نفسي ان ادرّس يوماً واحداً تطيبياً لقلوب المختلفة ، وكان لا ينطق لساني بكلمة ، ولا استطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان ، حزناً في القلب ،بطل معه قوة الهضم ، وقرَم[1] الطعام والشراب فكان لا تتساغ لي شربة ، ولا تنهضم لقمة ، وتعدّى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم عن العلاج ، وقالوا : « هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بان يتروّح السرّ ، عن الهم الملم »

---

(١) القَرَم الشهوة للحم في الاصل ، كما في كل المعاجم المعروفة . ولكن الغزالي تجوز واطلقها على الشهوة للطعام بصورة عامة

ثم لما احسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له . فاجابني الذي « يُجيبُ المُضطرَّ اذا دَعاهُ [١] » ، وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال ، والاهل والولد والاصحاب ، واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا أوري في نفسي سفر الشام ، حذراً ان يطّلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ان لا اعاودها ابداً . واستهدفت لائمة [٢] اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ؛ اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بَعدَ عن العراق ، ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ؛ واما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي،والانكباب عليّ ، وإعراضي عنهم ،وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : « هذا امر سماوي ،وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام وزمرة العلم »

ففارقت بغداد ، وفرّقت ما كان معي من المال ، ولم أدّخر الا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخصاً بان مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين . فلم أرَ في العالم ،الاّ يأخذه العالم لعياله اصلح منه

ثم دخلت الشام ، واقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة [٣] ، اشتغالاً بتزكية النفس،وتهذيب الاخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، اصعد منارة المسجد طول النهار ، واغلق بابها على نفسي

ثم دخلت منها على بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، واغلق بابها على نفسي

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ؛ فسرت الى الحجاز .

---

(١) قرآن كريم : (سورة النمل) آية ٦٢

(٢) اللوم

(٣) المجاهدة : حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه . وآثرت العزلة ايضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغيّر فيَّ وجه المراد ، وتشوّش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة . لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعود اليها

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ؛ وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ؛ والقدر الذي اذكره ليُنتفع به : اني علمت يقيناً ان **الصوفية** هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ، ويبدّلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . وان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوّة . وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به

كيف اكتب رسائلي

لمصطفى المنفلوطي

١٨٧٦—١٩٢٤

وهو منشئ تطيعه الالفاظ والعبارات مع متانة في التركيب وحسن في التصوير

من رسالة مُسهبة جعلها المنفلوطي مقدّمة لكتابه «النظرات» . ذكر فيها اولاً حاله في حداثته وهو بين جدران الازهر ، وولعه منذ ذلك الحين بالادب وكيف كان الذين يتولّون امره من اشياخه يُنكرون ذلك ويحاولون ردعه عنه « فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب خيّل اليهم انهم قد ظفروا بالدينار في جيب السارق . فاخذني من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مِثلي »

وكان مشغوفاً بمطالعة شعر الهموم والاحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين حتى نشأت نفسه على حب الرحمة والصدق واصبح لا يرويها الا الدموع ولا يشفيها الا ان تصعّد زفرة مع كل مفجوع

وما زال يعيش في جوّ من الاحلام الشعرية حتى انقضت ايام الحداثة والتحصيل فاذا هو في معترك الحياة الواقعية . ولنتركه الآن يصف لنا بقلمه شعوره امام الواقع وما اثاره للكتابة من حوافز ودوافع

* * *

« تلك ايامي التي سعدتُ بها برهةً من الدهر ومرَّ لي فيها احسنُ ما مرَّ لاحدٍ والتي

لا ازال اذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فاكاد اشرق بدمعي لذكراها . ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها واذا انا بين يدَي هذا العالم المظلم المقشعرّ عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلدٍ لا عهد له به ولا سكن له فيه ، فرأيت مخازيه وشروره وظلمة اجوائه واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرّة والحبّة ، والنّسمة والهبوة ، (١) واتساعَ مسافة الخُلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطانَ القوة على الحق وغلبةَ الجهل على العلم ، و إقفارَ القلوب من الرحمة وجمودَ العيون عن البكاء ، وعجزَ الفقراء عن فُتات موائد الاغنياء وتضَلُّعَ الاغنياء بلحوم الفقراء

فداخلني من ذلك خطر عظيم لم استطع أن أملك نفسي معه كأنما خُيِّل اليَّ لقرب عهدي بما ارى انني ارى شيئاً عجيباً او منظراً غريباً ، او كانما كنت أحسب ان عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه . فازعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما فارسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفّس المتنفِّس او يئنُّ الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس فسمّوا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما اقول ويُغرونني بامثاله وما زلت اطمع فيهم وارجو ان أُصيب ما في نفوسهم حتى سمّوني كاتباً

وكان لذلك الادب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثرٌ باقٍ عندي حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يُفضيَ بها اليَّ غيري او أعبّر عن معنى لا يقوم بنفسي ، او ابكي على من لا يحزنني فراقه او اندب من لا يفجعني موته ، او استنكر ما أستحسن او استحسن ما استنكر . كما لا استطيع ان أمرَّ بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً او طرباً كثيراً ، فاملك نفسي عن محاولة الافضاء بما تركه عندي من خير او شر . وما اعلم اني كتبتُ كلمة في شأنٍ من الشؤون الا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلاً لا أحبُّ الكذب ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بدّاً ، فابغضتُ الكاذبين بغضَ الارض للدّم . فكان من همِّي أن اقاتلهم على الصدق قتالاً مستحراً حتى أصل بهم الى إحدى الُحسنيَين ، إما ان يكونوا صادقين ، و إما ان يَعلم الناسُ انهم كاذبون . وكنت انساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المَريشة لم

---

(١) الهبوة الغبراة

يرمني به ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يُجرّعني إياها . فقد ذقت الذلّ احياناً والجوع اياماً ، والفقر اعواماً ، ولقيتُ من بأساء الحياة وضرّائها ما لم يَلقَ بشر. فشعرت بمرارة الحياة في افواه المساكين، ورأيت مواقع سهام الدهر في اكباد البائسين والمنكوبين. فكان من همّي ان ابكي كل بائس ، واندبَ كلَّ منكوب ، واطلب رحمة القوي للضعيف ، والغنيِّ للفقير ، والعزيز للذليل

وكنت من شؤون عيشي في حالةٍ لا استطيع معها ان اعتزل الناس الاعتزال كلّه، ولا ان اختار لعشرتي من اشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علّاتهم فما حفظ لي صديقٌ عهداً ، ولا صان لي صاحبٌ سرّاً ، ولا استدنتُ مرّةً فنفّس عنّي دائن ، ولا دِنت فوَفى لي مَدين ، ولا ردّ لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرّج لي كربتي مفرّج إلا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ليأخذ اكثر مما اعطى ويسلب فوق ما وهب

ووجدتُ في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعدما تحرّم بطعامي وشرابي ، ومن كان يبسط اليّ يد الامل الراجي فأكره ان اردّه خائباً — فلما عجزتُ عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يُضمر مثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث ابيه وأمه ، او يَخضِب لحيته من دم مفرقه —

ومن كان لا يُكبِر شأني الا اذا اتّقاني فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغرَ منه في عين نفسه. ومن كان يُقبل ويُدبر باقبال الدهر وإدباره عنّي لا يستحي ان يكرّر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي[1] كلَّ ما كرهت من ذلك ولكنني لم أرضَ لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل بها الغِرّ الكريم. فلم أثأر لنفسي ولكن اصبح رأيي في الناس غيرَ رأيهم في انفسهم ورأيَ بعضهم في بعض . وخفتُ ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين[2] امثالي مثلُ ما اصابني . فكان من همّي ان ادلَّ على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم ، وأن اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، ولا يتّخذ بعضُهم بعضاً حُمُرا يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم

---

(١) هنا عركه بجنبه احتمله (٢) المحدود المحروم

وكان مَنشئي في قومٍ بُداة سُذّج لا يبتغون بدينهم ديناً ولا بوطنهم وطناً. ثم ترامى بي الامر بعد ذلك وتصرّفتْ بي في الحياة شؤونٌ جمّة ، فخضعتُ لكثير من احكام الدهر وأقضيته الأ ان اكون ملحداً في ديني ، او زارياً على وطني . فاستطعتُ وقد غمرَ الناس ما غمرهم من هذه المدنيّة الغربية أن اجلس ناحية منها ، وأن انظر اليها من مَرقب عالٍ . وكنت اعلم أن من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الامر نظرةً طائرةً حمقاء ، فإما اخذَه كلّه او تركه كله . فرأيت حسناتها وسيِّئاتها وفضائلها ورذائلها ، وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك . فكان من همّي أن احمل الناسَ من امرها على ما احملُ عليه نفسي ، وأن انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكَهم لها واستهتارَهم بها ، وسقوطهم بين يديَ رذائلها ومخازيها ، و إلحادها وزندقتها ، وشحّها وقسوتها ، وشرَهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها . حتى اصبح السيّد في منزله يستحيي الحياء كلّه من خادمة غرفته الاوروبية أن تَطّلع منه على جهلٍ ببعض عاداتها وعادات قومها (حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء) اكثر مما يستحيي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر الكبائر ، وحتى اصبح تاريخ المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورةً من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين يفخرون بجهله إن جهلوه ويراؤون بجهله ان علموه ، وحتى قدرَ الغلام الروميّ خادمُ الخان منفرداً على ما لم تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه تتحدّثه بلغته قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثّها بلغتها . وهو الى ان يترضّاها ويستدنيها أحوجُ منها الى أن تترضّاه وتزدلف اليه

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا قد شعر به قلبي ففاض به قلمي من حيث لا أكذِب الناس عن نفسي ولا اكذِب نفسي عنها

* * *

ويختم الرسالة بقوله :-

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء اربعة انا ذاكرها لعلّ المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في ادبه

(اوّلها) انني ما كنت اتكلّف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلّبه ، ولا

افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي . بل كنت أحدث الناس بقلمي كما احدثهم بلساني ، فاذا جلست الى منضدتي خُيل اليَّ أن بين يديَّ رجلاً من عامَّة الناس مُقبلاً عليَّ بوجهه ، وان من الذّ الاشياء واشهاها الى نفسي ان لا اترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه

(وثانيها) اني ما كنت احمل نفسي على الكتابة حملاً ، ولا اجلس الى منضدتي مُطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وايُّ الموضوعات اعجب واغرب والذّ وأشوق ، وايّها أعلق بالنفوس وألصق بالقلوب . بل كنت ارى فافكر فاكتب فانشر ما اكتب فأرضي الناس مرَّة واسخطهم أخرى من حيث لا اتعمَّد سخطهم ولا اتطلَّب رضاهم

(وثالثها) اني ما كنت اكتب حقيقة غير مَشوبة بخيال ، ولا خيالاً غير مرتكز على حقيقة ، لاني كنت اعلم ان الحقيقة المجرَّدة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ولا تترك في قلبه اثراً

(ورابعها) اني كنت اكتب للناس لا لأُعجبهم بل لانفعهم، ولا لاسمع منهم : انت احسنت ، بل لاجد في نفوسهم اثراً مما كتبت . والناس كما قلت في بعض رسائلي خاصَّة وعامَّة : اما خاصَّتهم فلا شأن لي معهم ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم . فلا افرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لاني لم اكتب لهم ، ولم اشهدهم امري ، ولم أحضرهم عملي . بل انا اتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير او شر . لاني راضٍ عن فطرتي وسجيَّتي في اللغة التي اكتب بها فلا احبُّ ان يكدّرها عليَّ مكدّر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أوردها رسائلي فلا احبُّ ان يشككني فيها مشكك

واما عامَّتهم فهم بين ذكيٍّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع احسنه — فانا احمد الله في امره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى الا عما يُعجبه ، ولا يسمع الا ما يُطربه ، فأكل امره الى الله تعالى واستلهمه صواب الراي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً

رسالتان لجبران

١٨٨٣-١٩٣١

من مجموعة رسائله المعروفة بالعواصف ، والعواصف تمثل روح جبران جبران « الثائرة على المجتمع العمراني ليدكّ منه مواطن الضعف » وهي مع ما قد يغشاهــا من غواشي التشاؤم والكآبة تنمُّ على نفس كبيرة وروح سامية « نفس تدرك ما في النفوس من ضعف وقوّة وروح تعرف ما ينتاب الارواح من ألم وسرور »

ولجبران طريقة خاصة في الكتابة وتمتاز بحسن الايقاع وسمو الخيال وحرارة العـاطفة وحريّة الفكر

نحن وانتم

نحن ابناء الكآبة وانتم ابناء المسرات !

نحن ابناء الكآبة ، والكآبة ظلٌّ إله لا يسكن في جوار القلوب الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة ، والحزن كبير لا تسعهُ النفوس الصغيرة . نحن نبكي وننتحب ايهـا الضاحكون ومن يغتسل بدموعه مرّةً يظل نقيًا الى نهاية الدهور

انتم لا تعرفوننا اما نحن فنعرفكم . انتم سائرون بسرعة مع تيّار نهر الحيــاة فلا تلتفتون نحونا اما نحن فجالسون على الشاطىء نراكم ونسمعكم . انتم لا تعون صراخنـا لان ضجيج الايام يملأ آذانكم ، امـا نحن فنسمع اغانيكم لان همس الليالي قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لانكم واقفون في النور المظلم ، اما انتم فلا ترونا لاننـا جالسون في الظلمة المنيرة

نحن ابنـاء الكآبة ! نحن الانبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من خيوط

قلوبنا ملابسَ الآلهة وتملأ بجبات صدورنا حفنات الملائكة . وانتم – انتم ابناء غفلات المسرات ويقظات الملاهي – انتم تضعون قلوبكم بين ايدي الخلوّ لان اصابع الخلوّ لينة الملامس، وترتاحون بقرب الجهالة لان بيت الجهالة خالٍ من مرآة ترون فيها وجوهكم

نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همسُ الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي اما انتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم « وحرتقة[1] » القيود وعويل الهاوية

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من اجفان الليل في كبد الصباح . اما انتم فتبتسمون ومن جوانب افواهكم المبتسمة تنهرق السُّخرية مثلما يسيل سم الافعى على جرح الملسوع

نحن نبكي لاننا نرى تعاسة الارملة وشقاء اليتيم وانتم تضحكون لانكم لا ترون غير لمعان الذهب . نحن نبكي لاننا نسمع أنّة الفقير وصراخ المظلوم وانتم تضحكون لانكم لا تسمعون سوى رنة الاقداح . نحن نبكي لان ارواحنا منفصلة بالاجساد عن الله وانتم تضحكون لان اجسادكم تلتصق مرتاحةً بالتراب

* * *

نحن ابناء الكآبة وانتم ابناء المسرات فهلمّوا نضعْ مآتي كآبتنا واعمال مسراتكم امام وجه الشمس

انتم بنيتم الاهرامَ من جماجم العبيد ، والاهرامُ جالسةٌ الآن على الرمال تحدّث الاجيال عن خلودنا وفنائكم . ونحن هدمنا الباستيل[2] بسواعد الاحرار ، والباستيلُ لفظةٌ ترددها الامم فتباركنا وتلعنكم . انتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء واقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء ، وها قد اصبحت بابل ونينوى نظير آثار اخفاف الابل على رمال الصحراء . اما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً ، وضربنا النهاوند[3] على الاوتار فاستحضرت الاوتار ارواح

(١) كلمة عامية لصوت حركة القيود ونحوها

(٢) السجن الشهير الذي هدمته الثورة الافرنسية (٣) لحن موسيقي

المحبين الحائمة في الفضاء ، ورسمنا مريم بالخطوط والالوان[١] فغدت الخطوط كافكار الآلهة والالوان كعواطف الملائكة

انتم تتَّبعون الملاهي ، واظافر الملاهي مزَّقت الفَ الفٍ من الشهداء في مراسح رومة وانطاكية . ونحن نلاحق السكينة واصابع السكينة نسجت الالياذة وسفر أيُّوب والتائية الكبرى[٢] . انتم تضاجعون الشهوات ، وعواصف الشهوات جرفت الف موكب من ارواح النساء الى هاوية العار والفجور ، ونحن نعانق الوحدة ، وفي ظلال الوحدة تجسَّمت المعلَّقات ورواية همَلت وقصيدة دانتي[٣] . انتم تسامرون المطامع ، واسيافُ المطامع أجرت الف نهر من الدماء ونحن نرافق الخيال ، وايدي الخيال انزلت المعرفة من دائرة النور الاعلى

* * *

نحن ابناء الكآبة وانتم اولاد المسرَّات وبين كآبتنا وسروركم عَقبات صعبة المسالك ضيّقة المعابر لا تجتازها خيولكم المطهَّمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة

نحن نشفق على صَغارتكم وانتم تكرهون عظمتنا ، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم

نحن ندنو منكم كالاصدقاء وانتم تهاجموننا كالاعداء ، وبين الصداقة والعداوة هوَّة عميقة مملوءة بالدموع والدماء

نحن نبني لكم القصور وانتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الانسانية باقدام من حديد

نحن نفرش سبلكم بالورود وانتم تغمرون مضاجعنا بالاشواك ، وبين اوراق الوردة واشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً ابدياً

منذ البدء وانتم تصارعون قوانا الليّنة بضعفكم الخشن — تغلبوننا ساعة فتضجُّون

---

(١) اشارة الى صورة العذراء الرائعة لاكبر الفنَّانين

(٢) الياذة هوميروس — وسفر إيوب في التوراة — وتائية ابن الفارض

(٣) معلقات الجاهلية ، وهملت لشكسبير ، والكوميديا الالهية لدانتي

فرحين كالضفادع ونغلبكم دهراً فنظلّ صامتين كالجبابرة . قد صلبتم النـاصريّ (١) ووقفتم حوله تسخرون بهِ وتجدّفون عليه ، ولكن لمـا انقضت تلك الساعة نزل من عن صليبه وسار كالجبّار يتغلّب على الاجيال بالروح والحق ويملأ الارض بمجده وجماله

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس (٢) وقتلتم غليلو (٣) وفتكتم بعليّ بن ابي طالب وخنقتم مدحت باشا (٤) ، وهؤلاء يحيون الآن كالابطال الظافرين امام وجه الابدية . اما انتم فتعيشون في ذاكرة الانسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم

نحن ابناء الكآبة ، والكآبة غيوم تُمطر العالم خيراً ومعرفة ، وانتم ابنـاء المسرات ومهما تعالت مسرّاتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبدّدها العناصر

(١) المسيح (٢) بولس الرسول (٣) الفلكي الايطالي المشهور
(٤) ابو الاحرار العثمانيين في القرن الماضي

العبوديَّة

انما الناس عبيدُ الحياة وهي العبوديَّة التي تجعل ايامهم مكتنفةً بالذل والهوان ولياليهم مغمورةً بالدماء والدموع

ها قد مرَّ سبعة آلاف سنة على ولادتي الاولى وللآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبَّلين

لقد جبتُ مشارق الارض ومغاربها ، وطفت في ظلّ الحياة ونورها ، وشاهدتُ مواكب الامم والشعوب سائرةً من الكهوف الى الصروح ، ولكنني لم ارَ للآن غير رقابٍ منحنية تحت الاثقال ، وسواعد مُوثقة بالسلاسل ، وركب جاثية امام الاصنام

قد اتَّبعتُ الانسان من بابل الى باريس ، ومن نينوى الى نيويورك ، ورأيتُ آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار اقدامه ، وسمعت الاودية والغابات تردّد صدى نواح الاجيال والقرون

دخلتُ القصور والمعاهد والهياكل ، ووقفتُ حذاء العروش والمذابح والمنابر، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم . والصنم ترابٌ جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات

دخلت منازل الاغنياء الاقوياء واكواخ الفقراء الضعفاء ، ووقفتُ في المخادع الموشّاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، والمآوي المفعمة باشباح اليأس وانفاس المنايا . فرأيت الاطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدينَ الملابس مبطَّنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعنَ على اسرَّة الطاعة والامتثال

اتَّبعت الاجيال من ضفاف الكنج الى شاطئ الفرات الى مصبّ النيل الى جبل سينا الى ساحات أثينا الى كنائس رومية الى ازقَّة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت العبودية

تسير بكلّ مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها الهاً ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور امام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرّون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من اجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون الى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الارض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بارادتهم ويدعونها اخاء ومساواة ثم يجدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالاً وتجارة . . فهي ذات اسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهرَ كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علّة ازلية ابدية تجيء باعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الابناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة ، وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغلّ الفصول ما تزرعه الفصول

* * *

واغرب ما لقيتُ من انواع العبوديات واشكالها العبودية العمياء – وهي التي تُوثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم امام تقاليد جدودهم وتجعلهم اجساداً جديدة لارواح عتيقة وقبوراً مكلّسة لعظام بالية

والعبودية الخرساء – وهي التي تعلّق ايام الرجل باذيال الزوجة التي يمقتها : وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلها من الحياة بمنزلة النعل من القدم . . .

والعبودية الصمّاء – وهي التي تُكره الافراد على اتباع مشارب محيطهم والتلوّن بألوانه والارتداء بأزيائه فيُصبحون من الاصوات كرَجع الصدى ومن الاجسام كالخيالات

والعبودية العرجاء – وهي التي تضع رقاب الاشدّاء تحت سيطرة المحتالين وتسلّم عزم الاقوياء الى أهواء الطامعين بالمجد والاستئثار فيمسون مثل آلات تحركها الاصابع ثم توقفها ثم تكسرها

والعبودية الشمطاء – وهي التي تهبط بارواح الاطفال من الفضاء المتسع الى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل في جوار القنوط فيشبّون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين

والعبودية الرقطاء – وهي التي تبتاع الاشياء بغير اثمانها وتسمّي الامور بغير اسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثرثرة معرفة والضعف ليناً والجبانة إباء

والعبودية العوجاء – وهي التي تحرّك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بما لا يضمرون ويصبحون بين ايدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره

والعبودية الحدباء – وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم آخرين

والعبودية الجرباء – وهي التي تتوّج ابناء الملوك ملوكاً

والعبودية السوداء – وهي التي تَسِمُ بالعار ابناء المجرمين الابرياء

والعبودية للعبودية نفسها وهي قوة الاستمرار

* * *

ولما تعبتُ من ملاحقة الاجيال ، ومللت النظر الى مواكب الشعوب والامم ،جلستُ وحيداً في وادي الاشباح حيث تختبئ خيالات الازمنة الغابرة وتربض ارواح الازمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدِقاً بوجه الشمس فسألته « من انت وما اسمك ؟ »

قال « اسمي الحريَّة »

قلت « واين ابناؤك ؟ »

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد » ثم توارى عن عينيَّ وراء الضباب

رؤيا في السماء

لمصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

عرف هذا الكاتب بمتانة انشائه وسعة اطلاعه اللغوي ودفاعه عن الادب القديم ورغم ما في عبارته احياناً من عدم الوضوح لقسره اللفظ على تحمّل المعنى الذي يريده ولتنوقه في صوغ الكلام والتفنن في التصوير البياني قد احتل مكاناً عالياً في ادبنا الحديث وله عدّة مؤلفات تشهد له بطول الباع في هذا الباب . ومنها فصوله في « وحي القلم » وهي كما قال مترجمه محمد سعيد العريان . « تجمع كل خصائص الرافعي متميزة بوضوح الاسلوب » . وقد سلك فيها مسلك الفقه كما ترى في هذا الفصل الذي يحاول ان يبيّن فيه فضل الزواج وسموّ الابوّة(١)

قال ابو خالدٍ الأحول الزاهد : لما ماتت امرأة شيخنا ابي ربيعة الفقيه الصوفيّ ، ذهبتُ مع جماعة من الناس فشهدنا امرَها : فلما فرغوا من دفنها وسُوِّيَ عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال : يرحمكِ الله يا فلانة ! الآن قد شُفيتِ انتِ ومرضتُ انا ، وعُوفيتِ وابتُليتُ وتركتِني ذاكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بك معنًى فستكونُ بعدكِ بلا معنى

فكنتُ احدّثه واعزّيه وهو بعيدٌ من حديثي وتعزيتي : حتى انتهينا الى الدار فدخلنا وما فيها احد ؛ فنظرَ يمنةً ويَسرةً ، وقلّبَ عينيه ههنا وههنا ، وحوقلَ واسترجع ،

---

(١) نقله بتصرف عن وحي القلم ج١

ثم قال : الآن ماتت الدارُ ايضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التي تتحرك في داخله

ولكنك يا ابا خالد لا تفقهُ من هذا شيئاً ، فانت رجلُ آليتَ لا تقربُ النساء ولا يَقرَبنك ، ونجوتَ بنفسك منهن وانقطعتَ بها لله ؛ وكأن كلَّ نساء الارض قد شاركنَ في ولادتك فحَرُمنَ عليك ! وهذا ما لا افهمه انا الأَلفاظاً كما لا تفهم انت ما اجدُ الساعة الأَلفاظاً ، وشتانَ بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلف .

قال ابو خالد : ورأيتُ ان ابيتَ عنده وفاء بحقِّ خدمته ، ودفعاً للوحشة ان تُعاوده فتدخلَ على نفسه بافكارها ووساوسِها ؛ وكان قد غَمَرنا تعبُ يومنا ، واعيا ابو ربيعة وخذلتْه القوة ؛ فلما صلَّينا العشاء قلت : يا ابا ربيعة احبُّ لك ان تنعسَ فتستريحَ نفسك ليذهب ما بك ، فاذا استجممْتَ ايقظتك فقمنا سائرَ الليل .

فما هو الآن اضطجع حتى غلبه النعاس ، وجلستُ افكِر في حاله وما كان عليه وما اجتهدتُ له من الرأي ؛ وقلت في نفسي : لعلَّني اغريته بما لا قِبلَ له به ، واشرت عليه بغير ما كان يحسن بمثله فاكون قد غششته ؛ وخامرني الشكَّ في حالي أنا ايضاً ، وجعلت اقابل بين الرجل متزوجاً عابداً ، وبين الرجل عابداً لم يتزوَّج ؛ وانظر في ارتياض احدهما بنفسه واهله وعياله ، وارتياض الآخر بنفسه وحدها ؛ واخذت اذهب واجيء من فكر الى فكر ، وقد هدأ كل شيء حولي كأن المكان قد نام ، فلم البث حتى اخذتني عيني فنمت واستثقلت كانما شُددت شدّاً بحبال من النوم لم يجيْ من يقطعها

ورأيت في نومي كأنها القيامة وقد بعث الناس ، وضاق بهم المحشر ، وانا في جملة الخلائق ، وكأننا من الضغطة حبٌّ مبثوث بين حجري الرَّحى . هذا والموقف يغلي بنا غليان القِدر بما فيها ، وقد اشتدَّ الكرب وجهدنا العطش ، حتى ما منَّا ذو كبدٍ الأَ وكأن الجحيم تتنفس على كبده ، فما هو العطش بل هو السُّعار واللهب يحتدم بهما الجوف ويتأجج

فنحن كذلك اذا ولدان يتخللون الجمع الحاشد ، عليهم مناديل من نور ، وبايديهم اباريق من فضة واكواب من ذهب ، يملأون هذه من هذه بسلسال برود عذب ، رؤيته عطش مع العطش ، حتى ليتلوَّى من رآه من الألم ويتلعلع كأنما كويَ به على احشائه وجعل الولدان يسقون الواحد بعد الواحد ، ويتجاوزون مَن بينهما ، وهم كثرة من

الناس ، وكأنما يتخللون الجمعَ في البحث عن أناس باعيانهم ، ينضحون غليل اكبادهم بما في تلك الاباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها . ومرَّ بي احدهم ، فمددت اليه يدي وقلت : « اسقني فقد يبست واحترقت من العطش ! »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « ابو خالد الاحول الزاهد . . »

قال : « ألكَ في اطفال المسلمين ولدٌ افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألكَ ولدٌ كبرَ في طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في اخراجه الى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : ألك ولدٌ من غير هؤلاء . ولكنك تعبت في تقويمه وقمت بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمكَ الله ! اني كلما قلت « لا » أحسست « لا » هذه تمرُّ على لساني كالمكواة الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسقي الا آباءنا ، تعبوا لنا في الدنيا ، فاليوم نتعب لهم في الآخرة ؛ وقدموا بين يديهم الطفولة ، وانما قدموا السنةَ طاهرة للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمة الحسنة والسيئة ؛ وليس هنا بعد السنة الانبياء اشدُّ طلاقة من السنة الاطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه او يُلجلج به »

قال ابو خالد : فجُنَّ جنوني ، وجعلت ابحث في نفسي عن لفظة « ابن » فكأنما مُسحت الكلمة من حفظي كما مُسحتْ من وجودي ؛ وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليد ضحكاً وجدت في معناه بكائي وندمي وخيبتي

وقال : يا ويلك ! أما سمعتَ : « ان من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ، ويُكفرها الغمّ بالعيال . » أتعرف من انا يا ابا خالد ؟

قلت : من انت يرحمنا الله بك ؟

قال : انا ابن ذاك الرجل الفقير المعيل ، الذي قال لشيخك ابرهيم بن ادهم العابد الزاهد : « طوبى لك ! فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة ! » فقال له ابرهيم : « لروعةٌ تنالك

بسبب العيال افضل من جميع ما انا فيه ... » . وقد جاهدَ ابي جهاد قلبه وعقله وبدنه ، وحمل على نفسه من مقاساة الاهل والولد حملها الانساني العظيم ، وفكر لغير نفسه ، واغتمّ لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن وصبر ، ووثق بولاية الله حين تزوّج فقيراً ، وبضمان الله حين اعقب فقيراً ؛ فهو مُجاهد في سُبل كثيرة ، لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة : هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، اما هو فيستشهد كلَّ يوم مرة في همومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته ايانا في الدنيا

أما بلغك قول ابن المبارك وهو مع اخوانه في الغزو : « أتعلمون عملاً افضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : انا اعلم . قالوا : فما هو ؟ قال : رجل متعفف على فقره ، ذو عائلة ، قد قام من الليل فنظر الى صبيانه نياماً متكشفين ، فسترهم وغطاهم بثوبه : فعمله افضل مما نحن فيه... »

يخلع الاب المسكين ثوبه على صبيته ليدفئهم به ويتلقى بجلده البرد في الليل ! ان هذا البرد – يا ابا خالد – تحفظه له الجنة هنا في حرّ هذا الموقف كأنها مؤتمنة عليه الى ان تؤديه ؛ وان ذلك الدفء الذي شمل اولاده يا ابا خالد ، هو ههنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الاب المسكين

قال ابو خالد : ويهمّ الوليد ان يمضي ويدعني ، فما املك نفسي ، فامـدُّ يدي الى الابريق فانشطه من يده ، فاذا هو يتحوّل الى عظم ضخم قد نشب في كفي وما يليها من أسلة الذراع[1] فغابت فيه اصابعي فلا اصابعَ لي ولا كف ، وابى الابريق ان يسقيني وصار مُثلة بي ، وتجسدت هذه الجريمة لتشهد عليَّ ، فاخذني الهول والفزع ، وجاء ابريق من الهواء فوقع في يد الوليد ، فتركني ومضى

وقلت لنفسي : ويحكَ يا ابا خالد ! ما اراك الا مُحاسباً على حسناتك كما يُحاسب المذنبون على سيئاتهم ، فلا حول ولا قوة الا بالله !

وبلغتني الصيحة الرهيبة : اين ابو خالد الاحول الزاهد العابد ؟

قلت : هأنذا

---

(١) الاسلة : ما يلي الكف من الذراع الى القسم المستغلظ منها ؛ فالاسلة هي العظمة التي تشد عليها ساعة اليد

قيل : طاووس من طواويس الجنة قد حُص ذيله(١) فضاع احسن ما فيه ! اين ذيلك من اولادك ؟ واين محاسنك فيهم ؟ أخُلقت لك المرأة لتتجنبها ، وجُعلت نسل ابويك لتتبرأ انت من النسل ؟

جئت من الحياة باشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعت للحياة نفسها الا ان هربت منها ، وانهزمت عن ملاقاتها ؛ ثم انت تأمل جائزة النصر على هزيمة .! عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك .لك الف ركعة ، ومثلها سجدات من النوافل، ولخيرٌ منها كلها ان تكون قد خرجت من صُلبك اعضاء تركع وتسجد !

قتلت رجولتك ، ووأدت فيها النسل ، ولبثت طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبة الاب ! فلئن اقمت الشريعة لقد عطّلت الحقيقة ، ولئن ...

قال ابو خالد : ووقعت غنّة النون الثانية في مسمعي من هول ما خفت مما بعدها كالنفخ في الصور ؛ فطار نومي وقمت فزعاً مشتّت القلب كمن فتح عينيه بعد غشية فرأى نفسه في كفن في قبر سد عليه ...!

وما كدت اعي وانظر حولي وقد برق الصبح في الدار ، حتى رأيت ابا ربيعة يتقلّب كأنما دحرجته يد ؛ ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال : أهلكتني يا ابا خالد ! أهلكتني والله !

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله ؟

قال : اني نمتُ على تلك النية التي عرفتَ : ان اجمعَ قلبي للعبادة ، واخاص من المرأة والولد ، ومن المعاناة لها في مُرمّة المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف ، وان أعفي نفسي من لأوائهم وضرائهم وبلائهم ، لافرغ الى الله واقبل عليه وحده ؛ وسألت الله ان يخير لي في نومي ؛ فرأيت كأن ابواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، اجنحة وراء اجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر اليّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم!

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

(١) حص ذيله : قطع وجذ

وينظر هذا الآخر اليَّ ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وما زالت « المشئوم ، المشئوم » حتى مرُّوا ؛ لا يقولون غيرها ولا اسمع غيرها ، وانا في ذلك أخاف ان اسألهم ؛ هيبةً من الشؤم ، ورجاء ان يكون المشئوم انساناً ورائي يبصرونه ولا ابصره ؛ ثم مرَّ بي آخرهم ، وكان غلاماً ، فقلت له : ياهذا ، من هو المشئوم الذي تومئون اليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولِمَ ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في اعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتحزنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ؛ ثم أمرنا الليلة ان نضع عملك مع الخالفين الذين فرُّوا وجبنوا ... ...

* * *

ان سموَّ الرجل بنفسه عن الزوجة والولد طيَرانٌ الى الأعلى .. ولكنه طيران على اجنحة الشياطين !

طيران بالرجل الى فوهة البركان الذي في الاعلى ... !

الى صنعاء

لامين الريحاني (١٨٧٦- ١٩٤٠)

وهو اديب مفكر طائر الصيت وقد عُرف بنزعته الى الحريّة ودأبه في سبيل القومية العربيّة

واسلوبه يجمع بين دقة الوصف وطلاوة التعبير وجودة النقد التهكمي مع جرأة نادرة في ما يعتقد صوابه

وله مؤلفات عديدة في العربية والانكليزية اشهرها «ملوك العرب» والريحانيات وقد اخترنا له هذه القطعة من الاول وهي تصف ما جرى له (في طريقه الى صنعاء) عند سلطان الحواشب ، ثم في ماويه اول بلدة دخلها من بلدان اليمن . قال -

* * *

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قريةٌ بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دبن سلسبيل فضي ، الى جنينه الحقول المزروعة وهي تتموّج حول اكواخ من القش. ان الجمال الذي يجلب المكان لينبىء بالسلم القروي ولكنه مفقود . فلا في سلطنة ابن مانع[1] وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول ؟ سيجيب السلطان على سؤالنا

دخلنا الى بيت في القصر أُعدَّ للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكّر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكأن السلطان ، وهو ينظر الينا ، أُعجب بسفّي البرغل سفًّا فقال : انت منا يا امين ؟ انت والله منا ...

---

(١) سلطان الحواشب قرب اليمن

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصي المزاج ، حادّ الطبع ، حرّ الكلمة. حدّثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصِّرون حياتي – هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحهُ والله ولا اسلّمه رهينة لاحد. اما الاربعة فالواحد منهم فوق[1] يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والآخر تحت[2] يغزونا لظنّه اننا اغنيا. وان خزنة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك[3] لا يخاف الله . والرابع[4] عدوّنا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلّهم . واننا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا ... لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل جمل. والإمام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة

– وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليّ ويده على لحيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونهـا لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية . إحسبها . وعلينـا ان نؤمّن للقوافل الطرق . وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورةٌ يا امين !

* * *

ودّعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلّفه مشقّة القيام مثلنا ليودّعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . الاّ اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان المكارون والخدم يحمِلون دُهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتةً ان اناء من الفخار تكسر فيه فظننّا انه وقع من السطح . ولكن اناء آخر تبعه – رأيناه يُرمى من النافذة ولم نرَ الرامي – فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنةٌ ، ثم قطعة اخرى من الفخار

(١) امام صنعاء الامام يحيى (٢) عرب الصبيحة
(٣) عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً (٤) سلطان لحج

تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجّة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون . هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجّلوا بالرحيل

خرجت وقسطنطين[١] مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا – اقول قلبي ولا اتهم رفيقي – يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشي عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك

بعد قليل قرُب القوم منا فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الأطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر قبل ان نفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودّع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخّار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها او ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخّار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ! انهضوا للضيوف والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون

– اكثر الله ايتها السلطانة من فخّارك ، وجعلنا أليَنةَ فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل !

تروّعين ايتها الحوشية الالمعية ولا تجوّعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بلاد الزيود[٢] التي تنذي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثتْ في ماويه اول بلد من بلدان الزيود شمالي عدن –

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي

(١) رفيقه قسطنطين يني

(٢) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي الحسين بن الامام علي وبلادهم اليمن

اجتزناه . فشنّف آذاننا لما كنا مصعّدين اليها صوتٌ كان وقعهُ جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به انّما استئناس . كأننا عند حدود الامــام عدنا الى المدنيّة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندي بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحّباً بنا باسم الجيش

وكانت فاتحة الألطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي . فترجّلنا نردُّ السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسي القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيّات . وعندما وصلنا الى الباب يتقدمنا كاتبُ سرّ الامير واثنان من رجاله ، اوقفنــا الحارس هناك ونادى بكلمةٍ حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ! صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكّرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكّة ، وعلى كل دكّة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة والثياب المنيّلة التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك عــلى اجسامهم . كنت وانا اتلمس طريقاً اتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصوّر نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزّز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وما هي الا فاتحة الكروب . فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقــد امتزج بالدُّخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطــان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات[1] وفي الزاوية عند منضدة صغيرة الى جنبها مَداعة[2] بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حادّ النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدّمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعزّ

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز

(١) اصطلاح يمني وعاء

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فِقرٍ من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كلٌ من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرَّد النظر . وما اظن اننا ظفرنـا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل

بعد ان سلّمنا على الامير قدَّمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرّفه إما خطأً واما تلطفاً ، الى « السيد »[1] امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ، فسألني قائلاً : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليَّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صوَر كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحذّرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصّبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

– جاوب يا فتى ! هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيَّرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك ! اصدقه الخبر يا رجل ولكن ولكن – هل تعلن امام هذا الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او دروينيّتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت . هذا اخفّ ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها –

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء وانا اثناء ذلك اسير خوف اشدّ من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي – من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد ان غيَّرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح عليَّ فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكلّ ربعٍ من ربوعك حرمةٌ وهوى تغلغل في صميم فؤادي

---

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بشّ لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا واياه الثقة والولاء . فقال يُعقِّب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنـــان

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغيّر الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين : يتقربون حباً بالمــال او السيادة من الافرنج ويدنّسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية. يوالون الكفّار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرَمين... الى ان قال : الايمـان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله !

فتصدّى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة أثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز . ثم قلت وانا اتوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلّي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وأمر كاتب سرّه ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتنوا بامرنا . صافحناه مودّعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء – في مجالس القات تقلّ الترّهات

الظلم يخرب العمران

من مقدمة ابن خلدون المولود في تونس ٧٣٢ هـ.
والمتوفَّى في مصر سنة ٨٠٨

والمقدمة هي الجزء الاول من تاريخه «كتاب العبر» وقد وضعها دارساً فيها احوال العمران دراسة سياسية واجتماعية واقتصادية. ويعدّ هذا العلامة السابق في هذا المضمار بل رائد علماء الاجتماع في جميع الاقطار. اما المقدمة فقد ترجمت او ترجم بعضها الى بضع لغات اوروبية وللمستشرقين اهتمام خاص بها وبواضعها وهم يشهدون له بالتقدم والدراية وحسن النظر.

. . .

إعلم ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لِما يرونه حينئذٍ من ان غايتها ومصيرها انتهابُها من ايديهم، واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فاذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع ابوابها وان كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب كسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعرّ الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفَّ ساكنُ القطر وخلَت دياره وخرجت امصاره واختلَّ باختلاله حال الدولة والسلطان لِما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً.

ولا تحسبنَّ الظلم انما هو اخذ المال او المُلك من يد مالكه من غير عوضٍ ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم اعمّ من ذلك. وكلّ من اخذ ملك احدٍ او غصبه في عمله او طالبه بغير حق او فرض عليه حقاً لم يفرضهُ الشرع فقد ظلمه. فجباةُ الاموال بغير حقها والمعتدون عليها ظلمةٌ والمنتهبون لها ظلمةٌ والمانعون لحقوق الناس ظلمةٌ وغصّاب الاملاك على العموم ظلمةٌ. ووبال ذلك كله عائدٌ على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لاذهابه الآمال من اهله .

واعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على اموال الناس بشراء ما بين ايديهم بابخس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بارفع الاثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع .

وقد يعمّ ذلك اصناف التجّار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع فتكسد الاسواق ويبطل معاش الرعايا لان عامّته من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عطلًا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان او تفسد ويؤول ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرّق هذا الخلل على التدريج ولا يُشعر به

ومن اجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظرَ اكل اموال الناس بالباطل سداً لابواب المفاسد المُفضية الى انتقاض العمران بالهرج او بطلان المعاش. واعلم ان الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترَف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة ويستحدثون القاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج. ثم لا يزال الترَف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى اموال الناس تشتدّ ونطاق الدولة بذلك يزيد الى ان تنمحيَ دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها طالبها. والله اعلم

حافظ ابرهيم

نظرة تحليلية للاستاذ احمد الزيات صاحب مجلة الرسالة

ننقل هذا الفصل من كتاب وحي الرسالة وقد استطاع الكاتب فيه ان يجمع الى دقة التحليل حسن البيان ومتانة الانشاء، وهو يرسم لك صورة صادقة لشاعر النيل ويغنيك بهذا الفصل الموجز عن كثير مما قيل فيه قال:

كان عمر حافظ سنتين حين توفي ابوه فقيراً في (ديروط)، فنشأ في عهد اليتم والعدم لا يجد حانياً غير امه ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائي في ضيق وشدة . ثم قضى بضع سنين في طنطا متبطلاً يُزجّي فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض . ولم يستطع خاله اسبب ما ان يجلو عنه غمة اليائس وذلة اليتيم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القدر ، لا ينثني الشعر الا في ذاك . ثم دفعته الحاجة الى مكاتب المحامين – وكانت يومئذ مفتَّحة الابواب لكل داخل – فتبلَّغ[1] بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهي مطمح بصره وحديث امانيه. ثم خرج منها ضابطاً الى السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع اخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نُفي من السودان والجيش

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ولا يستقر على امر ولا يتشوَّف الى غاية ؛ لان طفولته الشاردة المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ؛ ولان عقيدته التقليدية الخاطئة بان الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيتهُ على نمط مسلم ابن الوليد وابي نواس واضرابهما ممن عاشوا صنائع للملوك وحمائل على الجوائز ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهي على حبل

---

(١) تبلغ بالعمل : عاش به عيش الكفاف

ذراعه ، وآثر ان يعيش في ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفيء الى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر اهلها بعذب حديثه ، وينادمهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين الى صِلات القصر فيحجبه عنها شاعر الامير بحوله وقوله

ومنْ دأب الشعراء الكاسبين بالشعر ان يبذّروا الى حد السفه اذا عاشوا للحاضر كصريع الغواني وابن هاني ، وان يقتّروا الى حد الكزازة اذا عاشوا المستقبل كأبي العتاهية والبحتري ، ومن الأَولين كان حافظ !

تمتلىء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من البَرَم والقلق لا تنفكُّ عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الادب ؛ ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكي في ازم الزمان وظلم الانسان وشقاء الاديب !

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمي لا يدخل في نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب في عمل ، ولا يطمئنُّ الى تبعة ؛ وانما يضطرب نهاره من قهوة الى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس الى مجلس ؛ وايناكان كان الانس الشامل والظرف الناصع والادب الغض والحديث المشقَّق الذي يمتزج بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس

تقوّضت اسرة حافظ وهو في المهد ، فشبَّ وحشيَّ الطبع مَعرّيَّ الغريزة لا يتضح في نفسه معنى المنزل ، ولا تجري في حسه شعور الاسرة ؛ ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الادب ، فقصر جهده على صوغ الشعر في المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به درَك ؛ ولكنه حين أُريد على ترجمة البؤساء وكتاب الاخلاق ، ووكالة دار الكتب ، ادركته علة النشأة فقعدت به عن الإجادة وشلته عن العمل ..

- ٢ -

كان حافظ في مَيعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه ؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يدَّعيه كل شاعر على الناس ، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل انسان الى المجتمع . فلما اخفق بالطبع لم يرد ان يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور ، وانما ارتد ارتداد الأنوف المحتج الى الفلاكة الشاعرة الصابرة ،

يحمل بؤسه على « حرفة الادب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر . ثم عاش عيش الطائر الفرد : عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه ان يطير في الغيم والصحو ، ويشدو في الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب اينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية العقيم التي حييها حافظ ان قتلت فيه الطموح فلم ينشط الى سعي ، واذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطىء فلم يتعمق في فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبدؤه الادبي مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح عباس وتمجيد عبد الحميد . ثم اتصل بالامام وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الامة ، ولهم يومئذ في الانجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه في هذه الفترة قصيدة في رثاء الملكة فيكتوريا ، وقصيدة في تتويج الملك ادوار السابع ، وقصيدتان في وداع اللورد كرومر . عبّر بهما عن الرأي السياسي الارستقراطي في ذلك الحين . ثم خلص للشعب ، فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة الى لواء مصطفى كامل ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على اوتار القلوب اناشيد الجهاد ، ونظم اماني الشباب من حبات قلبه ، وترجم احاديث النفوس ببيان شعره ، ثم عطف عليه الوزير الاديب حشمت باشا فاكرمه بالعمل في (دار الكتب) ، واجزل له الوظيفة طمعاً في مواهبه وثواباً على فضله . ولكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة ، فاستراح للخفض ، واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر الا مدفوعاً اليه من فترة الى فترة . فلما خرج على التقاعد انضوى الى اعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم سعد اتصال النديم ، وحاول ان يبعث في نفسه الشعر الوطني ولكنه كان قد اصفى[1] ...

* * *

وكان فكر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة ، ينشأ في الكثير الغالب من آراء المجالس واقوال الصحف ومخزون الحافظة ، فلم تعنه حياته على التروية ، ولم يدعه

---

(١) اصفى الشاعر : انقطع شعره

اضطرابه الى التأمل ، ولم تطلقه قيوده الى الطبيعة ، وانما ظل صنيعة لوحي البيئة والهام الفطرة وتوجيه المناسبة . فهو في قصائده للإمام يذكر تعلق الناس بالاباطيل وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد في ذلك على نقد الامام ونعيه . وفي قصائده لقاسم امين يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه . وفي قصيدته التي أنشدها في احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم في تعليم الام وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه . وفي قصائده التي نظمها في مشروع الجامعة المصرية الاهلية وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الإكثار من الكتاتيب وإنشاء الجامعة . وفي رثائه لتولستوي يذكر السلم والحرب والخير والشر والغنى والفقر بما لا يبعد عن متناول الناس ولا يرتفع عن مستوى الجمهور . من اجل ذلك كان فكره مستقياً لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش . والسر فيه اعتماده على قوة الإجماع ، لا على غرابة الابداع ...

* * *

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربي الاول : يتزوّد لمجالس الملوك بالاخبار والطُّرَف ، ولمحافل الادباء بالاشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، والحاح الحاجة . ولحافظ في كل اولئك موضع منفرد ومكان بارز !

عكف منذ شب على دواوين الشعراء واجزاء (الاغاني) يتنخَّلها ، ويتمثلها ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الاخرى بنتف من المسائل الاولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف اذا ظن انها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الاسمار وصوغ القريض ، حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة ! وثقافة الشاعر المدني المجدد ثقافة محيطة شاملة تشارك في ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة

* * *

اما صياغة حافظ فهي موهبته الاولى ومزيته الظاهرية . وهو في ذلك ثاني الخمسة[1] الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لاماني شعبه ، وتصويره لمساوىء عصره ...

....

وباب الترسل الادبي في هذا العصر واسع . وممن امتازوا به في مصر كلٌ بطريقته الخاصة — ابرهيم اليازجي وولي الدين يكن وطه حسين وعباس العقاد وابرهيم المازني وحسين هيكل ومي زياده ومؤلفاتهم معروفة متداولة ويجاريهم في ذلك جملة من الادباء في سائر الاقطار

---

(١) البارودي وحافظ وصبري وشوقي ومطران

النثر الخطابي

ويعتمد فيه الاسلوب الإقناعي اي حمل السامع او القارئ، ان يرى ما يقصد اليه الخطيب بما يصوّره له من حقائق تلبس ثوب البرهان . ويكثر في هذا الاسلوب صيغ المخاطبة والاستفهام والايهام والتكرار والتعجّب والقسم وتقطيع العبارات تقطيعاً يناسب نبرات المتكلّم واشاراته ، مع الاكثار من الشواهد الموضحة والعِبَر المؤثّرة

وقد كانت الخطابة – على ما يروي الرواة – معروفة منذ ايام الجاهلية . والاقدمون يمدحون الايجاز ويقولون هو البلاغة ويكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله . وغلب على الخطابة في عهد الصحابة الارشاد والحث على التقوى . واشهر خطباء هذا العهد هو الامام علي . ثم لما جاء العصر الاموي وانتقلت الخلافة الى ملك وطيد عظم شأن الخطابة الحربيّة والسياسيّة ونبغ جماعة من الخطباء امثال الحجّاج وزياد وقُتيبة وقطَري بن الفجاءة وقد عرفت اقوالهم بالايجاز والمتانة وارسال الكلام على السجيّة

وعلى ذلك انطوى شطر من العصر العباسي لكن الخطابة في هذا العصر لم تلبث ان انحصرت في اروقة المساجد ولبست اثواب الصناعة البديعية وظلت كذلك حتى مفتتح عصرنا الحاضر

ومنذ اواخر القرن الماضي اخذت الخطابة تنتعش فنشأت الخطب الادبية والاجتماعية والسياسية ، وفُصل الوعظ عن الخطابة فاصبح الاول للاغراض الدينية والثانية للاغراض الدنيوية

ولا نعلم عصراً تفنن الناس فيه بالخطابة كهذا العصر وقد ساعد على ذلك انتشار الجمعيات وارتقاء الامة الثقافي وتطوّر الحياة السياسية والاجتماعية في مختلف الاقطار العربية

من الخطب النبوية

(١)

أيها الناس[١] . إنَّ لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإنَّ لكم نهايةً فانتهوا الى نهايتكم . إنَّ المؤمن بين مخافتين – بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به ، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبرة ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذي نفسُ محمّد بيده ما بعد الموت من مستعتَب ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار

(٢)

كان الانصار قد وجدوا على النبي (ص) يوم حُنين اذ قسم الغنائم في القبائل ولم يعطهم منها شيئاً . وبلغه ذلك فقال[٢] –

يا معشر الانصار . ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدةٌ وجدتموها عليَّ في انفسكم . ألم آتكم ضُلالاً فهديتكم ، وعالةً فاغناكم الله ، واعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

اما والله لو شئتم لقلتم فلَصدقتم : اتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الانصار (في انفسكم) في لعاعة[٣] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم الى إسلامكم ؟

ألا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟

فوالذي نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار . ولو سلك الناس شِعباً[٤] وسلكت الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء ابناء الانصار

---

(١) البيان والتبيين (المطبعة العلمية مصر ١٣١١) ١–١١٧

(٢) ننقل هذا النص عن المدخل للاثري . وقد ورد بنصّ آخر في صحيح البخاري (ج ٥)

(٣) اللعاعة العشب الخفيف . يقصد هل اغتظتم لشيء يسير كهذا

(٤) الشِعب – الطريق او الناحية

من كلام الامام علي

للامام علي كثير من الخطب والاقوال المأثورة وقد جمعها الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة ونحن ننقل منه القطع التالية . والاولى من خطبة له وقد أُريد على البيعة بعد قتل عثمان . قال —

دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون امراً له وجوهٌ والوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول[1] . وإنّ الآفاقَ قد اغامت والمحجّة[2] قد تنكّرت واعلموا ان أجبتكم ركبتُ بكم ما اعلم ولم أصغَ الى قول القائل وعَتب العاتب . وإن تركتموني فانا كأحدكم ولعلّي اسمعُكم وأطوعُكم لمَن ولّيتموه امركم . وانا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني اميراً

* * *

والثانية من خطبة له بعد ان قضى على فتنة الخوارج في النهروان

أمّا بعدُ ايها الناس . فانا فقأتُ عين الفتنة ولم تكنْ ليجرأ عليها احدٌ غيري بعد ان ماج غيهبُها[3] واشتدّ كَلَبُها[4] فاسألوني قبل ان تفقدوني . فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائةً وتُضلُّ مائةً الأ انبأتكم بناعقها[5] وقائدها وسائقها ومُناخ رِكابها ومحطّ رحالها ، ومن يُقتل من اهلها قتلاً ويموت منهم موتاً . ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائهُ الامور وحزاربُ الخطوب لأطرقَ كثير من السائلين وفشِلَ كثير من المسؤولين

إنّ الفتن اذا اقبلتْ شُبّهتْ[6] واذا ادبرتْ نبّهت[7] : يُنكرنَ مُقبلاتٍ ويُعرفن

(١) لا تصبر له ولا يطيق احتماله (٢) المحجّة الطريق المستقيمة
(٣) الغيهب الظلمة (٤) الكلب داء معروف يصيب الكلاب
(٥) الداعي اليها (٦) اشتبه فيها الحق بالباطل
(٧) لانها تعرف بعد انقضائها وتنكشف حقيقتها

مُدبِراتٍ ، يَحْمن حَومَ الرياح يُصبنَ بَلَداً ويُخطئنَ بلداً . ألاَ إنَّ اخوَفَ الفتن عندي عليكم فتنةُ بني أميَّة فانها فتنةٌ عمياء مُظلمة عمَّت خُطتُها وخصَّت بليتُها واصاب البلاء مَن ابصرَ فيها (١) واخطأ البلاء من عَميَ عنها . وايمُ الله لتَجِدُنَّ بني أميَّة لكم ارباب سوءٍ بعدي كالنّاب الضروس تعذِمُ بفيها وتخبِط بيدها وتزبِنُ برجلها وتمنع درَّها (٢) ؛ لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم الا نافعاً لهم او غير ضائرٍ بهم . ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصارُ احدكم منهم الا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحبه (٣) تردُ عليكم فتنتهم شوهاءَ مَخشيَّةً (٤) وقطعاً جاهلية ليس فيها منارُ هُدًى ولا علَمٌ يُرَى (٥) ، نحن اهل البيت منها بمَنجاةٍ (٦) ولسنا فيها بدُعاة . ثم يُفرجها الله عنكم كتفريج الاديم (٧) بمن يسومُهم خسفاً (٨) ويسوقهم عُنفاً . ويسقيهم بكأسٍ مُصبَّرة (٩) لا يُعطيهم الا السيفَ ، ولا يُحلسهم الا الخوف (١٠) فعند ذلك تودُّ قريشٌ بالدنيا وما فيها لو يرَونني مقاماً واحداً ولو قَدرَ جَزرِ جزُور (١١) لِأَقبلَ منهم ما اطلب اليوم بعضه فلا يُعطونني

* * *

ومن خطبة له . وفيها يظهر ما عُرف به من الغيرة على المصلحة العامَّة والحرص الشديد على مال المسلمين والتنزُّه عن قبول الهدايا زهداً في الدنيا ومحافظةً على الحق قال –

والله لأنْ أبيتَ على حَسَكِ السَّعدان مُسَهَّداً (١٢) وأُجرَّ في الأغلال مُصفَّداً ، أحبُّ

---

(١) من عرف الحق فيها نزل به بلاء الانتقام من بني امية

(٢) الناب الناقة المسنة والضروس السيئة الخلق تعض حالبها وتعذم من عذم الفرس اذا اكل بجفاء او عض وتزبن اي تضرب ودرّها لبنها

(٣) التابع من متبوعه (٤) شوهاء قبيحة المنظر ، ومخشية مرعبة

(٥) دليل يهتدى به (٦) بمكان النجاة من اثمها

(٧) كما يسلخ الجلد عن اللحم (٨) يلزمهم ذلاً

(٩) اي مملوءة (١٠) احلس البعير اذا البسه الحلس وهي كساء يوضع على ظهره

(١١) الجزور الناقة المجزورة ، اي ولو وقتاً قصيراً

(١٢) الحسك الشوك والسعدان نبت ترعاه الابل والمسهد السهران والمصفد المقيد

إليَّ من أن ألقى اللهَ ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيءٍ من الحُطام . وكيف اظلم احداً لنفسٍ يُسرعُ الى البلى قفولها (١) ويطولُ في الثرى حلولها

والله لقد رأيتُ عقيلاً (٢) وقد أملقَ حتى استماحني بُرَّكم صاعاً ورأيتُ صبيانه شُعثَ الشعور غُبرَ الالوان من فقرهم . وعاودني مؤكداً وكرَّر عليَّ القول مردِّداً . فأصغيتُ اليه سمعي فظنَّ اني ابيعهُ ديني وأتبعُ قياده مُفارقاً طريقتي . فأحميتُ له حديدةً ثم ادنيتها من جسمه ليعتبرَ بها فضجَّ ضجيج ذي دنفٍ من ألمها وكاد ان يحترق من مِيسمها . فقلتُ له ثكلتكَ الثواكل يا عقيل أتئنُّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرُّني الى نار سَجرَها جبارُها لغضبه . أتئنُّ من الاذى ولا تئنُّ من لظى !

وأعجبُ من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفةٍ في وعائها ومعجونةٍ شَنِئتها (٣) كأنما عُجنت بريق حيَّةٍ او قيئها . فقلتُ أصِلةٌ أم زكاةٌ أم صدقة ؟ فذلك محرَّم علينا أهلَ البيت . فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هديَّةٌ فقلتُ هبلتكَ الهبول ! (٤) أعن دين الله اتيتني لتخدعني أمختبطٌ ام ذو جِنَّةٍ او تهجر (٥) ! والله لو أُعطيتُ الاقاليمَ السبعةَ بما تحت افلاكها على ان أعصيَ اللهَ في نملةٍ أسلبها جلبَ شعيرةٍ ما فعلتُ . وإنَّ دنياكم عندي لأهونُ من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تقضمها . ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى ولذَّةٍ لا تبقى ! نعوذ بالله من سُبات العقل (٦) وقبح الزلل وبه نستعين

---

(١) اي كيف اظلم لاجل منفعة نفس يسرع الى الفناء رجوعها . والثرى التراب
(٢) عقيل اخوه . واملق افتقر اشد الفقر . واستماحني استعطاني . والبرّ القمح
(٣) اي كرهتها وهو يشير الى نوع من الحلوى (٤) الهبول المرأة لا يعيش لها ولد
(٥) اي تهذي بما لا معنى له (٦) سبات العقل نومه

من الخطبة البتراء (١)

وهي التي القاها زياد ابن ابيه حين قدم البصرة سنة ٤٥ هـ والياً لمعاوية ابن ابي سفيان وكان الفِسق في تلك المدينة كثيراً فاشياً والحالة الاجتماعية والسياسية على غيرِ ما يرام . فصعد المنبر وخاطب البصريين بقوله –

***

اما بعد فانَّ الجهالة الجهلاء. والضلالةَ العمياء. والغيَّ المُوفي باهله على النار ما فيه سُفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العِظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ... اتكونون كمَن طَرَفتْ عينيه الدنيا وسدَّتْ مسامعه الشهوات واختار الفانيةَ على الباقية ، ولا تذكرون أنكم احدثتم في الاسلام الحدَثَ الذي لم تُسبقوا اليه ؟ ما هذه المواخيرُ المنصوبةُ (٢) والضعيفةُ المسلوبة في النهار المُبصر – والعددُ غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلَج الليل (٣) وغارة النهار ؟

قرّبتمُ القرابةَ وباعدتم الدّين . تعتذرون بغير العذر وتُغضون على المختلس . كلُّ امرىءٍ منكم يذبُّ (٤) عن سفيهه صنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معادا

اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الأ بما صلح اوّله – لينٌ في غير ضَعف، وشدَّةٌ في غير عُنف . واني أُقسم بالله لآخذنَّ الوليَّ بالمولى (٥) ، والمقيم بالظاعن ، والمُقبل بالمُدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم بالسقيم . حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انجُ سعدُ فقد هلك سعيدُ (٦) ! او تستقيمَ قناتكم !

(١) اي التي لم يُبدأ بها بحمد الله . نقلها عن البيان والتبيين والعقد
(٢) المواخير بيوت المنكرات (٣) اي تمنع الضالّين عن السير في الليل للشر
(٤) يدافع (٥) آخذ السيد بذنب العبد
(٦) هما اخوان ذهبا في حاجة فهلك احدهما ونجا الآخر واصبحا مثلاً يُضرب

فإيّاي ودلَج الليل فاني لا أُوتَى بمُدلج الا سفكتُ دمه . وايّاي ودعوى الجاهلية فاني لا اجد احداً دعا بها الاّ قطعتُ لسانه (١)

وقد احدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكلّ ذنبٍ عقوبةً . فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن احرق قوماً احرقناه ، ومن نقبَ بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبَش قبراً دفنّاه حيّاً فيه . فكفّوا عني ايديكم وألسنتكم أكففْ عنكم يدي ولساني . وقد كان بيني وبين اقوام إِحَن (٢) فجعلتُ ذلك دُبرَ اذني (٣) وتحت قدمي . فمن كان منكم محسناً فليزددْ احسانا . ومن كان منكم مُسيئا فلينزعْ عن اساءته !

انّي لو علمتُ انّ احدكم قد قتله السلُّ من بغضي لم اكشفْ له قناعا ولم اهتكْ له سِترا حتى يُبدي لي صَفحتَه (٤) . فاذا فعل ذلك لم أناظرْه (٥) . فاستأنفوا اموركم وأعينوا على انفسكم ، فربُّ مُبتئسٍ بقدومنا سيُسرُّ ، ومسرورٍ سيبتئس !

واعلموا أنّي مهما قصّرت عنه فلن أقصِّرَ عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه (٦) ، ولا مُجمِرا لكم بَعثاً (٧) . فادعوا الله بالصلاح لائمّتكم فانهم ساستُكم المؤدّبون لكم وكهفُكم الذي اليه تأوون

اسأل الله ان يُعين كلّا على كلٍّ ، واذا رأيتموني أُنفِذ فيكم الامر فأنفذوه على أذلاله (٨)

وأَيم اللهِ انّ لي فيكم لَصَرعى كثيرةً فليحذرْ كلُّ امرىء ان يكون من صَرعاي

(١) يريد بدعوى الجاهلية الدعوة لعصبية القبائل (٢) ضغائن
(٣) اي لم اصغِ اليه (٤) اي حتى يجاهرني بالعداوة
(٥) اي اضربه دون ان اباحثه واجادله (٦) موعده
(٧) اي لا احبس جنودكم في ارض العدو
(٨) اي نفّذوه على وجوهه المطلوبة

خطبة طارق بن زياد

في فتح الاندلس

ويقال انه القاها على جنده بعد ان عبر بهم الى الاندلس ثم حرق المراكب التي اقلتهم وذلك في السنة ٩٢ هـ (١)

ايها الناس اين المفرّ ؟ البحرُ من ورائكم والعدوُّ امامكم ، وليس لكم والله إلاَّ الصدقُ والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مآدب اللئام. وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه ، واسلحتُهُ واقواتُهُ موفورة ، وانتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تستخلصونه من ايدي عدوّكم. وان امتدَّت بكمُ الايامُ على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم امراً ،ذهبت ريحكم (٢) وتعوَّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خِذلانَ هذه العاقبة من امركم بمُناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينتُهُ الحصينة . وإن انتهازَ الفرصة فيه لَمُمكنٌ أن سمحتم لانفسكم بالموت . واني لم احذِّركم امراً انا عنه بنَجْوة (٣) ، ولا حَمَلْتُكم على خطَّة أرخصُ متاعٍ فيها النُّفوس – اربأُ فيها بنفسي (٤) . واعلموا انكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً إستمتعتم بالأرفهِ الالذِّ طويلاً . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي . فما حظُّكم فيه باوفرَ من حظّي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليدُ بنُ عبد الملك اميرُ المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً (٥) ثقةً منه بارتياحكم للطعان . واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكراً في الدارين . واعلموا أني اول مجيبٍ الى ما دعوتكم اليه ، وإني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذَريق (٦) فقاتلُهُ ان شاء الله

(١) عن وفيات الاعيان بتصرف زهيد

(٢) ذهبت قوتكم (٣) وانا متعالٍ عنه (٤) انتحي عن مشاركتكم فيه

(٥) اختان بمعنى اصهار (٦) هو رودريك آخر الملوك القوط في اسبانيا

تعالى . فاحملوا معي فان هلكتُ بعده فقد كُفيتم امرَه ولم يعوزْكم بَطَلٌ عاقلٌ تُسندُون امورَكم اليه . وان هلكتُ قبلَ وصولي اليه فاخلفُوني في عزيمتي هذهِ واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله

خطبة الحجاج المشهورة

حين ولي العراق

وهو قائد بني امية وسيفهم البتَّار. وكانت الكوفة قد اتقدت فيها الثورة على الامويين وكادت تندلع السنتها في العراق فارسل الخليفة عبد الملك قائده الحجاج بن يوسف الى الكوفة فلما وصل اليها رقي المنبر وهو معتمٌ بعمامة قد غطت اكثر وجهه ، متقلداً سيفاً متنكباً قوساً . فمكث ساعة لا يتكلم فقال النفس بعضهم لبعض : قبح الله بني أُميَّة حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال احدهم ألا أحصبه[1] لكم ؟ فقالوا أمهل حتى ننظر . فلما رأى الحجاج عيون الناس اليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال[2] —

***

انا ابنُ جلَا وطَلَّاعُ الثنايا[3] متى أضعِ العمامة تعرفوني

يا أهلَ الكوفة اني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قِطافها واني لَصاحبها وكأني أنظرُ الى الدِّماء بين العمائم واللحى

اني والله يا اهل العِراق ما يُقعقَعُ لي بالشِّنان[4] ولا يُغمزُ جانبي كتَغماز[5] التين . ولقد فُررتُ عن ذكاء . وفُتِشتُ عن تجربة . وإنَّ امير المؤمنين اطالَ الله بَقاءَه نثرَ

---

(١) اي أرميه بالحصى
(٢) بتصرف عن الكامل والبيان والتبيين
(٣) اي انا المعروف كالصبح الدهر ولا يخاف من الاوهام
(٤) يقعقع له بالشنان مثل يضرب لمن لا يتضع لحوادث
(٥) يغمز اي يجس ويعصر

كِنانَتهُ (١) بين يديه فعجم عِيدانها (٢) فوجدني امرَّها عوداً واصلبها مَكسراً. فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم (٣) في الفِتنة واضطجعتم في مراقد الضلال . والله لأحزِمَنَّكم حزمَ السَّلَمة (٤) ولأضربَنَّكم ضربَ غرائب الإبل . فانكم لكأهل قرية كانت آمنةً مطمئنّةً يأتيها رزقُها رَغداً من كلِّ مكان. فكفَرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . واني والله ما اقول الا وَفيت ، ولا أهمُّ إلا أمضيت ولا اخلق (٥) الا فرَيت . وان امير المؤمنين امرني باعطائكم أُعطياتكم ، وان أُوَجهكم لمحارَبة عدوِّكم مع المُهلَّب بن ابي صُفرة (٦). واني أُقسم بالله لا اجد رَجلاً تخلّف (٧) بعد اخذِ عطائه بثلاثة ايام إلا ضربتُ عُنقه

وله لما مات عبد الملك بن مروان

ايها الناس ان الله تعالى نعى نبيّكم (صلعم) الى نفسه فقال « انَّك ميّت وانَّهم ميّتون» وقال « وما محمّدٌ الاَّ رسولٌ قد خلَت من قبله الرُّسل أفإن مات او قُتِل انقلبتم على اعقابكم »

فمات رسول الله (صلعم) . ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المَهديّون ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل الذَّكرُ (٨) الذي جرّبته الامور واحكمته التجارب. مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لاهل الحق والوطء لاهل الزّيغ . فكان رابعاً

(١) الكنانة جعبة السهام
(٢) عجم العود عضّه ليعلم صلابته
(٣) اوضعتم اقمتم ورعيتم
(٤) السلمة نوع من الشجر
(٥) أخلق اي اقدّر الجلد وافصّله
(٦) احد امراء المسلمين وكان يتولى حرب الخوارج
(٧) تخلّف اي تأخر
(٨) اي الشديد الكامل التجربة (يعني عبد الملك)

من الولاة المهديّين الراشدين . فاختار الله ما عنده والحقهُ بهم . وعهد الى شِبهه [(١)] في العقل والمروءة والحزم والجلَد القيامَ بامر الله وخلافته . فاسمعوا له وأطيعوه

ايها الناس . ايّاكم والزَّيغ فانَّ الزَّيغ لا يُحيق الاَّ بأهله . ورأيتم سيرتي فيكم ، وعرفتُ خِلافكم وطيّكم على معرفتي بكم . ولو علمتُ انَّ احداً اقوى عليكم مني او اعرفَ بكم ما وَلِيتكم . فايّايَ واياكم ! من تكلّم قتلناه . ومن سكت مات بدائه غمّاً

« عن العقد الفريد »

---

(١) اي الوليد ابنه

مآثر عبد الرحمن الناصر

الخليفة الاموي في الاندلس

من خطبة القاها بين يديه خطيب الاندلس منذر بن سعيد البلوطي سنة ٣٣٨ هـ وذلك يوم الاحتفال بقدوم رسل ملك القسطنطينية اليه رغبةً بموادعته ومصادقته . وهي نموذج للاسلوب الخطابي في العهود العباسية

قال بعد مقدمة –

* * *

أنشدكم بالله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسُبل مَخُوفة فأمَّنها ، والاموال منتهبَة فأحرزها وحصَّنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمَّرها ، وثغور المسلمين مُهتَضَمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى اذهب الله عنكم غيظكم ، وشَفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم

أنشدكم الله ! ألم تكن خلافته قُفل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها ؟ ألم يَتلافَ صَلاحَ الامور بنفسه بعد اضطراب احوالها ؟ ولم يَكِلْ ذلك الى القوَّاد والاجناد ، حتى باشره بالقوَّة والمُهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الاوطان ، ورَفَض الدَّعة ، وهي محبوبة ، وترك الرُكون الى الراحة وهي مطلوبة بطَوِيَّة صحيحة وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابَّة غالبة ، ونُصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر وجِدّ ظاهر ، وسيف منصور تحت عدل مشهور ، متحملاً للنَصَب ، مستقلًا لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حِدَّتها ،

لم يبقَ لها غارب الا جَبَّه(١) ولا نَجَمَ(٢) لاهلها قرنٌ الا جَدَّه. فاصبحتم بنعمة الله إخواناً وبلَمِّ امير المؤمنين لشَعَثكم على اعدائه اعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته ابواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الأقصَين والأدنَين مستخدمةً اليه واليكم ، يأتون من كل فجٍ عميق وبلد سحيق(٣) لأخذ حبل(٤) بينه وبينكم جملةً وتفصيلا ، ليقضيَ اللهُ امراً كان مفعولاً

فاحمدوا الله ايها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد اصبحتم بين خلافة امير المؤمنين – ايّده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق الى سبيل الرشاد – احسنَ الناس حالاً وأنعمهم بالاً ، وأعزّهم قراراً وأمنعهم داراً ، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صُنعاً ، لا تُهاجون ولا تُذادون ، وانتم بحمد الله على اعدائكم ظاهرون . فاستعينوا على صلاح احوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عمّ نبيكم صلّى الله عليه وسلم ، فان من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة : ذلك هو الخسران المبين

---

(١) الذارب الكاهل . جبّه قطعه

(٢) اي ظهر . وجدّه قطعه

(٣) اي بعيد

(٤) اي معاهدة

دولة العرب

من اقوال اديب اسحق

١٨٥٦ — ١٨٨٥

ويغلب فيها النفس الخطابي الذي عُرف به من اتزان في العبارة وحرارة في العاطفة ومتانة في الحجة مع إباء في النفس وغيرة على الكرامة الشرقية . واقوال اديب اسحق مجموعة في كتاب الدرر واكثرها تشهد ببلاغته وحسن بيانه . ومع انه مات ولم يبلغ الثلاثين فقد كانت له يد في ترقية الانشاء الصحفي والخطابة القومية في عهده

***

شُعلةٌ سرَت من الحجاز فأنارت الشام والعراقَين ومصر والمغرب والهند ، واتّصلت باطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس . ثم هبّت عليها عاصفةُ الفتنة ونكباء المحنة ، فلم يبقَ من ذلك النور غيرُ شفق التصوُّر ، في أُفق التذكُّر : — بل آيةٌ رسمتها يدُ القدرة في كتاب الايام ، فتلتها السنُ العزيمةِ على محفل الإقدام ، فدفعتْ جاهليّةَ العرَب الى الغارة على مَن اترفتهم النعمة من متمدّنة الارض . فسارتْ اسودُ رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطعُ الفدافد ، حتى نطحت برَوْقي[1] عزمها شُرُفات الايوان ونسرَت من الشرق نسرَ الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها ، وضربت في الاندلس خيامها . فلما عظمتْ دولتها واتسعتْ ثروتها تناوحت فيها رياحُ الخرافات فاطفأت نور علمها فصارَ ضياؤها ظلاماً ، وانغمستْ بماء النعيم فخمدت نارُ عرفها ولكن لم تكن برداً وسلاماً : — فمن رأى العرب مئات من الرجال يفتحون مِصر الفراعنة وملك القياصرة وبلادَ القساطلة[2] وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم اذ يراهم

---

(١) الروق القرن والايوان اي قصر كسرى. (٢) في اسبانيا

الوف الوف يقادون بخيطٍ مما نسجت العنكبوت . ومن سمعهم يقولون لاميرهم ان رأينا فيك عوجاً قوّمناه بحدّ السيوف يعجب من رضاهم بفسادِ الاحكام ، وصبرهم على التواء الحكّام . ومَنْ وقفَ على شروح ابن رشد ، ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبير ، وتقارير الغزّالي ، وسمع المعرّي ينشد

رويدكَ قد غررتَ وانتَ غرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظُ النساء
يحرّمُ فيكمُ الصهبا صباحاً ويشربها على عمدٍ مساء
يقولُ لكم غدوت بلا كساء وفي لذّاتها رهنَ الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهةٍ اساء

يندهش اذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما لا يجلب خيراً ولا يدفع ضيراً ، يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام او باضغاث الاحلام ، او ينيطون اسبابها بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيثُ لا يعلمون

ولكن لا خوفَ يا قوم ولا بأس : وكيف تخافونَ ومنكمُ القائل « لا يُبعدُ من رزقٍ ولا يقرّب من أجل ان يقولَ المرء حقاً » . وكيف تيأسون وتاريخ ابائكم يقرّب الآمال .. الستم في الارض التي أقلتهم ، وتحت السماء التي اظلّتهم ؟ أوَ ليس ماؤكم هو الذي وردوه ، وهواؤكم هوَ الذي انتشقوه ؟ فما بالكم تعجزون عمّا استطاعوه ؟ أشاخت الارضُ فصار ما تنبتُ ضئيلاً ، لا يستطيعُ الى النموّ سبيلاً ! ... والاّ فما للحجاز محجوزَ الانوار ، وما للشام مشؤوم الاحوال ، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العزّ بالفراق ، وما لحلب متوالية النُّوَب ، وما لليمَن فاقد اليُمن ، وما لتونس عديمة الأُنس ، وما للغرب منهمل الغَرب[1] !

ألم يكن في كل هذه الاقطار نفرٌ من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحميّة ، على جمع الكلمة العربيّة ، فيتلافون احوالها قبل التّلف متظاهرين متوازرين كالبناء المرصوص او كصخورٍ تلاحمت فصار ركامها جبلاً حصيناً لا تؤثر فيه العواصف ، ولا تضعضعه الزلازل

بل ما ضرَّ زعماء هذه الأمّة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكانٍ يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون باصواتٍ متّفقة المقاصد كأنها من فمٍ واحد :

---

(١) الغرب الاولى مراكش والثانية مسيل الدمع

قد جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة ، وهبّت الحاصبة، تليها العاصفة ، فذرَت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ! والمّت بنا القارعة ، ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نُغن بالامس ولم نكن شيئاً مذكوراً . فهلمَّ نَنشد الضالّة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم في ذلك بامر فئةٍ دون فئةٍ ، ولا نتعصَّب لمذهبٍ دون مذهب . فنحنُ في الوطن اخوانٌ تجمعنا جامعة اللسان ؛ فكلُّنا وان تعدَّدت الافراد انسان :

أيحسبون انَّ ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى ! ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع متزّهاً عن المقاصد الدينيَّة ، منحصراً في العصبة الجنسيَّة والوطنيَّة، مؤلفاً من اكثر النحل العربيَّة يزلزل الدنيا اضطراباً، ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالّة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون

خطبة لمصطفى كامل

١٨٧٤ — ١٩٠٨

مصطفى كامل مؤسس النهضة الوطنية في مصر وزعيم الحركة الاستقلالية فيها وهو مشهور بالجرأة في المطالبة بحقوق الامة والمقدرة الخطابية في اثارة الشعور العام . ولم يعش الا ٣٤ ربيعاً ولكنه جاهد فيها جهاد الابطال وقد دوّنت مساعيه واقواله في بضعة مؤلفات اهمّها كتاب « مصطفى كامل في ٣٤ ربيعاً » ومنه ننقل بعضاً من هذه الخطبة التي القاها في الاسكندرية سنة ١٨٩٦

***

ليس من غرضي ان أطعن على الحكومة المحليّة او انتقد اعمالها ، فكلكم تعرفون مثلي مواضع الخلل في الادارة ومواضع الكمال والانتظام ، وبديهيٌ ان نواميس الوجود قاضية بسوء ادارة كلّ مصلحة وطنية يتداخل في شؤونها تداخلاً فعلياً رجالٌ غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئاً من عوائد اهلها واخلاقهم

وليس غرضي كذلك ان أندّد بحكومة جلالة الملكة او بالامة الانكليزية ، لاني اترفّع عن ان ادافع عن بلادي بالطعن والسباب ، فضلاً عمّا احسّ به دائماً من وجوب احترام الشعب الانكليزي، وانما الذي اريد ذكره وايضاحه هو ان الخلاف حقيقةً ، الخلاف بيننا معشرَ المصريين وبين بعض الانكليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر حان او لم يحن ؟ فدول اوروبا ذوات المصالح في مصر تقول معنا ان زمن الجلاء قد حان منذ اعوام، والمستر غلادستون زعيم الاحرار واكبر سياسي انكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوماً او تعنيفاً ، وبعض ابناء التاميز[1] يقولون ضدّ ذلك إنّ زمن الجلاء لم يحنْ وان مصر في

(١) نهر التامس في لندن

حاجة الى وصيّ عليها

وقد نرى بعض المتحزّبين للاحتلال الابدي - وهم ليسوا من الانكليز ، والانكليز لا يستطيعون ان يكونوا على رأيهم - يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم ، فهل يستطيعون اليوم ان يقولوا عن المستر غلادستون انه عـدو لبلاده كما يتّهموننا بنكران الجميل ؟

وبعيد عن ذهني انه يوجد على الارض رجل انكليزي يحبّ وطنه حباً حقيقياً ويستطيع القول بان انكلترا تريد وضع يدها عـلى وادي النيل ، فان ذلك الامر بل هذا الجُرم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة انكلترا نفسها ولشرفها العالي الشان

اذا قلنا للامة الانكليزيّة وعرّفناها اننا لا نُبغض الانكليزيَّ بل نبغض المحتلَّ من حيث هو محتلٌ ولو كان اقرب الناس الينا ، لاننا أُمّة حيّة متمدنة نريد ان نحكم انفسنا بانفسنا ولا نرضى أن نبقى قُصَّراً تحت حكم وصيّ ننظر الى تقدُّم الامم الاخرى نظرة الكئيب التعيس دون ان نستطيع محاكاتها ومجاراتها - اذا قلنا لها ذلك واسمعناها هذا الصوت صوت الحق كانت ولا ريب اوّل أُمّة قاضية على الاحتلال آمرة حكومتها بالاسراع بالجلاء ، لان من شأن كل امة متمدنة تمدناً عظيماً كالامة الانكليزية ان تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها

ولا ريبَ عندي في انكم كلّكم تودُّون مثلي ان تكون مصر بلاداً حرّةً منتشرة في سائر ارجائها من الاسكندرية الى منابع النيل انوارُ العلوم والعـارف ، وتُصبح كما كانت مهداً للفضائل والآداب ، مَشرقاً لشمس المدنية في كل بلاد الشرق ، مرسحاً للتنافس في الصناعة والتجارة ، مجمعاً آمناً للاجانب ذوي المصالح فيها، طريقاً سهلاً للرائدين. لا ريب عندي في انكم كلكم تحبون ان تنتسبوا لمصر اذ يكون هذا شأنها ، يفتخر عندئذٍ كلٌّ منكم ان ينادي باعلى صوته انا مصري !

ولكن ألا تحبُّون كذلك « مصرا » خيَّم عليهـا الشقاء وحلَّ بها البلاء وسبقتها الامم واصبحت تُعدُّ في مصافِّ الشعوب القاصرة ! تناديكم وانتم حولها « الا فانصروني يا اعزّ البنين ، الا فارفعوا شأني بين الامم واجعلوا لي مكاناً فسيحاً بين الشعوب المتقدمة الحية » أجل ! أجل ! تحبونها ويجب عليكم أن تحبُّوها، وتحنُوا عليها كما يحنُّ المرء على أمه الشفوقة اذا اعتلّت ويسعى في خدمتها ويبحث عن دوائها

ولا يكن حبكم واقفاً عند حد الحب وحنانكم عند حد الحنان بل ليتجاوزا ذلك الى العمل لخيرها واعلاء شأنها

وثقوا ايها الوطنيون الاعزاء بان المستقبل لكم ولها فاعملوا لسعادته وتذكروا دائماً قول غمبتا الشهير « ليس المستقبل بمستعص على احد » . نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج انفسنا من نوع الانسان ، ذلك الناموس القاضي على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس في السكينة والظلام

ولقد كنت احضر في اوروبا مجتمعات يتردد عليها كثيرون من الغربيين ذوي الجنسيات المختلفة . فكان كلٌّ يفاخر القوم ببلاده وذويه ، الامريكاني بحرية اوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها ، والفرنساوي بشهامة ابناء وطنه وفضل جنسه على النوع الانساني وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم ، والالماني والانكليزي وغيرهم كذلك ، وانا انظر الجمع واسمع الجميع وقلبي فائض حزناً وفؤادي ممتلئ كآبة وعيناي مغرورقتان بالدموع ، وليس يجري على لساني غير ذكر مصائب مصر وآلامها . فهل لنا ان نفاخر الامم يوماً من الايام ببلادنا واوطاننا؟ هل لنا ان نكون أمة حية قوية محترمة؟

اني اؤمل ذلك ، واؤمله من صميم فؤادي !

ومستحيل علينا ان نصل الى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية الا اذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات . فلنتحد قلباً ولساناً ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار في دارها وافرادها متباغضون فبدلاً من ان يجتمعوا لاطفائها اخذوا يتنازعون ما ابقته يد النار من المتاع ، غير ناظرين الى ان النار تصل اليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضي على دارهم القضاء الاخير اذا لم تزل آثار الشقاق من بينهم ويجتمعوا على اطفائها

وانَّ يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال ، ويحق لنا فيه ان نقف امام الامم كافة وننادي باعلى صوتنا وبكل فخار : نحن بنو مصر الاحرار !

القلب البشري

من خطبة

للدكتور نقولا فياض

وهو في مقدّمة خطباء العصر ويمتاز بجمال التصوير وحسن التحليل · ومع انه يطرق شتّى الموضوعات الادبية والاجتماعية فانك تشعر في جميعها بجلابة خاصّة. ولعلَّ ذلك لانه يجمع باسلوب رشيق بين خيـال الشاعر وتفكير الباحث . وتجد خطبه في مجموعته « على المنبر » وفي كثير من الصحف · وهذه الخطبة من افضل النماذج على اسلوبه

قال بعد مقدّمة –

***

لا ارغب ايها السادة ان اصف لكم امراض هذا القلب الكثيرة ولا احبُّ ان امثِّل لكم صوره المجزأة فاريكم جوفه الصغير مقطَّعاً تقطيعاً يقطر دماءه حمراً ثم يبلعها نجيعاً · انما نحن في ليلة انس. لا ليلة درس ، والذي انا محدّثكم به قلبٌ احمر معنويّ تبطّنه هذا القلب المادي – قلب آخر لا دخل للهيُولى فيه، ولا تسلُّط المادة عليه · فلا تسألوا الاطباء والمشرّحين الذين لا ينظرون الا بعين الرأس ولا يؤمنون الا باللمس · سلوا الشعراء والمحبّين ينبئوكم الخبر اليقين· انه عودٌ لا كاعواد الطرب ، اوتاره رقيقة حسّاسة يحركها شيء ارقُّ من الماء ، واخفُّ من الهواء · اوتارٌ لا تحتاج الى غير دمعة او تذكار لتخرج انغاماً شجيَّة وآياتٍ عبقريَّة

هذا هو ايها الناس رفيقكم الدائم الذي يتأثر عنكم ولكم · هذا هو ايتها المرأة مهبط نبوّاتك ومصدر تحذيراتك . ويا ايها الشعراء والخطباء هذا هو المنبر المحجوب الذي

قنصت لدى صوته الخفي كلُّ اصوات العالم . هذا هو الضعف وهذا هو القوة . هذا الذي يقصد اليه الشاعر بقوله :

انا ما بين عدوَّين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلبُ والمقصود حَتفي

ايها السادة

كثيراً ما وقفتُ امام البحر العجّاج اسبر غوره العميق واراقب امواجه المتلاطمة تقترب على مهل ؟ ثم تسرع فتعلو فتتعاظم حتى تصل الى الشاطئ. فتضرب الصخر ويتطاير منها الزبد. فكان منظر المياه الزرقاء وما وراءها من عميق الاسرار يبعث فيَّ الدهش والشجون ويفتح للفكر باب التأمل . ولكن اين هذا مما كنت اشعر به عندما اقف امام ذلك الاوقيانوس الآخر العجيب الذي يقال له القلب اراقب عواطفه المضطربة كالموج خاضعةً مثله لعواصف الاهواء . . .

عواطف الانسان المختلفة وقفتْ به في هذا الوجود بين الرغد والشقاء والموت والبقاء محنية الى الارض رأسه الكسير ، رافعة الى السماء بصره الحسير . جندٌ منظم يحارب العالم به العالم . اهواء مضطربة وزوابعُ ورعود وامطار وثلوج بينها ليالي صحو ونجوم يجمعها في الانسان نقطة مجهولة ، سمِّها ما شئت روحاً او نفساً او قلباً. كرةٌ اشبه بالارض تسكنها هذه العناصرُ والقوى على اختلافٍ في الدرجات بين شدَّة ورخاء ، وصلابة ولين ، وحرارة وبرود ، وكدر وصفاء حتى تصل الى قطبيها فتنحصر تلك القوى في قوَّتين ، او العناصر في عنصرين : الحبّ من جانب والبغض من جانب . حلّ الحبّ كما تحلّل النور تظهر لك الوانه المتعاقبة من سرور ورجاء وشجاعة واقدام ونخوة واباء وصداقة واخاء وشفقة وحنان وما الى ذلك . وحلّل البغض تظهر لك الوانه الرائعة من خوف وحسد وزور وارتكاب وحقد وكذب وما يقارب هذه الصفات

الحبُّ والبغض اليهما مرجع كل عاطفة او بالاحرى الى واحد منهما لان الحب مقلوب البغض ، ومن يعرف ان يبغض يعرف ان يحب

احب ! هذه هي الكلمة التي تلفظها الطبيعة باسرها كما قال شاعر الفرنسيس ، للريح فتحملها على اجنحتها وللعصفور فيصفّق لها باجنحته

هذا هو التنهد الاخير الذي يخرج من احشاء الارض عندما تخيّم عليها الظلمة الابدية
هذه هي الكلمة التي تردّدها اجرام السماء في افلاكها ولآلىء البحار في اسلاكها
ناموس عام تجري عليه حركة هذا الكون الفسيح ، عالم المادة وعالم الروح ، كلُّ ما في الارض وكل ما في السماء خاضع لهذه الشريعة

* * *

(وبعد ان يمرّ على انواع الحب المختلفة مرّ الفراشة على انواع الزهور يقف بنا لدى الموضوع الرئيسي – الحب الحقيقي حب الرجل للمرأة فيصف جلاله وتأثيره في حياة البشر) ثم يقول –

وُجد الانسان ووجدت معه المرأة صورة الحبّ ، المرأةُ ذلك المخلوقُ اللطيف ، القويُّ الضعيف ، فوق الرجل ودونه ، كالسماء التي تحيط به ، ذليلةٌ تشعر بثقل اليد التي وضعتها عليها الطبيعة ، عزيزة بقوة العواطف والاحساس . تارةً تتحكّم فيه كملك وطوراً يقودها كما تقاد العبيد . حيناً يبيعها بقبضة من المال او قطيع من الغنم ، وآونة يقدّم نفسه فدى لها . وقد حيّره حبّها فلم يدرِ بما يلقّبها ، فكان مرّةً يراها كالغصن ومرّةً كحمامة الغصن ، وهنا يشبّهها بالظبي في الوادي ، وهناك بفرس في مركبة فرعون ، ونظم فيها الاشعار وألّف عنها الحكايات وحلّى بها الصور . وعلى هذا الوجه كانت ولم تزل مرآة امانيه وصورة آماله ، وكثيراً ما تمشّي في ظلمات الحياة يتلفّت نحو السماء فلا يرى كوكبه فيلتفت نحو المرأة . وهي التي هذبت اخلاقه وروّضت طباعه وانارت لبّه وشحذت غرار قريحته وكم خفّفت عنه وطأة المصائب بفضل حبّها

ايها السادة

اذا كان الحبّ لذّة البعض فهو حاجة الكل ، فعليه ان يكون شريفاً ليكون مباركاً . يجب ان نمثّله للعين باجمل صورة لتكتسي به النفس اجمل حلة . يجب ان نعرف انه اذا كان الجمال فضيلة البدن فالفضيلة جمال النفس

يجب ان تعرف ايها الشاب عند خفوق فؤادك لاول مرة ، عندما تتجلى لك الالهة في ابتسامة ، وتبصر من خلال الدموع كواكب السماء ، عندما تتصاعد زفراتك ، وتتمثل صورة الحبيب في ذاكرتك كحلم تشفق عليه ان يزول ، يجب ان تعرف ان ذلك المخلوق

الذي يقودك في حياة جديدة ، ليس العوبة تُطرح بعد ساعة او تُكسر ، ولا آلة للتسلية فقط ، بل هو الحب كما اراده الله ، والتعزية كما تطلبها النفس . بل هو المستقبل ماثل امامك بلا حجاب ، يشجعك على المعيشة ويقول لك : سِرْ ولا تخفْ . يجب ان تعرف ان المرأة أمّ لنا تعطينا الحياة اولاً وثانياً – حينما تفتح عينيك للنور ، وحين تفتح قلبك للحب . واذا لم تجد فيها احياناً الرفيق الذي تحلم به ، فالذنب عليك لاستخفافك بعواطفها وجهلك اياها . فالمرأة كما قال بلزاك : آلة موسيقى لا تطرب الا من يعرف ان يوقّع عليها

ايها السادة

هذا هو بعض ما اردت ان احدّثكم به عن الحب الذي ملأ عالم الخيال باجمل الحكايات ، وعالم الحقيقة باعظم الوقائع ، فرفض من اجله عواس الخلود وحبّب لعنترة تقبيل السيوف . الحب موحي شكسبير وبيرون ولامارتين وموسه . هذا الذي قال عنه الفارضي : هو الحب فاسلم ، الذي تقرأ اسمه على ابواب الجحيم التي وصفها شاعر التليان

والحبُّ اول ما يكون مَجانة فاذا تمكّن صار شغلاً شاغلا

هذا هو البخار الذي كلما ضغطت عليه قوي واشتد ، هذه هي الحمّى التي اعراضها الحرارة والبرد ، هذا الذي فاز بما لم يفز به الآلهة فاقيم له معبد في كل فؤاد ، وذبح على محرابه كل العباد . هذه هي الهاوية التي تنظر في اعماقها السماء . هذا هو الالف والياء .

ما يكون تاج المرأة في المستقبل ، وكيف تحكم في الشعوب الآتية ؟ هل تحمل الصولجان والسيف ؟ هل تمدُّ الى الصناعة يديها النحيفتين ؟ هل تنازع الرجل سلطة القوة ؟ كلا ولكنها ستحكم كما عوّدته حتى اليوم بحنان الأمّ وصداقة الاخت وامانة الزوجة. بما تلهمه من القوة ساعة الضعف وتعطيه من اللين في حال الشدة . ستحكم بدمعة من عينيها وابتسامة من شفتيها ، سترافقه في قفر الحياة ، وتكون له كعصا موسى لتضرب على صخرة قلبه وتفجر منها المياه . ستقيم له من الحب هيكلاً يعبدها فيه ، وفي هذا الهيكل يضحّيها احياناً

فيا قلب الانسان ، ما اعجب اسرارك واغرب اطوارك ! ولكن مهما تقلّبت عليك احوال ومهما اظلم جوُّك ، وعصفت فيك الزوابع ففي احدى زواياك شعاع دائم الاشراق ، وبه رسمت هذه الكلمات : الحب هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال ، والجمال هو الله

فلنحب ابداً ايها السادة ، لانه مع كل ما اخترعه البشر لم يقدروا حتى اليوم ان يجدوا شيئاً اقدر على التعزية وابهج للقلب من الحب

روح المدنية[1]

روح المدنيَّة ! وهل للمدنية روح ؟ هوذا اصوات المتهكِّمين تتعالى من كل مكان. هل في المدنيَّة اليومَ غيرُ المظالم والاهوال واسباب الشر والدَّمار ؟ قويٌّ يستبدُّ بضعيف، وأُمَّة تعتدي على أُمَّة، وعِلم يخدم السيف والدينار، ومظلوم يطالب بحقّه فلا يجاب بغير النار ! أجل وراء كل ذلك روح فعَّالة تدفع البشر الى الامـام . روح تتمثَّل في يقظة الشعوب وتلمّسها طريق الحياة، وهي التي يخدمها كل خادم حقيقي للعلم ويدافع عنها كل متحمس لمبدأ عظيم . ولها في حياة البشر برغم فسادهم الطبيعي وغرائزهم الحيوانية مظاهر شريفة اكتفي الآن بثلاثة منها :

انها ابدًا تطلب الحقيقة : فلا يقرُّ لها قرار ما لم ترَ السبل حرَّة في وجه المفكِّرين المخلصين والعمَّال الامناء . وكلُّ حركة تمنع ذلك هي عدوَّة لروح المدنيَّة . قام في القرن السادس عشر للميلاد فلكيٌّ ايطالي دفعته ابحاثه الى المجـاهرة باقوال مناقضة للمعتقدات السائدة، فقامت عليه القيامة وتهدَّده أُولو الامر بالقتل واضطرُّوه أن ينكر ما قال وأن يشهد على ملأ من الناس ببطلان آرائه . ذلك لان حب الحقيقة لم يكن قد نضج بعد في ذلك العصر فكان ابناؤه عبيداً لاوهام وقفت حائلاً بينهم وبين النور . وهكذا جثـا غاليلو لاستبداد عصره، وأُذيق العذاب لاجل معتقده . بل هكذا عُذِّب لاجل الحقيقة كثيرٌ من الابطال وأُحرق على مذبح الجهل كثير من الحقائق . وإنمـا يُضطهد المخالفون للمعتقدات السائدة، او الواقفون في وجه القوى الجـائرة اذا كانت روح المدنية التي هي طلبُ الحقيقة ضعيفةً في قلوب الجمهور فلا يكترثون لها ولا يبالون بمظاهرة اربابها في العلم – في الدين – في السياسة . هذه الروح تطلب الحقيقة . هي تكرمهـا

(١) من خطبة القيت في احدى الحفلات الكبرى وقد اخترناها من كتاب « احسن ما كتبت » الذي حمته ادارة الهلال وقدَّمته الى قرائها

في مذهب التشوء، كما تكرمها في تعاليم الكنيسة . تنشدها في الكليات والجامعات كما ننشدها بين الازقة والساحات

روح المدنية : تخدم العلم الصحيح المبني على المعرفة والروية والاختبار

العلم الذي يهذب الفكر ويوسع الصدر ويخضع للبرهان

العلم الذي لا يعرف وطناً غير الوجود ولا يتعصب لجنسية غير الحقيقة

هذه الروح تحترم النظام وتؤثر المبادىء على الاشخاص : الناس في ادوار انحطاطهم عبيدٌ لفردٍ او لافراد ، هم عندهم الكلُّ في الكل . فلا يعرفون نظاماً الا متى أُجبروا عليه ولا يقدّسون مبدأً الا اذا كانت وراءه قوة تناصره . فاذا ارتقوا وتنظمت حياتهم الاجتماعية تضاءلت لديهم قوة الشخص امام قوة النظام وجعلوا هدفهم في الحياة خدمة المبادىء . قيل ان غلادستون وقف مرة امام الملكة فكتوريا العظيمة وطلب منها ان توقّع نظاماً اقرّه المجلس الانكليزي ولم تكن الملكة تريده ، فأبت وقالت : لا اوقّعه . فاجاب غلادستون : إنَّ المجلس يا مولاتي قد اقرَّه فيجب ان توقّعيه . فالتفتت اليه مُغضبةً وقالت : مستر غلادستون انا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند وتقول لي يجب؟ قال : نعم . انا شعب انكلترا . فكأنه يقول انا خادم لنظام هو اعظم من الملوك والسلاطين

قام الامبراطور الروماني كالغيولا وصدمته هزّة دماغيّة ذهبت بانتظام قواه العقلية فعبث بالأمّة وهتك حُرمتها ودنّس باعماله رومة وشرفها . ومع ذلك جثا له خاصّته وهم المبغضون ، وعبدته رعيّته وهم المستضعَفون . وقد بلغ به الغرور ان جعل حصانه قنصلاً (عضواً في المجلس الاعلى) فصفّق له الناس استحساناً اذ لم يكن فيهم يومئذٍ جبابرةُ نفوس يحترمون المبادىء السامية ويؤثرونها على الاشخاص . وقام قديماً عتاة الامم فسخّروا الناس لغرورهم ، وغواةُ الحروب والتدمير فساقوا الالوف لاطماعهم . قام فيهم نيرونهم وفرعونهم وتيمورهم واضرابهم ، ومع ذلك اقام لهم اهل عصرهم اقواسَ النصر ومدّوا لهم اعناق الذلِّ ورفعوهم الى مصافّ الآلهة . ولماذا ؟ لان روح المدنية لم تكن قد خمّرت النفوس فكانت القوة المستبدّةُ عندهم كلَّ شيء . وكأني اسمع هامساً يقول . هي عبادة الابطال التي ذكرها كارليل في كتابه واهاب بالناس الى تعظيمها والاعتصام بها ! كلّا ليست عبادة الابطال ايثارَ الشخص على المبدأ وإخضاع الحق للقوة المادية ، بل هي

تكريم المبادىء العليا مجسّمةً في شخصيّة عظيمة . فليُكرم القائد العظيم الذي يقوم ابان العواصف فيخلص بلاده من الخراب ، وليكرم العصاميُّ الذي يجمع الثروة بجدّه واقدامه فيستخدمها للخير العام . وليكرم خادم العلم المجاهد لينير الاذهان ويخضع قوى الطبيعة للانسان . بل ليكرم كل خادم — نعم كلُّ خادم للمثل الاعلى في الحياة

روح المدنية تدعو الى التعاون وحسن التفاهم : فهي تدكُّ الحواجز التي يقيمها الجهل او حبُّ الاثرة بين الاجناس والطوائف : وتحدو الناس الى التعاون والتفاهم بدل التشاكس والتنافر . كانت الكلمة في اول مراحل الاجتماع للعصبيّة اي لتلك الرابطة الدموية التي تربط ابناء العشيرة بعضهم ببعض فيتّحدون بها على الغريب . وهذا ما عبَّر عنه ابن خلدون بالعمران البدوي . ثم تقدَّم البشر فاجتمعت العصبيات وتكوَّنت منها الرابطة الجنسيَّة او الدينية . لكنَّ الجنس لم يبقَ في بلدٍ ما صرفاً فامتزج بعناصر اخرى وتكوَّن من هذا رابطة الوطن . ولو راجعنا التاريخ لوجدنا ان حبَّ المصلحة الشخصية وطمع الطامعين طالما جعلا العصبيات والاجناس والاديان اعداء الداء فتصادموا وتفانوا . وما موجات الحروب الجنسية والدينية في الشرق والغرب من اقدم ازمانها الى الآن الا تجاذبٌ لبساط السيادة وسعيٌ في زيادة المال والحطام . ولما كانت بلادنا بسبب موقعها الجغرافي ملتقى الشعوب الكبيرة ومصطدم المشارب والمذاهب ، اصبحت تربتنا صالحة لبذور التعصُّب والشقاق . وطالما ذقنا منها انواع الشقاء والبلاء

واذا ذكرتُ بلادنا الشرقية فليس الأ اننا كابنائها يهمّنا كل ما يؤول الى فلاحها وارتقائها . والا فالمدنية الحقيقية العاملة على تحويل الافكار الى المصلحة العامة والى اهتمام الفرد باحوال المجتمع — الى ارتباط العناصر المتباينة والشعوب المتعادية برباط الشعور الانساني ، قد نفخت روحها في جميع البلدان وفي جميع الامم الراقية ، وهذه الروح هي التي نعبر عنها بالاريحية الانسانية او « روح الخدمة العمومية »

ومتى قويت فينا هذه الروح التي تُعنَى بالمصلحة العامة وتقدّس المسئولية المشتركة ظهر فينا الشركات الوطنية القوية والجمعيات العمومية المنظَّمة وانبسطت اكفّ اغنيائنا في سبيل المشروعات الوطنية ، واتحدت الطوائف على اختلاف نزعاتها تحت علم واحد هو علم الوطنية الراقية

ايها السادة

كما ان للانسان شخصيةً او روحاً هي غير جسده هكذا للمدنية التي نراها ، مجرى داخلي هو روحها الحقيقية

وهذه الروح هي التي يخدمها العلم الصحيح والدين الصحيح . واذا تطيَّر البعض منا لما في البشر من ميل الى الظلم والمكر والشراسة فليطمئنوا انَّ في البشر ايضاً في كل جيل ولا سيما في هذا الجيل افراداً يضحّون بمصالحهم لاجل المبدأ والحقيقة والخير العام . هؤلاء هم اقطاب الدنيا الذين عليهم يتوقَّف العمران . وبروحهم تسير الانسانية الى الامام

النثر التصنيفي

وهو الغالب في المصنّفات التي يراد بها البحث عن الحقائق او بسط المعلومات. ويدخل في ذلك العلوم الطبيعيّة والاجتماعية والدراسات الفكرية والادبيّة

فالعلوم . يُتوخّى فيها بساطة التأدية وتسهيل السبيل الى الحقائق المنشودة ، ولذلك يتجنّب اصحابها التأنق الفني فيستخدمون عادة الالفاظ الواضحة المحدّدة المعنى والعبارات السهلة التركيب البعيدة عن التشويش والابهام

ولا ينكر ان العبارة العلمية لا تخلو احياناً من التبسّط والشرح ، على انها في الوقت نفسه لا تحتمل الحشو او فضول الكلام . واذا كانت بلاغة الترسّل قائمة كما يقول الجرجاني على حسن التركيب وحسن التخييل – اي على ما في الكلام من ضروب الايجاز والايماء والمجاز وما يقتضيه من روعة التقديم والتأخير والفصل والوصل وما الى ذلك من اسباب البلاغة ، فان بلاغة الاسلوب العلمي قائمة على التعبير عن الفكرة في ابسط الطرق واكثرها وضوحاً . والى ذلك يشير مؤلف كتاب « علم المالية » اذ يقول في مقدمته[1] « ربما يجد المتشدّدون في اللغة بعض الاصطلاحات المولّدة والمحدثة وينكرونها عليّ فاعتذر اليهم بانّي قد تحرّيت الاوضاع المألوفة للدلالة على المعنى المراد كي لا تضيع الفائدة العلمية المقصودة على بعض قرّاء الكتب الذين ليسوا من الراسخين في صناعة الالفاظ . وما عدا ذلك فنرجو منهم ان يغتفروا في الكتب العلمية ما لا يغتفرونه في كتب اللغة »

ومن البيّن ان مراتب الكتابة العلمية تتفاوت بتفاوت موضوعاتها واصحابها ، ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا جعلنا المرحوم العلّامة يعقوب صروف منشئ المقتطف في المرتبة الاولى فقد جمع في عبارته بين المتانة والطلاوة وحسن اختيار اللفظ المناسب فهو بحق شيخ الكتّاب العلميين في النهضة الحديثة

(١) الاستاذ فارس بك الخوري

اما الدراسات الفكرية والادبية . فهي وان تُوخّي فيها عرض الحقيقة او السعي اليها ، لا تخرج عن كونها من المجرّدات التي قلّما يتم انفصالها عن شخصيات اربابها . على ان ذلك الاتصال ليس عن طريق الانفعال النفسي كما هي الحال في الشعر وما اليه ، بل عن طريق التفكير الحرّ ، ولذلك كان طبيعياً ان يظهر بعض هذه الدراسات في حلّة من روعة البيان وان يدخل منطقة الفن الادبي . وطبيعي ايضاً ان يكون ذلك اظهر في المنطقة الادبية منها في الفلسفية اذ كانت هذه اكثر اعتماداً على القياسات المنطقية والتدقيق في بسط الادلّة العقلية

وغنيٌّ عن التبيان ان اساليب البحث الادبي متفاوتة . فمنها الوادع الجاري مجرى العلم من حيث هدوء التفكير ووضوح التركيب ، ومنها الجيّاش بالعواطف المشبع بايمان صاحبه ورسالته حتى ليجري في ذلك مجرى الترسّل . فكتاب الوساطة للجرجاني مثلاً هو مصنّف نقدي لكنه ايضاً ادب رائع تنعكس عنه شخصية الكاتب وخوالج نفسه . وكذلك قل في كثير من مصنفات القدماء الادبية كالموازنة للآمدي والمنقذ من الضلال للغزالي وبعض المقدّمة لابن خلدون وسواها . ولا يخرج التصنيف الادبي الحديث عن هذه القاعدة

فالكتب التالية — في الادب الجاهلي (١) — محمد (٢) — ابن الرومي (٣) — ملوك العرب (٤) — جبران (٥) — عمر بن ابي ربيعة (٦) وامثالها يمتزج فيها البحث في الفنّ امتزاجاً يصعب معه فصلها . والفرق واضح بين اسلوبها واسلوب « النقش في الحجر » لفانديك او « بسائط علم الفلك » لصرّوف او « علم المالية » لفارس الخوري او « تاريخ الوزارات » للحسني . وبكلمة وجيزة ان الاسلوب التصنيفي قد يكون علمياً بحتاً وله بلاغته الخاصّة وقد يكون ادبياً ، وهذا قد يكون مراتب تتدرّج في البعد عن بساطة التعبير العلمي حتى يمكن عدّها في باب الترسّل الفني

ولما كان التمثيل على الاسلوب التصنيفي يستدعي الرجوع الى المصنّفات المختلفة نفسها من علمية وادبية فاننا نحيل القارىء رأساً الى ما بين يديه من هذه المصنّفات مكتفين بالاشارة اليها دون تقييده بامثلة قليلة منها

---

(١) لطه حسين (٢) لحسين هيكل (٣) لعباس العقاد
(٤) لامين الريحاني (٥) لميخايل نعيمه (٦) لجبرايل جبور

المختارات الشعرية

وهي تقع في الابواب التالية

تمجيد البطولة ومكارم الاخلاق – المراثي – الفخر وشكوى الزمان

– الغزل – الوصف – الخوالج الوطنية –

التأمل والحكم – الشعر القصصي

باب

تمجيد البطولة ومكارم الاخلاق

ويدخل فيه مدائح العظماء والاشادة بمناقبهم ووقائعهم . واكثر المعاني التي يحوم حولها الشعراء في هذا الباب هي الكرم والشجاعة وشرف النفس وحسن الجهاد والطموح الى المعالي . وكانت العادة ان تفتتح القصيدة بمقدّمة (في الغالب غزلية) وان يتخللها شيء من الوصف او الحكم . وقد كادت قصائد المديح قديماً تنحصر في التزلّف الى الملوك والعظماء . اما اليوم فقد فتح للمديح ابواب جديدة منها تكريم النوابغ ووصف المآتي العظيمة وذكرى ابطال الامة او رجال التاريخ . وقلما تجد اليوم شاعراً حقيقياً يتخذ المدح مهنة للارتزاق او يصطنعه تزلّفاً الى سيّد من الاسياد!

ومن عيوب المديح كما يقول ابو هلال العسكري[1] العدول عن الفضائل التي تختص بالنفس — كالعقل والعفة والعدل والشجاعة — الى ما يليق باوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة

وعكس المديح الهجاء . والمختار منه ما يثبت المهجوّ الصفات النفسية المستهجنة كاللؤم والبخل والجبن والشره . وليس المختار ان ينسب اليه العاهات الجسدية كقبح الوجه وصغر الحجم وسواد اللون وما الى ذلك

ويتجه الهجاء اليوم الى التهكم الاصلاحي او ذم العادات السيئة ونقد المعائب الاجتماعية . والتهكم فنّ ادبيّ رائع اذا حسن استعماله . وكذلك المديح اذا توخّي فيه ما يرفع النفس ويظهر عن ايمان جمال البطولة في الفرد او الجماعة

---

(١) الصناعتين (الاستانة) ٧٣

قصيدة الفرزدق

في الامام علي بن الحسين

وقد اختلف الرواة في سبب نظمها وعدد ابياتها [١] . وها نحن نثبت منهـا اهمّ ما رأيناه في مختلف الروايات . ويذكر كتاب الاغاني في سبب انشادها الخبر التالي – حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة اخيه الوليد ومعه رؤساء اهل الشام فجهد ان يستلم الحجر الاسود فلم يقدر من ازدحام الناس . فنُصب له منبر فجلس ينظر الى الناس. واقبل علي ابن الحسين وهو احسن الناس وجهاً وانظفهم ثوباً واطيبهم رائحة فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر الاسود تنحّى الناس كلهم واخلوا له الحجر ليستلمه – هيبة واجلالاً له – فغـاظ ذلك هشاماً وبلغ منه . فقال رجل لهشام من هذا اصلح الله الامير قال لا اعرفه ، وكان به عارفاً ولكنه خاف ان يرغب فيه اهل الشام ويسمعوا منه . فقال الفرزدق وكان لذلك كلّه حاضراً انا اعرفه فسلني يا شامي – قال ومن هو . قال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتهُ ... والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عباد الله كلّهمِ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ
اذا رأتهُ قريشٌ قال قائلهـا ... الى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
يكاد يمسكهُ عِرفانَ راحتهِ ... ركنُ الحطيم اذا ما جاء يستلِمُ [٢]
فليس قولك مَن هذا بضائرهِ ... العُرب تعرف ما انكرت والعجمُ
ايّ الخلائق ليست في رقابهمِ ... لاوّلية هـذا او له نِعَمُ
من يعرف الله يعرف اوليّة ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الامَمُ

تتمة الابيات من سائر الروايات

ينشقُّ نور الهدى من نور غرّتـه ... كالشمس ينجـاب عن اشراقها القتَمُ
يُغضي حياء ويُغضى من مهـابته ... فما يُكلّم الا حين يبتسمُ

---

(١) راجع الاغاني مطبعة التقدم ١٤–٥٧ والمحاسن والمساوي للبيهقي (شوالي) ٢٢٢ ومخطوطة ديوان الفرزدق لجوزف هل – الابيات رقم ٥٠٦

(٢) يكاد ركن البيت الحرام يتعلّق به لعرفانه ان يده هي التي تمسّه

الله شرَّفهُ قدراً وعظّمهُ جرى بذاك له في لوحه القلمُ
سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بوادرهُ يزينه اثنان حسنُ الخُلق والشِيمُ
عمّ البريّة بالاحسان فانقشعت عنها الغياهبُ والإملاق والظُلَمُ
من معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضهمُ كفرٌ وقربهمُ منجى ومعتَصمُ
ان عُدَّ اهل الندى كانوا ائمتهم او قيل مَن خيرُ اهل الارض قيل هُمُ
هم الغيوثُ اذا ما أزمةٌ أزَمت والأُسد اسدُ الشَّرى والبأسُ محتدم
مقدمٌ بعدَ ذكرِ الله ذكرُهمُ في كل بدءٍ ومختومٌ بـه الكلِمُ

نخبة من بائيّة ابي تمام المشهورة في

فتح عموريـة

وهي بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم وقد فتحهـا الخليفة العباسي المعتصم سنة ٢٢٣ هـ وكان الشاعر بمعيته فقال يصف المعركة ويمدح الخليفة

السيف أصدقُ إنبـاءً من الكتبِ في حدّهِ الحدُّ بين الجِـدّ واللّعِبِ
بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف في متونهنّ جلاءُ الشكّ والرِيَبِ
والعلمُ في شُهُب الارماح لامعةً بين الخميسين لا في السبعة الشُهُبِ (١)
اين الروايةُ بل اين النجوم ومـا صاغوهُ من زُخُرف فيها ومن كذب
تخرُّصـاً واحاديثـاً ملفّقةً ليست بنبعٍ اذا عُدّت ولا غرَبِ (٢)
عجائبـاً زعموا الايام مُجفلـةً عنهنّ في صفر الاصفارِ او رَجبِ
وخوّفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ (٣)

---

(١) العلم الحقيقي هو في اسنّة الرماح لا معرفة الكواكب (٢) اي لبست من الحقيقة بشيء
(٣) اشارة الى مذنّب ظهر في تلك الايام

وصيّروا الابرج(١) العليـا مرتبةً ما كان منقلباً او غير منقلبِ
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ما دار في فلكٍ منها وفي قطُبِ
لو بيَّنت قطُّ امراً قبل موقعـه لم يخفَ ما حلَّ بالاوثان والصُلُب(٢)
فتحُ الفتوح تعـالى ان يحيط به نظمٌ من الشعر او نثر من الخُطَب
فتحٌ تفتّـح ابواب السماء له وتبرزُ الارض في اثوابها القُشُب

وبعد ان يصف عظمة هذا الفتح وما كان لعمورية من منزلة حربية يقول واصفاً حرق المسلمين لها

لقد تركتَ اميرَ المؤمنين بهـا للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشب
غادرت فيها بهيمَ الليل وهو ضُحىً يشلُّهُ وسطهـا صبحٌ من اللّهب
حتى كأنَّ جلابيب الدجى رغبت عن لونهـا او كأنَّ الشمس لم تغب
ضوءٌ من النـار والظلماء عاكفةٌ وظلمةٌ من دخان في ضحى شحِبِ(٣)
فالشمس طالعة من ذا وقـد أَفلت والشمس واجبةٌ في ذا ولم تجِبِ(٤)

ومع ان المدينة احترقت واصبحت اطلالاً فان منظرها عند الشاعر كان اجمل من كل جمال – يقول

ما ربع ميَّة معموراً يطيف به غيلانُ أبهى رُبًى من ربعها الخربِ(٥)
ولا الخدودُ وقد أُدمين من خجلٍ أشهى الى ناظري من خدّها التَرِبِ
سماجةٌ غنيت منّا العيون بهـا عن كل حسن بدا او منظرٍ عجبِ
وحسن منقلَبٍ تبدو عواقبـهُ جاءت بشاشتهُ من سوء منقلبِ(٦)
لو يعلم الكفر كم من اعصرٍ كمنت له المنيَّة بين السُمر والقضب
تدبيـرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقب في الله مرتغب

---

(١) اي ابراج السماء (٢) اي لو كان التنجيم يفيد لعرف الاعداء ما سيحلُّ بهم
(٣و٤) في وصفه للحريق يقول ان النار كانت بين اعمدة الدخان كأنها ضوء الصبح يخرج من الظلام وكانت اللهب كشمس طالعة وسط الليل مع ان الشمس الحقيقية قد غابت
(٥) اي ان منظر المدينة المحروقة كان على سماجته اجمل عندنا من ربع ميّة عند محبّها غيلان وهو الشاعر ذو الرمّة (٦) وربّ نتيجة حسنة (ويعني بذلك نصرهم) جاءت عن نتيجة سيئة (اي عن كسر الاعداء)

ومطعَمُ النصر لم تكهم اسنَّته[1] يوماً ولا حُجبت عن روح محتجب
لم يغزُ قوماً ولم ينهد الى بلدٍ الا تقدَّمه جيش من الرُعب
لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغزا من نفسه وحدها في جحفل لجب

ويتقدم من هنا الى ذكر ما كان يرجوه الروم من رد غارة المسلمين بواسطة حصون المدينة وكيف ذهبت آمالهم ادراج الرياح ثم ينوّه بمحاولة قائد الروم تيوفيلوس ان يرشو الخليفة ليعود عن المدينة وان الخليفة لم يقبل ذلك لانه انما كان يجاهد في سبيل الله لا سبيل المال

لمّا رأى الحرب رأيَ العين توفُلسٌ والحرب مشتقَّةُ المعنى من الحَرَب
غدا يصرّفُ بالاموال جريتها فعزَّهُ البحرُ ذو التيَّار والحدَب
هيهات زُعزعت الارضُ الوقور به عن غزو مُحتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته على الحصى وبه فقرٌ الى الذهب
ان الأسود اسودَ الغاب همَّتُها يومَ الكريهة في المسلوب لا السَّلب

ثم يذكر هزيمة الروميّ والقضاء على جيشه وسبي النساء وتدمير المنازل ويختم بقوله مخاطباً الخليفة

خليفةَ الله جازى الله سعيك عن جُرثومة الدين والاسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ موصولةٍ او ذمامٍ غير منقضب
فبين ايامِك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدر اقربُ النَسب[2]
أبقت بني الاصفر المِمراض كاسمهم صفرَ الوجوه وجلَّت اوجه العرب[3]

---

(١) اي ان الخليفة الذي منح النصر من الله لم تكلّ رماحه (٢) اي اذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا اشدّ قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي على مشركي مكة

(٣) بنو الاصفر اي الروم

موكب المتوكّل

من قصيدة للبحتري يمدح بها الخليفة العباسي المتوكل ويهنئه بعيد الفطر
واصفاً موكبه الفخم وهو سائر الى المسجد

بالبرّ صُمتَ وانت افضل صائمٍ ... وبسنّة الله الرضيّة تُفطرُ
فانعَم بيومِ الفطر عيناً انه ... يوم اغرُّ من الزمان مشهَّر
أظهرت عِزَّ الملك فيه بجحفلٍ ... لجِبٍ يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تَصهلُ والفوارس تدَّعي ... والبيض تلمع والاسنّة تَزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها ... والجوّ معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعةٌ تَوَقّد بالضحى ... طوراً ويُطفئها العجاج الاكدر(١)
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العِثيَر
وافتنَّ فيك الناظرون فإصبعٌ ... يُوما اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعُم الله التي لا تُكفر
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهلّلوا ... لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت الى المصلّى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشيةَ خاشعٍ متواضعٍ ... لله لا يُزهى ولا يتكبّر
فلو ان مشتاقاً تكلّف غير ما ... في وسعه لسعى اليك المنبر
أُبديتَ من فصل الخطاب بحكمة ... تُنبي عن الحق المُبين وتخبر
ووقفت في بُردِ النبي مذكّرا(٢) ... بالله تُنذر تارةً وتبشّر
ومواعظٍ شفت الصدور من الذي ... يعتادُها وشفاؤها متعذّر
حتى لقد علم الجهول واخلصت ... نفس المروّي واهتدى المتحيّر

(١) ماتعة مرتفعة : والعجاج الغبار . وكذلك العثير في البيت التالي
(٢) كان الخلفاء في المواقف الرسمية يضعون على اكتافهم البردة النبوية

صلّوا وراءك آخـذين بعصمة ... من ربهم وبذمّـة لا تخـفر
فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل ... يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله اعطاك المحبـة في الورى ... وحباك بالفضل الذي لا يُنكر
ولأنت املا للعيون لديهم ... واجلُّ قدراً في الصدور واكبر

الرأي قبل شجاعة الشجعان

من قصيدة لابي الطيب المتنبي في سيف الدولة

كان المتنبي قبل اتصاله بالامير الحمداني سيف الدولة سيّىء الحـال يتردد في اقطار الشام مادحاً ومتكسّباً . فلما عرف هذا الامير واستقرّ في بلاطه بحلب وجد فيه ضالته المنشودة . وكان شاعرنا ابيَّ النفس شديد الغيرة على المجـد العربي فاعجبته بطولة اميره وجهاده الحربي واعجب به الامير فقرَّبه واغدق عليه العطايا.وقد خلد المتنبي اسمه ووقائعه بكثير من القصائد العامرة ومنها هذه القصيدة يصف فيها واقعة انتصر فيها سيف الدولة على الروم

ألرَّأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ ... هوَ أوّلٌ وهيَ المحلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حرَّةٍ ... بلغتْ من العَلياءِ كلَّ مكانِ
ولرُبما طَعَنَ الفتى اقرانَـهُ ... بالرَّأي قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ (١)
لولا العقولُ لكانَ ادنى ضيغمٍ ... ادنى الى شَرفٍ من الإنسانِ (٢)
ولما تَفاضَلَتِ النفوسُ ودبَّرتْ ... أيدي الكماةِ عواليَ المُرّانِ (٣)
لولا سَميُّ سيوفِهِ ومضاؤهُ ... لمَا سُلِلنَ لكنَّ كالأجفانِ (٤)

---

(١) اي ان الانسان قد يغلب اقرانه بحسن رأيه قبل ان يغلبهم برمحه وسيفه
(٢) لولا العقول لكان اخس سبع اقرب الى الشرف من الانسان
(٣) الكماة الابطال . عوالي المران اسنة الرماح
(٤) يريد بسمي سيوفه سيف الدولة يقول لولاه لكانت السيوف المسلولة كاغمادها اي لا تغني شيئاً

خاضَ الحِمامَ بهنَّ حتى ما دَرَى ... أمِنِ احتقارٍ ذاكَ ام نسيانِ
وسعى فقصَّر عن مداهُ في العلى ... اهلُ الزمانِ واهلُ كلِّ زمانِ
تخذُوا المجالسَ في البيوت وعندَه ... انَّ السروجَ مجالسُ الفتيانِ
وتوهَّموا اللعِبَ الوغى والطعنُ في ال ... هيجاء غيرُ الطعنِ في الميدانِ
قاد الجيادَ الى الطعان ولم يقُد ... الّا الى العادات والاوطانِ
كلُّ ابنِ سابقةٍ يُغيرُ بحسنه ... في قلبِ صاحبه على الاحزانِ (١)
يومي بها البلدَ البعيدَ مُظفَّرٌ ... كلُّ البعيدِ لهُ قريبٌ دانِ
ما زلتَ تضربهمْ دراكاً في الذُّرى ... ضرباً كأنَّ السيفَ فيه اثنانِ (٢)
خصَّ الجماجمَ والوجوهَ كأنما ... جاءت اليك جسومُهم بامانِ
فرَمَوا بما يرمونَ عنهُ وادبروا ... يطأونَ كلَّ حنيَّةٍ مِرنانِ (٣)
يغشاهمُ مطرُ السحابِ مُفصَّلاً ... بمهنَّدٍ ومثقَّفٍ وسنانِ (٤)
حُرِموا الذي املوا وادركَ منهمُ ... آمالَه من عادَ بالحرمانِ
واذا الرماحُ شغلنَ مهجةَ ثائرٍ ... شغلتْهُ مهجتُهُ عن الاخوانِ
هيهاتَ عاقَ عن العِوادِ قواضبٌ ... كثُرَ القتيلُ بها وقلَّ العاني (٥)
ومهذَّبٌ امرَ المنايا فيهمِ ... فأطعنهُ في طاعةِ الرحمنِ (٦)
قد سوَّدتْ شجرَ الجبالِ شعورهمْ ... فكأنَّ فيهِ مُسِفَّةَ الغربانِ (٧)
وجرى على الورَقِ النجيعُ القاني ... فكأنَّهُ النارنجُ في الاغصانِ (٨)
رفعتْ بكَ العربُ العمادَ وصيَّرتْ ... قِممَ الملوكِ مواقدَ النيرانِ (٩)

---

(١) اي قاد كل فرس سابقة تبدد بحسنها الحزن من قلب صاحبها
(٢) يريد بالذرى هنا اعالي ابدانهم اي ما زلت تضربهم ضرباً متتابعاً يعمل السيف فيه عمل اثنين
(٣) فرموا قسيهم وهربوا وهم يطأونها
(٤) اراد بالسحاب هنا الجيش وبالمطر الضرب والطعن . والمهند السيف والمثقف الرمح
(٥) العواد الرجوع يريد وقف في سبيل رجوعهم سيوف كثرت القتلى بها وقلت الاسرى اي الجرحى الذين لم يموتوا فاسروا
(٦) يريد بالمهذب هنا سيف الدولة
(٧) اصبحت الاشجار من كثرة ما تطاير من شعورهم السود كأن عليها غربان مسفة وهي التي تدنو في طيرانها من الارض
(٨) النجيع الدم . النارنج ثمر معروف وهو احمر اللون
(٩) رفعت بك العرب بناءها العالي وجعلت رؤوس الملوك مواقد لنيرانهم

انسابُ فخرهم اليك وإنما انسابُ اصلهم الى عدنانِ
يا من يُقتلُ من اراد بسيفهِ اصبحتُ من قتلاك بالإحسانِ
فاذا رأيتُكَ حارَ دونك ناظري واذا مدحتكَ حارَ فيكَ لساني

المتنبي في كافور الاخشيدي

كان كافور ايام المتنبي سيداً كبيراً نافذ الامر في الديار المصرية والشامية والحجازية. وهو عبد اسود اللون كان اولاً مملوكاً لبني طغج امراء مصر ولما ضعف امر هؤلاء استبد بالامر واصبح هو اميرها الحقيقي

قصده المتنبي بعد ان الحّ كافور في طلبه. وكان قد اضطر ان يترك بلاط سيف الدولة لاشتداد خصومه عليه وسكوت الامير عنهم فغادر حلب الى فلسطين فمصر ونفسه تسول له انه سيبلغ بواسطة كافور من المجد ما يغيظ الخصوم في حلب ويشبع اطماع نفسه الواسعة. وهذه القصيدة احدى القصائد الاولى التي انشدها في اوائل عهده بمصر وهو يفتتحها بمقدّمة يذكر فيها معاكسة الدهر له ومفارقته للاحباب . ثم يذكر مطامعه وما يعيقه عن الوصول اليها وان لا ناصر له الا الممدوح الذي سيبلغ به ما يريد

اوَدُّ من الايام ما لا تَوَدُّهُ واشكو اليهـا بيننا وهي جندُهُ
ابى خُلقُ الدنيـا حبيباً تديمهُ فما طلبي منها حبيباً تَردُّهُ
واسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيُّراً تكلُّفُ شيءٍ في طباعك ضدُّهُ
رعى الله عيساً فارقتنا وفوقها مهاً كلُّها يولى بجفنيه خدُّهُ (١)
بوادٍ به ما بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيدٌ تناثرَ عِقدُهُ (٢)
اذا سارت الاحداجُ فوقَ نباته تفاوحَ مسكُ الغانيات ورَندُهُ (٣)
وحالٍ كاحداهنَّ رمتَ بلوغهـا ومن دونها غَولُ الطريق وبُعدُهُ (٤)

(١) رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها حسان تستقي خدودها من دموعها
(٣و٢) بوادٍ به كقلوبنا وجدٌ جمّ وكأنّه لما رحلوا عنه جيد عطل من الحلى ولما سرن فيه امتزجت رائحتهنّ برائحة الرند فيه (٤) وحال صعبة المنال كاحدى هذه الحسان

وانعب خلق الله من زاد همُّهُ وقصَّرَ عما تشتهي النفس وجدُهُ (١)
فلا ينحللْ في المجد مالكَ كلُّهُ فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقدُهُ
ودبّرهُ تدبيرَ الذي المجدُ كفُّهُ اذا حارب الاعداء والمال زندُهُ
فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ مالهُ ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجدُهُ
وفي الناس من يرضى بميسور عيشهِ ومركوبهُ رجلاه والثوب جلده
ولكنَّ قلباً بين جنبيَّ ما لهُ مدًى ينتهي بي في مرادٍ احدُّهُ
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربُّهُ فيختارُ ان يكسى دروعاً تهدُّهُ (٢)
وامضى سلاحٍ قلَّدَ المرء نفسهُ رجاء ابي المسك (٣) الكريم وقصدهُ

ثم يخاطبه ذاكراً ما عاناه من السفر اليه

فيا ايها المنصورُ بالجدِّ سعيهُ ويا ايها المنصورُ بالسعي جدُّهُ
تولّى الصبى عني فاخلفتَ طيبه وما ضرَّني لما رأيتك فقدُهُ
لقد شبَّ في هذا الزمان كهولهُ لديك وشابت عند غيرك مُرْدُهُ
ألا ليت يوم السير يخبرُ حرُّهُ فتسأله والليل يخبر بردُهُ
وليتك ترعاني وحيران (٤) معرضٌ فتعلمَ اني من حسامك حدُّهُ
وأني اذا باشرت امراً أريدُهُ تدانت اقاصيه وهان اشدُّهُ
وما زال اهلُ الدهرِ يشتبهون لي اليك فلما لحتَ لي لاح فردُهُ
يقال اذا ابصرتُ جيشاً وربَّهُ امامك ربٌّ ربُّ ذا الجيش عبده (٥)
والقى الفمَ الضحّاكَ اعلم انهُ قريب بذي الكفِّ المفدّاة عهده
فزارك مني من اليك اشتياقُهُ وفي الناس الاَّ فيك وحدك زهده

ويتقدم منوّهاً بامانيه وما يرجوه على يديه

فان نلتُ ما امّلت منك فربما شربت بماء يُعجزُ الطير وِردُهُ

(١) اي اتعب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله (وجده) عن ادراكها
(٢) يرى جسمه مغطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير
(٣) ابو المسك كنية كافور
(٤) حيران اسم جبل اي ليتك كنت تراني وانا اسير مقابل هذا الجبل لتعلم مضائي وعزمي
(٥) اي امامك سيّد امير هذا الجيش عبد له

ووعدُك فعلٌ قبل وعدٍ لانه — نظيرُ فَعالِ الصادق القولِ وعدُه
فكن في اصطناعي محسناً كمجرِّبٍ — يَبِنْ لك تقريب الجوادِ وشدُّه (١)
اذا كنت في شكٍّ من السيف فابلُهُ — فاما تنفّيه واماً تُعدُّه
وما الصارم الهنديُّ الا كغيره — اذا لم يفارقهُ النجادُ وغمدُهُ
وانّك لَلمشكورُ في كلِّ حالةٍ — ولو لم يكن الا البشاشةَ رِفدُهُ
واني لفي بحرٍ من الخير اصلهُ — عطاياك ارجو مدَّهـا وهي مدُّهُ
وما رغبتي في عسجدٍ (٢) استفيدُهُ — ولكنها في مفخرٍ استجدُّهُ
يجود به من يفضح الجودَ جوده — ويحمَدُهُ من يفضحُ الحمدَ حمده
فانك ما مرَّ النحوسُ بكوكبٍ — وقابلته الا ووجهك سعده

صقر قريش

نخبة من موشّح لاحمد شوقي يُلمّ فيه بطرف من سيرة عبد الرحمن الداخل مؤسس ملك بني امية في الاندلس . وكيف هرب مع اخ له من سيف العباسيين فعبر الفرات سباحة ولم يستطع اخوه ذلك فارتد وهلك . وقصته طريفة ومؤثرة فلتراجع في كتب التاريخ .

يا شبابَ الشرق عنوان الشَّبـابْ — ثمرات الحَسَب الزاكي النَّمير (٣)
حسبكم في الكرم المحض اللباب — سِيرةٌ تبقى بقاء ابنَيْ سمير (٤)
في كتـاب الفخر (للداخل) باب — لم يَلِجْهُ من بني المُلك أمير
في الشموس الزُّهر بالشام انتمى — وغَنَى الأقمارَ بالأندلس (٥)

(١) جرّبني فيظهر لك اني جواد احسن الجري (٥) المسجد الذهب
(٣) النمير بمعنى الزاكي (٤) ابنا سمير الليل والنهار
(٥) وغنى الاقمار اي اطلع الاقمار يقصد نسله من الملوك

عقدَ الشرقُ عليهم مأتمـا ... وانثنى الغربُ بهم في عُرُس
هل لكم في نبإٍ خيرِ نَبأ ... حليـةِ التاريخ مأثور عظيم
حلَّ في الأنباء مـا حلّت سبا ... منزل الوُسطى من العقد النَظيم
مثلَهُ المقدارُ يوماً ما خبا ... اساليب التاج والعرش كظيم
يُعجزُ القصاصَ إلاَّ قلمـا ... في سوادٍ من هوى لم يُغمَس
يُؤثِر الصدق ويجزي عَلَمـا ... قلبَ العالَمَ لو لم يُطمَس

. . .

عن عِصامِيٍّ نبيلٍ مُعرقٍ ... في بُناةِ المجدِ أبناء الفخارْ
نهضتْ دولتهـم بالمشرقِ ... نهضة الشمسِ بأطراف النهـار
ثم خان التـاجُ وُدَّ المَفرقِ ... ونَبتْ بالأنجم الزُّهر الديار
غفلوا عن سـاهرٍ حول الحمى ... باسطٍ من ساعِدَي مُفترس(١)
حـام حول الملك ثمَّ اقتحما ... ومشى في الدم مشي الضَّرِسِ(٢)

وهنا يذكر بطش العباسيين بالامويين وفرار عبد الرحمن سجا بالفرات ثم يقول —

صحب الداخلَ من إخوتـهِ ... حدثٌ خاض الغمار ابنُ ثمانْ
غلَب الموج علـى قوّتـه ... فكأنَّ الموج من جُند الزمانْ
وإذا بالشطّ من شقوتـهِ ... صائحٌ صاح به : نلتَ الامانْ
فانثنى منخدعـاً مستسلمـا ... شاةٌ اغترّت بعهد الأطلس(٣)
خضّب الجندُ بهِ الارضَ دَما ... وقلوبُ الجند كالصَّخرِ القسي

. . .

ايها اليائسُ مُت قبل الممات ... او إذا شئتَ حيـاةً فالرَّجا
لا يَضقْ ذَرْعُك عند الازماتْ ... إن هي اشتدّتْ وأمِل فَرَجا

---

(١) يشير الى العباسيين (٢) الضرس الشرس (٣) الاطلس الذئب

ذلكَ الداخلُ لاقى مظلماتْ لم يكن يأمل منهـا مخرجا
قد تولّى عزّهُ وانصرمـا فمضى من غـدهِ لم ييأسِ
رام بالمغرب مُلكـاً فرمى أبعـدَ الغمرِ وأقصى اليَبَس

. . .

ذاك والله الفتى كلُّ الـفتى أيّ صعب في المعالي ما سَلَك
ليس بالسائل إن همَّ : متى ؟ لا ولا الناظرِ ما يوحي الفَلَك
زايـلَ المُلكُ ذويهِ فأتى مُلكَ قـومٍ ضيّعوه فملك
غَمَراتٌ عـارضت مقتحمـا عـاليَ النفس أشمَّ المَعطَس
كلَّ أرضٍ حلَّ فيها او حمى منزلُ البدرِ وغابُ البَيهس (١)

. . .

نَزَلَ النّاجي على حُكم النوى وتوارى بالسُّرى من طـالبيهْ
غيرَ ذي رحلٍ ولا زادٍ سوى جوهرٍ وافاهُ من بيت أبيه
قمرٌ لاقى خسوفـاً فانزوى ليس من آبائـهِ إلاّ نبيه
لم يجـد أعوانهُ والخدمـا جانبوهُ غيرَ (بدر) الكيّس (٢)
من مواليه الثقات القدمـا لم يخنه في الزمـان المونس

. . .

بسلام يا شراعاً مـا درى ما عليه من حياه وسخـاه
في جناح المَلَك الرّوح جرى وبريح حفّهـا اللطفُ رُخاه
غَسَل اليمّ جراحـات الثرى ومحا الشدةَ من يمحو الرخاه
هل درى أندلسٌ من قَدِما دارَهُ من نحو بيت المَقدِسِ
بسليل الأمويّـين سما فتحُ موسى (٣) مستقرَّ الأسسِ

---

(١) البيهس الاسد (٢) بدر هو مولى عبد الرحمن وقد رافقه الى الاندلس وكان خير عون له (٣) موسى بن نصير فاتح الاندلس

أمويٌّ للعُلا رحلتُهُ والمعالي بطيٍّ وطُرُقْ
كالهلال انفردَت نُقلتهُ لا يُجاريهِ ركابٌ في الأفق
بُنيت من خُلُقٍ دَولتُهُ قد يَشيد الدُّوَلَ الشمَّ الخُلُق
واذا الاخلاق كانت سُلَّما نالت النَّجمَ يَدُ الملتمِس
فارقَ فيها تَرقَ أسباب السَّما وعلى ناصيةِ الشمس اجلِس

• • •

ايَّ مُلكٍ من بنايات الهِمَمْ أَسَّسَ الدَّاخلُ في الغربِ وشاد
ذلك الناشئُ في خيرِ الأُمَمْ ساد في الارض ولم يُخلق يُساد
حكمَت فيهِ الليالي وَحَكمْ في عَواديها قِياداً بقِياد
سُلب العزَّ بشرقٍ فرَمى جانبَ الغرب لعزٍّ أقعس
واذا الخيرُ لعبدٍ قُسِما سَنَح السعدُ له في النَّحس

• • •

ايها القلبُ أحقٌّ أنتَ جارْ للذي كان على الدهر يُجير
ها هنا حلَّ به الرَّكبُ وسار وهنا ثاوٍ الى البعث الأسير
فَلَكٌ بالسَّعد والنَّحس مُدارْ صَرع الجَامَ وألوى بالمدير
ها هنا كنتَ ترى حُوَّ الدُّمى فاتناتٍ بالشِّفاه اللُّعس
ناقلاتٍ في العَبير القَدَما واطئاتٍ في حَبيرِ السُّندُس

• • •

خُذ عن الدنيا بليغَ العِظةِ قد تجلَّت في بليغ الكَلِمِ
طَرَفاها جُمِعا في لفظةٍ فتأمَّل طرَفيها تَعلم
الأماني حُلمٌ في يقظةٍ والمنايا يقظةٌ من حُلُمِ
كلُّ ذي سِقطَين في الجوِّ سما[1] واقعٌ يوماً وان لم يُفرَس
وسيلقى حَينه نسر السما يوم تُطوى كالكتاب الدرس

---

(١) السِقط جناح الطائر

العمرية

من قصيدة — لحافظ ابرهيم

يعدّد فيها مآثر امير المؤمنين عمر بن الخطاب الملقَّب بالفاروق واصفاً اعماله ومناقبه ·
وعمر هو الخليفة الثاني وفي ايامه حدثت اهم الفتوح العربية وكان
مشهوراً بالعدل والسهر على الرعية والترفع عن حطام الدنيا
وقد توفي قتلاً بيد رجل فارسي اسمه ابو لؤلؤة ابن
فيروز كان غلاماً للمغيرة بن شعبة

حسبُ القوافي وحسبي حين أُلقيها — أني الى ساحة الفاروق أُهديها
مولى المُغيرة [1] لا جادتكَ غاديةٌ — من رحمة الله ما جادت غواديها
طعنتَ خاصرةَ الفاروق منتقماً — من الحنيفة [2] في اعلى مجاليها
فأصبحتْ دولةُ الاسلام حائرةً — تشكو الوجيعة لما مات آسيها

حسمه للخلاف بعد موت النبي بمبايعة ابي بكر

وموقفٍ لك بعد المصطفى افترقتْ — فيه الصحابةُ لما غاب هاديها
بايعتَ فيهِ ابا بكرٍ فبايَعهُ — على الخلافة قاصيها ودانيها
وأطفئتْ فتنةٌ لولاك لاستعرتْ — بين القبائل وانسابت افاعيها
فللسقيفة [3] يومٌ انتَ صاحبهُ — فيهِ الخلافةُ قد شِيدت رواسيها

حديثه مع امير غسان جبلة بن الايهم الذي لطم بدوياً فابى الا ان يعاقب الامير وينصف البدوي منه

كم خِفتَ في الله مضعوفاً دعاك به — وكم أخفت قوياً ينثني تيها
وفي حديث فتى غسّانَ موعظةٌ — لكلِّ ذي نُعرةٍ يأبى تناسيها

---

(١) يخاطب قاتل امير المؤمنين (٢) يقصد بالحنيفة هنا الاسلام
(٣) سقيفة ابن ساعدة مكان اجتمعت فيه قريش للنظر في امر الخلافة بعد موت النبي

فما القويُّ قوياً رغمَ عزّتهِ عند الخصومةِ والفاروقُ قاضيها
وما الضعيفُ ضعيفاً بعد حُجّته وإن تخاصم واليها وراعيها

فتوحه العظيمة . وعزله لخالد بن الوليد

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت له الفتوحُ وهل أغنى تواليها
غزا فأبلى وخيلُ الله قد عُقدت باليُمن والنصر والبشرى نواصيها
يرمي الأعادي بآراه مُسَدّدةٍ وبالفوارس قد سالت مذاكيها[1]
ولم يَجُز بلدةً الأ سمعت بها «اللهُ أكبرُ» تدوي في نواحيها
عشرونَ موقعةً مرّت محجّلةً من بعدِ عَشرٍ بنانُ الفتح تُحصيها
وخالدٌ في سبيل الله مُوقدها وخالدٌ في سبيل الله صاليها
أتاهُ أمرُ إبي حفص[2] فقبّلهُ كما يُقبّل آيَ الله تاليها
واستقبلَ العَزلَ في إبّان سطوته ومجدهِ مستريحَ النفس هاديها
ألقى القيادَ الى الجرّاح[3] ممتثلاً وعزّةُ النفس لم تجرح حواشيها
وانضمَّ للجند يمشي تحتَ رايتهِ وبالحياة اذا مالت يفدّيها
وما عرتهُ شكوكٌ في خليفتهِ ولا ارتضى إمرةَ الجرّاح تمويها

عدم التساهل مع عمرو بن العاص وارغامه على تأدية ما عليه لبيت المال

شاطرتَ داهية السُوّاس ثروتهُ ولم تخنْهُ بمصرٍ وهو واليها
وانت تعرف عمراً في حواضرها واست تجهل عمراً في بواديها
لم تنبت الارض كابن العاص داهية يرمي الخطوب برأيٍ ليس يُخطيها
فلم يَرُغ حيلةً فيما أمرتَ بهِ وقام عمروٌ الى الأجمال يُزجيها
ولم تُقِل عاملاً منها وقد كثرت أموالهُ وفشا في الارض فاشيها

رسول كسرى اليه وما رآه من تقشفه وعدله

وراعَ صاحبَ كسرى ان رأى عُمَراً بين الرعيّة عُطلاً وهو راعيها

---

(١) المذاكي الخيول (٢) ابو حفص هو عمر بن الخطاب
(٣) هو امير الجند ابو عبيدة ابن الجرّاح

وعهده بملوك الفرس أنَّ لها سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق اصبحت مثلا واصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

تعزيزه نظام الشورى

يا رافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها وللمنيّة آلام تعانيها
فاعجب لقوّة نفس ليس يصرفها طعم المنيّة مرّاً عن مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأي في حكومته إنّ الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

زيارته للشام وما حاولوا اظهاره فيها من الزهو الدنيوي

يا من صدفت عن الدنيا وزينتها فلم يغرك من دنياك مغريها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا أن يلبسوك من الاثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه خيل مطهمة تحلو مرائيها (١)
مشى فهملج مختالاً براكبه وفي البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت يا قوم كاد الزهو يقتلني وادخلتني حال لست أدريها
وكاد يصبو الى دنياكم عمر ويرتضي بيع باقيه بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي بها بدلاً ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

حديثه مع المرأة الفقيرة واضرام النار لها وحمل الطعام لاولادها

(١) اشارة الى ما اراد معاوية والامويون من تعظيم شأن الخليفة باركابه برذوناً ملوكياً بدل الناقة والباسه الالبسة الفاخرة بدل ثيابه الزهدية

ومن رآهُ امام القِدر منبطحاً والنّار تأخذ منهُ وهو يُذكيها
وقد تخلّل في أثناء لحيتهِ منهـا الدخان وفوهُ غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على حالٍ تروعُ لعمرُ الحق رائيها
يستقبلُ النارَ خوفَ النار في غدهِ والعينُ من خشيةٍ سالتْ مآقيها
إن جاعَ في شدةٍ قوم شركتُهم في الجوع او تنجلي عنهم غواشيها
جوعُ الخليفة والدنيا بقبضتهِ في الزهد منزلةٌ سبحان موليها
فمن يُباري أبا حفصٍ وسيرتهُ أو من يحاول للفاروق تشبيها

. . .

في الجاهليّـة والاسلام هيبتهُ تَثني الخطوب فلا تعدو عواديها
في طيِّ شدتهِ أسرار مرحمـةٍ للعالمين ولكن ليس يفشيهـا
وبين جنبيه في أوفى صرامتـهِ فؤاد والدةٍ ترعى ذراريهـا

. . .

هذه مناقبهُ في عهد دولتـه للشاهدين وللأعقاب أحكيها
في كلّ واحـدةٍ منهنّ نابلةٌ من الطبائع تغذو نفسَ واعيها
لعلَّ في أمّةِ الاسلام نابتـةً تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعضَ ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيهـا
وحسبها أن ترى ما كان من عُمَرٍ حتى ينبّه منهـا عينَ غافيها

خولة بنت الازور واخوها ضرار

من قصيدة — لشبلي ملاط

يصف فيها حادثة جرت للفارس العربي ضرار بن الازور وكان في جند خالد بن الوليد. وكيف وقع في اسر الاعداء، ثم كيف خلصته اخته خولة بما ابدته من شجاعة تجعلها في مصاف الابطال

أدموعُ خولةَ ام عقيقُ الوادي ... ايامَ نادى للجهاد منادِ
لم تبكِ اختُ ضرار حزناً بل بكت ... فرحاً ليوم شهادةٍ وجهاد
غبطت اخاها وهو يعرض رمحه ... فوق الجواد لغزوة وجلاد
يا خولَ إنَّ ابي وجدّي استُشهدا ... قبلي على مرأى النبيِّ الهادي
وانا على آثار من دَرَجوا ومن ... سعدوا من الآباء والأجداد
فاذا قعدتَ عن الجهاد توانياً ... فَلِمَ ادَّخرتُ مثقَّفي وجوادي
إي يا ابنة المستشهدين اعزَّةً ... بيضَ الوجوه الى الجنان صوادي
لا تُكبِري فتح الشآم وخالدٌ ... وابو عبيدةَ اكبرُ القوّاد
يتراوحان مُلاءة الفتح الذي ... اعلى به الاسلامُ اي عِماد
وتنظَّري خببَ العِتاق وفوقها ... اعقابُ يعربَ رائحٌ او غاد

وتسرّ خولة بحديث اخيها وتطوّعه للجهاد وتقول له مودّعة

بوركتَ يا ابن ابي وقُدّس والدٌ ... يحبيه مثلُ ضرارَ في الاولاد
فاذهب وعند الله اجرُك قائم ... في يومك الدنيا ويوم مَعاد

جهاد ضرار ووقوعه في الاسر

وهفا كما يهفو الشهابُ مكبِّرا ... وانقضَّ منصبًا على الاضداد
فتعوَّذوا من طعنه وتساقطت ... اجسادهم صرعى على اجساد
حتى استحال إهابُهُ العاري الى ... لون العقيق وحمرة الفرصاد

واذا بوردان[1] ينادي بابنه همدانُ دونك روحَ هذا البادي
ورأى ضرارُ الحدقين به وما همدان صوبَ من ظبيٍ وصعاد
فسمى اليه والسنانُ بكفِّه مثل الشهاب الثاقب الوقّاد
وسطا عليه وشكَّ ثغرةَ قلبه بالرمح شكّةَ حاقدٍ جلّاد
فتغلغل الرمحُ الاصمُّ بصلبه في طيِّ أضلاع له أصلاد
واراد نزعَ سنانه فاذا به في كفِّه قلمٌ بغير مداد
فاحاط اصحاب القتيل به وهم كثرٌ وقادوهُ اشدَّ قياد
ومضوا به دامي الجراح مكبّلا وأصيب شمل جموعه ببداد

استنجاد بعضهم الامير لتخليص ضرار . واندفاع الفرسان ومعهم فارس متلثم ادهشت بطولته الجميع

أدركْ ضراراً يا اميرُ فانه في حوزة الاعداء بالأصفاد
فاهتزَّ خالدٌ هزّةً عربيّةً وتنادت الفرسان ايَّ تناد
وتدفقوا متدافعين كأنهم تحت العجاج البحرُ في إزباد
هذا وبينا خالدٌ في شوطه دامي الحسام يُدِلُّ بالانشاد
لفتت نواظرَهُ بسالة فارس متلثّمٍ متوشح بسواد
مستلئمٍ[2] حسن الشمائل ضاربٍ بحسامه في الهام والاكباد
حنقاً يدقُّ كتيبةً بكتيبةٍ ويكادُ يلهبها من الاحقاد
فتساءلت عنهُ قبائلُ يعربٍ وتطاولت منهم اليه هواد[3]
من ذا يكون؟ لعلهُ ملكٌ أتى بالنصر للاسلام والاسعاد
وجرى اليه خالدٌ حتى دنا منه ونـاداهُ نداء وداد
من انت يا هذا الفتى؟ فاجابه صوتٌ يشفُّ عن الكآبة هادي
انا خولة انا أُخت فارس حِميرٍ فلألبسنَّ القوم حلّة عاد[4]
او استردَّ اخي ضراراً! واختفت في الجيش تُرعِدُ أيما إرعاد
فاشار خالدُ ان تَشُدَّ رجالهُ معها فشدُّوا شدة الآساد

(١) قائد الاعداء (٢) مستلئم اي لابس الدرع (٣) الهوادي الاعناق
(٤) اي حلّة الفناء

وتبدّدت ابناء حمصَ ولم يعد	منهم الى حمص سوى آحاد
وتلاحقت اصحاب رافعَ[1] بعدها	لا تستقرُّ على ربىً ووهاد
واذا امامهمُ ضرارُ يسوقهُ	بقيوده نفرٌ من الاجناد
جاءتك خولةُ يا ضرارُ وعاجلت	تلك الجنود برأس اسمرَ صاد[2]
فتمزقوا من حوله وتقدّمت	وحنانُها خللَ المدامع باد
وتعانقت وشقيقها فتمازجت	عَبراتُ ملتقيينِ بعد بعاد

. . .

أضرارُ دوّخنا الشآم ومهّدتْ	فيه يدُ الاسلام كلَّ مهاد
فاضربْ بنا مصراً فانَّ ترابَها	ذهبٌ ووادي النيل امرع واد
وكلا الشآم ومصر عضوٌ واحد	والفتح بينهما على ميعاد
ومشى الغزاة الفاتحون ودوّخوا	ما دوّخوا من امةٍ وبلاد
واستبطن التاريخُ للاسلام من	غُرَرِ الفتوحِ الى الفخار هوادي

. . .

قلْ للأُلى عزّت بهم اوطانهم	وتسوّدوا من طارفٍ وتلاد
كونوا ضراراً في الجهاد وخولةً	إنَّ الجدود تعيش بالاحفاد

---

(١) القائد المرسل من قبل خالد	(٢) براس رمح عطشان للدماء

الوفاء

قصيدة لالياس فياض يصف فيها مكارم الاخلاق في شخص رجل عربي قديم من اهل الكوفة . وقد ضمَّنها حكاية يروونها عن الامير ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك الأموي وخلاصتها انه لما سقطت الدولة الأموية اخذ ابو العبَّاس السفَّاح (وهو اول خليفة عباسي) يبطش ببني اميَّة ويفتك بكل من يجـده منهم . ففرَّ الامير ابرهيم المذكور متنكراً واضطرَّته الحال الى دخول الكوفة. غير انه شعر هناك بخطر يتهدَّده فاحتمى بدار رجل لا يعرفه وهناك اقام اياماً في احسن حال لا يسأله احد من هو . وكان الامير ابرهيم قد قتل من قبل رجلاً فعرف ان القتيل هو والد صاحب الدار وان هذا يخرج كل يوم مفتشاً عن قاتل والده ليثأر منه

وهنا نترك للشاعر ان يروي لنا ما حدث اذ اعترف الامير بانه القاتل وكيف يجعل من الحادثة وسيلة الى مدح الخلق العالي والشهامة العربيَّة

رَبَّةَ الشعر عن جميل الوفاء حدِّثينا وابغي جميلَ الثناء
حدثينا عن قومنا العرب اهـل المجد قِدماً والعزة القعساء
عن رعاةٍ جاءوا حفاةً من القفـ ـر فحازوا ملكاً على الدنياء
رفعتهم اخلاقهم فتساموا ثم هانوا من بعد ذاك العلاء
وبناء الاخلاق اعلى وابقى من بناء المعاقل الشمَّـاء

. . .

اخذ السيفُ من اميَّةَ فالشـامُ وحمصٌ كالوردة الحمراء
راح من راح منهم طعمة السيـف وهام الباقون في الصحراء

. . .

اين قصرٌ لإبراهيمَ منيفٌ كان ابهى القصور في الفيحاء
وفراشٌ من الحرير وثيرٌ من فراش التراب والحصباء
ذلَّ نجلُ الملوك والدهر مشغو فٌ بذلِّ الأقيال والعظماء

هائم في القفار يعلمنه الليـ ـل ويخفيه عنك طرف ذُكاء[١]
متزيٍّ خوف الرقيب بزيّ الـ ـعبيد من كان فارس الهيجاء

. . .

عندما ابصر الخلاص مُحالاً ووهى عزمه من الاعياء
عاج بالكوفة ابتغاء صديقٍ كان يرجو بها من الاوفياء
غير ان العيون كانت عليه تقتفي إثره اشدّ اقتفـاء
ورأى الجند في الدروب وقد سدّ وا عليه ابواب كل رجاء
فانتحى جانب المدينة يبغي منزلاً قد رآه فخم البناء
حطّ عنه القناع واستقبل البـابَ فامسى في رحب ذاك الفناء
واذا صاحب المكان وقد اقبـل بين الاتبـاع والرفقاء
قال من انت قال اني ضعيفٌ مستجير بكم من الاقوياء
مرحباً مرحباً . وافرد في القصـر له حجرةً بلا ابطـاء
فاقام الايام في خير ما يرغب فيه من نعمةٍ ورخاء
ليس يدري المضيفُ من هو ولم يسأله عن ذاك عادةَ الكرماء

. . .

ورأى انَّ صاحب القصر يمضي كل يوم مع رهطه الامناء
يذهب الصبحَ وهو طلق المحيّا ثم يأوي مقطباً في المساء
فاعتراه ريب وقال لهُ يو ماً وقـد أجلسا معاً للعشاء
بأبي انت ما الذي اوجب الهم وما لي اراك نِضو عنـاء
قال قد كان إبرٰهيمُ بنُ سلما ن بغـانا بالظلم والإعتداء
قتل الوالدَ الحنون وابقى حسرتي بعده وطول بكائي
واتاني بالامس أنَّ غريمي مختفٍ ها هنـا عنِ الرقباء
فانا باحثٌ عليـه لاقضي منه ثاري وتشتفي حوبائي[٢]
قال من هو ابوك ؟ قال هو الليث بن يحيي أبنُ اكرم الآباء

---

(١) ذكاء الشمس (٢) نفسي

فلو انَّ الجبال دُكَّت عليه لم ترعه كهذه الانباء
عجباً ساقه القضاء إلى بيـ ـت الدِّ الخصوم والاعداء
كرهت نفسه الحياة وقد ضا ق بعينيه رحب ذاك الفضاء
قال يا هذا ان حقّك عندي واجبٌ بعد هذه الآلاء
فانا مرشدٌ خطاك الى خصـ ـك اقضي بذاك بعض الوفاء
قال من ذاك ؟ قال اني انا القا تل فاثأر واسفك بعدلٍ دمائي

* * *

فاستشاط الفتى بغيظٍ وصارت مقلتاه كالجمرة الحمراء
همَّ يقضي عليه في الحال لكن حال امرٌ اهمُّ دون القضاء
قال كن من تشاء انك ضيفي وهو عندي من اقدس الاشياء
لستُ والله خافراً ذمتي معـك وقد نلت من طعامي ومائي
ان تكن والدي قتلتَ فعنـد الله تلقى الجزاء يوم الجزاء
غير اني ارجو ابتعادك اذ اخشى من النفس ثورة الاهواء
فانصرف آمناً. واعطاه من او صله سالماً الى البيداء

* * *

تلك اباؤنا وذاك تُراث الـ ـمجد منهم باقٍ الى الابناء
شرفٌ في سماحةٍ وذكاء في وقارٍ وقدرةٌ في وفاء

زنوبيا [1]

(من قصيدة بين اطلال تدمر)

كانت تدمر في القرن الثالث للميلاد مملكة زاهية تابعة للامبراطورية الرومانية وعلى عرشها امير عربي هو أذينة بن السميذع وزوجته المعروفة باسم زنوبيا . وحدث ان قُتل أذينة فقامت زوجته باعباء الملك خير قيام حتى امتدت المملكة في ايامها من الفرات الى بحر الروم فمصر . وكانت على جانب عظيم من الطموح والاقدام فصمّمت على جعل تدمر مستقلة ونشأ عن ذلك حروب طويلة بينها وبين الرومان انتهت بأن أُخذت اسيرة الى رومة حيث قضت نحبها . على ان التاريخ لا يزال يذكر بطولتها ومآثرها . وهي شرقية يحق للشرقيين ان يحيوا ذكراها وان يتغنّوا بمكارمها واعمالها

الى ابن الشرق

قم احدّثك ان ترُمْ أخبارا عن زمان مضى وعهدٍ بعيدِ
قم احدِّثك عن بُناة المعالي عن ذوي البأس والحجى والجودِ
لا تقلْ قد مضوا وامسوا عظاماً باليات تحت الثرى في اللحودِ
كل شيء بالذكر يحيا فاحيِ اليوم يا شرقُ ذكرهم من جديدِ

رؤيا المجد القديم بين الطلول

انا في تَدْمُرٍ وحولي فيها فلواتٌ وارْبُعٌ خالياتُ
وطلولٌ فيهنَّ قد كتب الدهر عظاتٍ والزمان عظاتُ
صامتاتٍ للعين تبدو ولكن هنَّ بالصمت السنٌ ناطقاتُ
من ترى يسمع الطلولَ ويُصغي لحديث تقصُّهُ الحادثات

* * *

(1) عن المورد الصافي ٢٠٨-٢٠٩ . وقد نظمت هذه القصيدة على اثر زيارة الناظم لتدمر ١٩٢٢

من ترى يسمع الطلول ويُصغي ... لحديثٍ عن مجد تلك الطلولِ
يومَ كانت معالماً عامراتٍ ... زاهياتٍ بمجدهنَّ الأثيلِ
ايهِ يا عهدها القديم – الينا ... وأَلمَّ ساعةً بهذي السهولِ
فلعلَّ الشمس التي قد اضاءت ... فيك حيناً تعودُ بعد الأفولِ

* * *

قف قليلاً معي وسرّحْ طرفاً ... فوق هذي الرمال والفلواتِ
وتفرّس مثلي لعلك راه ... ما ارى من مواكبٍ ماثجاتِ
وخيولاً مطهماتٍ عليها ... نخبةٌ من فوارسٍ وكماةِ
وسيوفاً يبرقن في القفر زهواً ... حولَ عرشٍ يضيءُ كالنيّراتِ

* * *

ما ترى في القفار لي يتراءى ... من جموعٍ تسير خلف جموعٍ ؟
ما انا سامعٌ ؟ فثمَّ ضجيجٌ ... وهتافٌ يملا جميع الربوع
« ملكة الشرق » يهتفون جميعاً ... « فلتعش فلتعش بعزٍ منيع ! »
ملكة الشرق ايها الشرق فانهض ... ولدى عرشها فسر بخشوعٍ

* * *

« يا طلول الامجاد عادتْ فعودي ... انتِ للمجد بعد ذلّ وعارٍ !
يا ربوع الشآم عادت فعودي ... لحياةٍ وازهي بثوب اخضرارٍ !
يا ثنايا القفار عادت فعودي ... انتِ سيلاً من فضّة ونضارٍ !
يا بني الشرق ملكة الشرق فيكم ... فانهضوا فانهضوا لنيل الفخارِ » !

* * *

ذاك صوت بين الطلول تعالى ... وانا واقفٌ لديها حزينا
كلُّ تلك الآثار آياتُ وحيٍ ... ناطقاتٌ بها لمن يعقلونا
كل تلك الرسوم امجاد قوم ... درجوا قبلنا ونحن بقينا
ويحَ نفسي ماذا عسانا سنُبقي ... بعدنا للألى غداً يخلفونا

* * *

كان يومٌ لتدمرٍ فيه ضاءت ... في قديم الزمان شمس المعالي
رقيتْ للسِّماك حيناً وامسى ... اهلها الشهبَ في ظلام الليالي

وعليهم زنوبيا قد تعالت　بكمال النهى ونبل الخلال
قرنت ساحر الجمال بعزمٍ　وطموح وعفّة وجلال

* * *

ثم مدّت سلطانها كلّ صوبٍ　فترامت اطرافه في الجهاتِ
من شواطي البحر الكبير فوادي النيل حتى ضفاف نهر الفراتِ
ملكة الشرق اصبحت في بنيهِ　كعبةً للعلاء والمكرماتِ
ملكة الشرق هل يرى الشرق ايضاً　يومها ام مضى فليس بآتِ

* * *

ايها الشرق هل يجيء زمانٌ　فيك يحيا الملوكُ والابطالُ
فيك تنشا مؤسساتٌ عظامٌ　يتولّى زمامهنّ رجالُ
حين تمسي فيك النفوس كباراً　فتعزُّ الاقوال والافعالُ
حين تحيا حرّية النفس والفكر　وتسمو باهلك الآمالُ

* * *

ايها الشرق كم احدّثك عمّن　جُبلوا فيك من قديم العهودِ
عن نفوس كانت ترى الموت خيراً　من حياة تطول تحت القيودِ
عن قلوب كان الدم الذي فيها　قانياً يزدري بلون الورودِ
صافياً لا يشوبه من فسادٍ　ما يشوب الدم الذي في العبيدِ

* * *

تلك كانت زنوبيا وهي فينا — اليومَ رمز الكرامة القوميّة
روحها روح كل شعبٍ نبيل　يطلب المجد في حمى الحريه
فالى تدمرٍ هلمّوا جميعاً　خُشّعاً كلّ غدوة وعشيّة
ولنكرّم هناك مجداً رميماً　من بقايا امجادنا الشرقيّة

١٠خ٠م

باب المراثي

والمرثاة او المرثية هي كما يقول ابو الهلال العسكري مديح الميت فينبغي ان يتوخى فيها ما يتوخى في مديح الاحياء . على ان الرثاء عند التحقيق نوعان رثاء شخصي ورثاء عمومي . فالاول يتعلق بفقيد عزيز تربطه بالراثي روابط خاصة كالقربى او الصداقة مما يتولد عن فقده حزن وألم. والعادة القديمة انه اذا كان الراثي امرأة فانها تتفجع وتستبكي الآخرين وتندب ذاكرة مزايا الميت ومكارمه . واذا كان رجلاً عمد الى ذكر الفضائل والمكارم وقرن ذلك بوجوب التجلد وعدم الاستسلام لصروف الزمان وكثيراً ما يضرب الامثال بالامم الغابرة والعظماء الذين اخنى عليهم الزمان

واما الثاني فيختص بالشخصيات العامة كابطال الحرب ونوابغ العلم والادب وكبار الساسة والمصلحين . ورثاء هؤلاء يدور عادة على ذكر مآتيهم المجيدة وخدماتهم الممتازة ومكارمهم السامية وما كانوا يمثلونه في حياتهم من عزة قومية او مأثرة عمرانية

وقد يكون المرثي شخصاً معنوياً كالوطن او المروءة او الدين وغير ذلك مما يتوخى فيه اثارة النفوس والهمم لمناصرته او الاخذ بثأره او اعادة ما فقد منه

وكيفما كان الامر فالرثاء من اوسع ابواب الادب وقد اجاد ابناء العربية فيه كما ستري في ما اخترناه من المراثي المعروفة

رثاء معن بن زائدة

وهو امير عربي من بني شيبان ضرب به المثل في الجود ونبل الاخلاق . وقد عرف العهدين الاموي والعباسي ونال في كليهما حظاً كبيراً من رفعة المقام حتى اصبح منزله كعبة القصاد وموئل الادباء . وكان آخر عهده والياً على سجستان وهناك توفي قتيلاً على يد احد الخوارج وذلك سنة ١٥٢ هـ

وقد رثاه كثيرون من الشعراء منهم شاعره مروان بن ابي حفصة . ومن اقواله فيه (١)

مضى لسبيله معنٌ وابقى مكارمَ لن تبيدَ ولن تُنالا

(١) راجع القصيدة واخبار معن في وفيات الاعيان ج٢

كأنَّ الشمسَ يوم أُصيبَ معنٌ — من الإظلام مُلبسةٌ ظلالا
هو الجبلُ الذي كانت نزارٌ — تَهُدُّ من العدوّ به الجبالا
وعُطِّلت الثغورُ لفقد معنٍ — وقد يُروي بها الأَسَل النِهالا[1]
وأظلمتِ العراقُ واورثتها — مُصيبتهُ المجلّلةُ اعتلالا
وظلَّ الشامُ يرجف جانباهُ — لرُكنِ العزّ حين وهى فمالا
وكادت من تِهامة كلُّ ارضٍ — ومن نجدٍ تزول غداةَ زالا
فان يعلو البلادَ له خشوعٌ — فقد كانت تطول به اختيالا
اصابَ الموتُ يوم اصاب معناً — من الاحياء اكرَمهم فَعالا
وكان الناسُ كلُّهم لمعنٍ — الى ان زار حفرتهُ عِيالا
ولم يكُ طالبٌ للعرف[2] ينوي — الى غيرِ ابن زائدةَ ارتحالا
مضى من كان يحملُ كلَّ عبءٍ — ويسبقُ فضلَ نائله السؤالا
وما كانت تجفُّ له حياضٌ — من المعروف مترعةٌ سِجالا
مضى لسبيله من كنتَ ترجو — به عثراتِ دهرِك أن تُقالا
فلستُ بمالكٍ عبرات عينٍ — أَبت بدُموعها الأ انهمالا
وقلنا اين نرحلُ بعد معنٍ — وقد ذهبَ النوالُ فلا نوالا
سيذكركَ الخليفةُ غيرَ قالٍ — اذا هو في الامور بَلا الرجالا
ولا ينسى وقائعك اللواتي — على اعدائه جُعلت وبالا

وللحسين بن مُطَير فيه قوله —

أَلِمَّا على معنٍ وقولا لقبرهِ — سقتكَ الغوادي مربعاً ثمَّ مربعا
فيا قبرَ معنٍ كيف واريت جودهُ — وقد كان منه البحر والبرُّ مُترعا
ويا قبرَ معنٍ انت اوّلُ حفرة — من الارض خُطَّت للمكارم مضجعا
بلى قد وسعت الجودَ والجودُ ميّتٌ — ولو كان حيّاً ضِقت حتى تصدَّعا
فتىً عِيش في معروفه بعد موتهِ — كما كان بعد السيل مجراهُ مَرتعا
ولما مضى معنٌ مضى الجود وانقضى — وأصبح عرنين[3] المكارمِ أجدَعا

---

(١) الاسل النهالا — الرماح العطاش (٢) العرف المعروف (او العمل الطيب)
(٣) العرنين — الانف . وجدع انفه اي اصبح ذليلاً

مرثاة ابي تمام (وكان عمره ٢٣ سنة)

في محمد بن حُميد الطُوسي

والمرثيّ طائي وهو من كبار القادة . نظم الشاعر فيه هذه القصيدة المشهورة على اثر مصرعه في حرب بابك سنة ٢١٤ هـ. وبابك هذا زعيم فرقة تدعى الخُرّمية وكان قد ثار على العبّاسيين وظلّ اكثر من ٢٠ سنة يحارب رجالهم في ايران فلا ينالون منه طائلاً حتى غُلب على امره ايام المعتصم وقتل سنة ٢٢٣هـ.

كذا فليجلّ الخطب وليفدحِ الامرُ ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ
توفّيت الآمال بعد محمّد ... واصبح في شغل عن السفر السَّفْر
وما كان الأ مالَ من قلّ ماله ... وذخراً لمن امسى وليس له ذخر
وما كان يدري مجتدي جودِ كفِّهِ ... اذا ما استهلّت أنّهُ خُلق العسر (١)
ألا في سبيل الله من عطّلت له ... فِجاج سبيل الله والثغر الثغر
فتى كلّما فاضت عيون قبيلةٍ ... دماً ضحكت عنه الاحاديث والذِكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففي بأسِهِ شطرٌ وفي جودِهِ شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرِب سيفِهِ ... من الضرب واعتلّت عليه القنا السُمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّهُ ... اليه الحِفاظ المرُّ والخُلق الوعر
ونفسٌ تعاف العار حتى كأنّما ... هو الكفر يومَ الروع او دونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف الا واكفانه الاجر
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجى ... لها الليل الا وهي من سندسٍ خُضر (٢)
كأنّ بني نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خرّ من بينها البدر
يعزّون عن ثاوٍ تعزّى به العلى ... ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وانّى لهم صبراً عليه وقد مضى ... الى الموت حتى استشهدا هو والصبر

(١) المجتدي الطالب . استهلّ انصبّ كالمطر الشديد
(٢) اي قتل في ساحة الجهاد فلبس بعد الموت الثياب الخضر التي هي لباس اهل الجنة

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكنَّ كِبراً أن يقال به كِبر
فتى سلبتهُ الخيل وهو حمى لها ... وبزَّتهُ نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير في الوغى ... بواتر فهي الآن من بعده بُتر[1]
أمن بعد طيّ الحادثات محمداً ... يكون لاثواب الندى ابداً نشر
اذا شجرات العُرف جُذَّت اصولها ... ففي اي فرع يوجد الورق النضر ؟
لئن أبغض الدهر الخؤون لفقده ... لعهدي به ممن يُحبُّ له الدهر[2]
لئن غدرت في الروع ايامهُ به ... فما زالت الايام شيمتها الغدر
كذلك ما تنفكُّ نفقد هالكاً ... يشاركنا في فقدهِ البدو والحضر
سقى الغيث غيثاً وارت الارض شخصه ... وان لم يكن فيه سحاب ولا قطر

ابن الرومي يرثي ابنه

كان لابن الرومي ثلاثة اولاد مات اوسطهم (محمد) وهو حدث فجزع لذلك الشاعر كثيراً ورثاه رثاء الوالد الكسير القلب. ولا نعلم تماماً علة موته ولكن يظهر من القصيدة انه أصيب بنزف شديد قضى عليه وترك في نفس الوالد حسرة عليه تجسمت في هذه القصيدة

بكاؤكما[3] يشفي، وان كان لا يجدي ... فجودا ، فقد اودى نظيرُكما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حِمام الموت اوسط صبيتي ... فللهِ كيف اختار واسطة العقد !
على حين شِمتُ الخير من لمحاته ... وآنستُ من افعاله آية الرشد
طواه الردى عني فاضحى مزارهُ ... بعيداً على قربٍ قريباً على بعد
لقد قلَّ بين المهد واللحد لُبثهُ ... فلم ينس عهد المهد اذ ضُمَّ في اللحد
ألحَّ عليه النزف حتى احاله ... الى صفرة الجادي[4] عن حمرة الورد

---

(١) في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يثيرها فاصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها (٢) اذا ابغض الدهر اليوم لفقده فقد كان محمد سابقاً لكرمه ومآثره (٣) يخاطب عينيه (٤) الجادي الزعفران

وظلَّ على الايدي تَساقطُ نفسُهُ ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند
فيا لكِ من نفسٍ تَساقَطُ انفساً (١) ... تساقُطَ درٍّ من نظام بلا عقد

. . .

عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرَّني ان بعتُهُ بثوابهِ ... ولو أنه التخليد في جنّة الخلد (٢)
ولا بعتُهُ طوعاً، ولكن غُصبتُهُ ... وليس على ظلم الحوادث من مُعد
واني وان مُتّعت بابنيَّ بعدهُ ... لذاكره ما حنَّت النِيب في نجد (٣)
واولادنا مثل الجوارح (٤)، ايها ... فقدناه، كان الفاجعَ البيّنَ الفقد
لكلٍّ مكانٌ لا يسدُّ اختلالهُ ... مكانُ اخيه من جَزوعٍ ولا جلد
هل العين-بعد السمع-تكفي مكانه ... أم السمع-بعد العين-يَهدي كما تهدي
لعمري! لقد حالت بي الحال بعده ... فياليت شعري؟ كيف حالت به بعدي
ثكلت سروري كله، اذ ثكلتهُ، ... واصبحت في لذّات عيشي أخا زهد

* * *

أريحانةَ العينين والانف والحشا ... ألا ليت شعري هل تغيّرت عن عهدي
سأسقيك ماء العين-ما اسعدتْ به- ... وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي
أعينيَّ جودا لي، فقد جدت للثرى ... بأنفسَ مما تُسألان من الرفد (٥)
كأني ما استمتعت منك بضمّة ... ولا شمّةٍ في ملعبٍ لك او مهد
ألام لما ابدي عليك من الاسى ... واني لاخفي منك اضعاف ما أُبدي

* * *

محمدُ ما شيءٌ تُوهِّم سلوةً ... لقلبي، الا زاد قلبي من الوجد
ارى اخويك الباقيين كليهما ... يكونان للاحزان اورى من الزَّند

(١) فيا لك من نفس تذوي فتذوى معها نفوس كثيرة (٢) في هذا البيت وما يليه يقصد ان يقول انه وان كان مقامه دار الخلد فاني لافضل بقاءه معي (٣) النيب النياق. اي ساذكره دائماً (٤) الجوارح اعضاء الجسم (٥) اي فقد جدت للتراب بما هو انفس من الدمع الذي اسألكما ان تجودا به عليَّ

اذا لعبا في ملعبٍ لكَ لذّعا … فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حرارة … يهيجانها دوني واشقى بها وحدي
وانت وان أُفردتَ في دار وحشةٍ … فاني بدار الانس في وحشة الفرد
عليك سلام الله مني تحيّةً … ومن كل غيث صادق البرق والرعد

المتنبي في ابي شجاع فاتك الرومي

كان فاتك من كبار المماليك في مصر ولما استولى كافور الاخشيدي على ازمّة الاحكام انف الحياة السياسية واعتزل الى مزارعه في الفيوم · وكان مشهوراً بالمكارم والشجاعة وقد توفي سنة ٣٥٠ فقال المتنبي يرثيه ويعرّض بكافور

الحزن يُقلق والتجمُّل يردعُ … والدمع بينهما عصيٌّ طيّعُ
يتنازعان دموع عين مسهَّدٍ … هذا يجيءُ بها وهذا يرجع
النومُ بعد ابي شجاعٍ نافرٌ … والليل مُعيٍ والكواكب ظُلَّع (١)
اني لأجبن عن فراق احبّتي … وتُحسُّ نفسي بالحمام فاشجع
ويزيدني غضب الاعادي قسوة … ويُلمُّ بي عتب الصديق فاجزع
تصفو الحياة لجاهلٍ او غافلٍ … عمَّا مضى منها وما يُتوقَّع
ولمن يغالط في الحقائق نفسهُ … ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بنيانهِ … ما قومهُ ما يومهُ ما المصرع
تتخلَّف الآثار عن اصحابها … حيناً ويدركها الفناء فتتبع

* * *

لم يُرضِ قلبَ ابي شجاعٍ مبلغٌ … قبل الممات ولم يسعْهُ موضع
كنا نظنُّ دياره مملوءةً … ذهباً فمات وكلُّ دار بلقع

---

(١) والليل يطول كانه منهوك من التعب والكواكب كانها عرجاء لا تحسن السير

وإذا المكارم والصوارم والقنا وبنات أعوج كل شيء يجمع (١)

* * *

المجد اخسر والمكارم صفقة من ان يعيش لها الهمام الاروع
والناس انزل في زمانك منزلاً من ان تعايشهم وقدرك ارفع
برّد حشاي ان استطعت بلفظة فلقد تضر اذا تشاء وتنفع
ما كان منك الى خليل قبلها ما يستراب به ولا ما يوجع
ولقد اراك وما تلم ملمة الا نفاها عنك قلب اصمع
ويد كأن نوالها وقتالها فرض يحق عليك وهو تبرع
يا من يبدل كل يوم حلة أنى رضيت بحلة لا تنزع
ما زلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا تخلع
فظللت تنظر لا رماحك شرع فيما عراك ولا سيوفك قطع

* * *

بأبي الوحيد وجيشه متكاثر يبكي ومن شر السلاح الادمع (٢)
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع
قبحاً لوجهك يا زمان فانه وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل ابي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الاوكع (٣)
ابقيت اكذب كاذب ابقيته واخذت اصدق من يقول ويسمع
من كان فيه لكل قوم ملجأ ولسيفه في كل قوم مرتع
ان حل في فرس ففيها ربها كسرى تذل له الرقاب وتخضع
او حل في روم ففيها قيصر او حل في عرب ففيها تبع
قد كان اسرع فارس في طعنة فرساً ولكن المنية اسرع
لا قلبت ايدي الفوارس بعده رمحاً ولا حملت جواداً اربع

---

(١) كنا نظن دياره مملوءة بالاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع غير المكارم والسلاح والخيل (٢) افدي بابي هذا الفقيد الذي اصبح وحيداً مع كثرة جيشه الباكي عليه . ولكن الدموع لا تفيد شيئاً (٣) يقصد بالخصي الاوكع كافوراً

وقال يرثي والدة سيف الدولة (سنة ٣٣٧ هـ)

نُعِدُّ المشرفيَّةَ والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبطُ السوابقَ مُقرباتٍ وما يُنجين من خببِ الليالي
ومن لم يعشقِ الدنيا قديماً ولكن لا سبيلَ الى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهرُ بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ تكسَّرت النِّصالُ على النصال
وهان فما أُبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بان ابالي
وهذا اوَّل الناعين طُرّاً لاول مَيتةٍ في ذا الجلال
كأَنَّ الموتَ لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببال
صلاةُ الله خالقنا حَنوطٌ على الوجه المكفَّن بالجمال
على المدفون قبلَ الترب صوناً وقبل اللحد في كرم الخِلال
اطاب النفس أنكِ متِّ موتاً تمنّتـه البواقي والخوالي
وزُلتِ ولم تري يوماً كريهاً تُسرُّ النفسُ فيه بالزَّوال
رواق العزِّ فوقكِ مسبطرٌّ وملك عليٍّ ابنك في كمال
سقى مثواكِ غادٍ في الغوادي نظيرِ نوال كفّكِ في النوال(١)
أُسائل عنك بعدكِ كلَّ مجدٍ وما عهدي بمجدٍ عنك خال
يمرُّ بقبركِ العافي(٢) فيبكي ويشغَلُهُ البكاء عن السؤال
وما اهداكِ للجدوى عليه لو أنكِ تقدرين على فعال
بعيشك هل سلوت فانَّ قلبي وان جانبتِ ارضكِ غيرُ سال
نزلتِ على الكراهة في مكانٍ بعُدتِ عن النُّعامى(٣) والشَّمال

---

(١) سقى قبرك سحاب هاطل كجود كفّك

(٢) العافي طالب الرزق (٣) ريح الجنوب

تحجَّبُ عنكَ رائحةُ الخزامى ... وتمنعُ منكَ انداءَ الطِّلالِ
بدارٍ كلُّ ساكنها غريبٌ ... بعيد الدار منبتُّ الحبال
حصانٌ مثلُ ماءِ المزن فيه ... كتومُ السرِّ صادقة المقال
يعللها نطاسيُّ الشكايا ... وواحدها نِطاسيُّ المعالي[1]
اذا وصفوا له داء بثغرٍ ... سقاه اسنَّة الاسلِ الطوالِ
وليست كالاناث ولا اللواتي ... تُعَدُّ لها القبور من الحجال
ولا مَن في جنازتها تِجارٌ[1] ... يكون وداعُها نفضَ النعال
مشى الأُمراء حوليها حفاةً ... كأنَّ المروَ من زفِّ الرئال[3]
ولو كان النساء كمن فقدنا ... لفضِّلت النساء على الرجال
وافجعُ من فقدنا من وجدنا ... قُبيل الفقد مفقودَ المثال
يدفِّنُ بعضنا بعضاً وتمشي ... اواخرنا على هام الاوالي
وكم عينٍ مقبَّلة النواحي ... كحيلٌ بالجنادل والرمال
ومُغضٍ كان لا يغضي لخطبٍ[4] ... وبالٍ كان يفكر في الهُزال[5]
أسيفَ الدولة استنجد بصبرٍ ... وكيف بمثل صبرك للجبال
وانت تعلّم الناس التعزّي ... وخوض الموت في الحرب السجال
وحالاتُ الزمان عليك شتّى ... وحالك واحدٌ في كل حال
رأيتك في الذين ارى ملوكاً ... كأنك مستقيمٌ في مُحال
فان تفقِ الانام وانت منهم ... فانَّ المسك بعضُ دم الغزال

---

(١) يداويها طبيب الامراض ولكن ابنها طبيب المعالي
(٢) ليست ممن يمشي اهل السوق في جنازتها (٣) اي كأن الحجارة التي يمشون عليها ريش فراخ النعام (٤) وكم رجل كان لا ينكس راسه لخطب اصبح منكساً في القبر
(٥) وكم ممن كان يفكر كثيراً بصحته اصبح الآن بالياً في التراب

علوٌّ في الحياة وفي المات

لابي الحسن الأنباري يرثي محمد بن بُقية وزير عز الدولة ابن بويه. وكانت قد وقعت حرب بين عز الدولة وابن عمه عضُد الدولة ظفر فيها عضد الدولة فقبض على الوزير وقتله ثم صلبه . وقد بلغت هذه القصيدة من الشهرة والاستحسان اعظم مبلغ حتى يروى ان عضد الدولة لما وقف عليها قال لقد تمنيت ان اكون انا المصلوب وتكون هذه القصيدة فيَّ -

عُلوٌّ في الحيـاة وفي المماتِ ... لَحقٌّ تلك إحدى المعجزاتِ
كأن الناسَ حولك حين قاموا ... وُفود نَداكَ أيامَ الصِّلاتِ(١)
كأنك قـائمٌ فيهم خطيباً ... وكلهمُ قيـامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يديكَ نحوهمُ احتفاءً ... كمدِّهما اليهم بالهِبَاتِ
ولماَّ ضاقَ بطنُ الارض عن أن ... يَضمَّ عُلاكَ من بعد الوفاةِ
أصاروا الجوَّ قبرَكَ واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافياتِ
لِعظمك في النفوس بقيتَ تُرْعى ... بحُرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثِقاتِ
وتُوقدُ حولك النيران ليلاً ... كذلكَ كنتَ أيامَ الحيـاةِ
ركبتَ مَطيَّةً من قبلُ زيدٌ(٢) ... علاها في السنين الماضياتِ
وتلك قضيَّةٌ فيهـا تأسٍّ ... تُباعِدُ عنك تعيير العداةِ
ولم أرَ قبل جِذعكَ قطُّ جِذعاً ... تمكّن من عِناقِ المكرماتِ
اسأتَ الى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيلُ ثأرِ النائبـاتِ
وكنت تجير من صرف الليالي ... فصار مطالباً لك بالتِّراتِ(٣)
وصيَّر دهرُكَ الإحسانَ فيه ... الينا من عظيم السيِّئاتِ
وكنتَ لمعشرٍ سعـداً فلماَّ ... مضيت تفرَّقوا بالمنحسـاتِ
غليلٌ باطنٌ لك في فؤادي ... يُخفَّفُ بالدموع الجـارياتِ

---

(١) الصلات العطايا (٢) لعله يشير الى الامام زيد بن علي ابن الحسين الذي قتل صلباً ايام هشام بن عبد الملك الاموي (٣) التِّرة الثار

ولو أنِّي قدرتُ على قيامٍ بفرضكَ والحقوق الواجبات
ملأتُ الارضَ من نظم القوافي ونُحتُ بها خلاف النائحات
ولكني أُصبِّرُ عنك نفسي مخافةَ أن أُعدَّ من الجناة
وما لك تربةٌ فاقول تسقى لأنك نُصْبُ هطل الهاطلات
عليك تحيَّـةُ الرحمن تترى برحماتٍ غوادٍ رائحات

الشريف الرضي يرثي ابا اسحق الصابي

مات الصابي سنة ٣٨٤ ﻫ وكان رئيس الكتَّاب في ديوان الخلافة العباسية واحد المشهود لهم بحسن الراي وبلاغة الانشاء. وكان له – مع انه من الصابئة وهي فرقة دينية مستضعفة – مقام عالٍ عند رجال الدولة. وممَّن ربطتهم به رابطة المودَّة محمد بن ابي احمد الحسين العلوي وهو من ائمة الادب ومن نبلاء المسلمين. فلما مات الصابي رثاه بهذه القصيدة العامرة وهي اكثر من ثمانين بيتاً نثبت منها ما يلي –

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقعهِ متتابعَ الأزباد
ما كنتُ اعلم قبل دفنك في الثرى أنَّ الثرى يعلو على الأطواد
بُعداً ليومكَ في الزمان فانَّه اقذى العيونَ وفتَّ في الأعضاد(١)
لا ينفدُ الدمع الذي يُبكى به ان القلوبَ له من الأمداد
أعززْ عليَّ بان يفارق ناظري لمعانُ ذاك الكوكب الوقّاد
أعززْ عليَّ بان نزلت بمنزلٍ متشابهِ الأمجاد والاوغاد(٢)
مَن للبلاغة والفصاحة ان همى ذاك الغمام وعبَّ ذاك الوادي(٣)
من الممالك لا يزال يلمُّها بسداد امرٍ ضائعٍ وسداد

---

(١) فتَّ في عضده اضعفه (٢) اي القبر الذي لا فرق فيه بين الامجاد والاوغاد
(٣) اذا سال غمام الفصاحة وطمى واديها

انَّ الدموع عليك غيرِ بخيلةٍ   والقلب بالسلوان غيرِ جَواد
سوَّدتَ ما بين الفضاء وناظري   وغسلتَ من عينيَّ كل سواد
ماذا الذي حبسَ الجوادَ عن المدى   من بعد سبقتِهِ الى الآماد
ماذا الذي فجع الهمامَ بوثبةٍ   وعدا على دمه وكان العادي(١)
قلَصت اظلّةُ كلِّ فضلٍ بعدهُ   وأمرَّ مشربُها على الورّاد
يا ليتَ انّي مـا اقتنيتك صاحباً   كم قُنيةٍ جلبت اسىً لفوادي
بَرْدُ القلوب بمن تحبُّ لقاءه   مما يجرّ حرارة الاكباد(٢)
لا تطلبي يا نفس خلّا بعدهُ   فلَمثلُهُ اعيـا على المرتاد
ان لم تكن من أسرتي وعشيرتي   فلأنت أعلقُهم يداً بودادي
ضاقت عليَّ الارض بعدك كلُّها   وتركتَ اضيقها عليَّ بلادي
لك في الحشا قبرٌ وان لم تأوهِ   ومن الدموع روائحٌ وغوادي
ما مات من جعل الزمانَ لسانه   يتلو مناقبَ عوَّداً وبوادي(٣)
فاذهب كما ذهب الربيعُ وإثره   باقٍ بكلِّ خمائلٍ ونجـاد
وسقاك فضلك إنه اروى حياً   من رائحٍ متعرّس او غاد(٤)
جدثٌ—على ان لا نبات بارضهِ—   وقفتْ عليه مطالب الروّاد

---

(١) ما هذا الذي وثب على الهام وغلبه وقد كان ابداً هو الغالب

(٢) غبطة القلب بالمحبوب هي سبب الالم والحزن عند فراقه

(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه

(٤) فضلك اروى من السحاب الرائح والغادي

حكم المنيّة في البريّة جاري

لابي الحسن علي بن محمد التهامي . وهو شاعر لطيف النظم توفي قتلاً في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ وكان قد وصل اليها في مهمة سياسية خفية (١) . وهذه المرثاة في ولد له مات صغيراً وهي مشهورة بحسنها وروعتها تجمع بين الحزن والحكم والفخر وتزيد ابياتها على الثمانين نقتصر منها على هذه النخبة -

حكمُ المنية في البريّةِ جارِ ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
بَينا يُرى الانسانُ فيها مُخبِراً ... حتى يُرى خبراً من الأخبار
طُبعت على كدَرٍ وانت تريدُها ... صفواً من الأقذار والاكدار
ومكلِّفُ الايام ضد طباعها ... متطلِّبٌ في الماء جذوةَ نار
واذا رجوتَ المستحيلَ فانما ... تَبني الرجاءَ على شفيرٍ هار
فالعيش نومٌ والمنيّة يقظةٌ ... والمرءُ بينهما خيالٌ سار
فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما ... أعماركم سفرٌ من الاسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادِروا ... أن تُستَرَدَّ فانهنَّ عوار
فالدهر يَخدع بالمنى ويُغصّ ان ... هنَّا ويَهدمُ ما بَنى ببوار
ليس الزمان وان حرصت مسالماً ... خُلُقُ الزمانِ عداوة الأحرار
إني وُتِرتُ بصارمٍ ذي رونقٍ ... أعددتُه لطلابةِ الأوتار (٢)
والنفس ان رضيتْ بذلك اوأبتْ ... منقادةٌ بأزمّة المقدار

***

يا كوكباً ما كانَ أقصرَ عمرَهُ ... وكذاك عمرُ كواكب الاسحار
وهلالُ أيامٍ مضى لم يستدر ... بدراً ولم يُمهَل لوقت سرار (٣)
عَجِل الخسوفُ عليه قبل أوانهِ ... فمحاهُ قبل مظنّةِ الإبدار
واستُلَّ من أترابهِ ولِداتهِ ... كالمقلة استُلّت من الأشفار
فكأنّ قلبي قبرهُ وكأنّه ... في طيّه سرٌّ من الأسرار

---

(١) وفيات الاعيان ج ١-٥١٠ (٢) اعددته لطلب الثار (٣) السرار آخر ليلة في الشهر

ابكيه ثم اقول معتذراً له ... وُفقت حين تركت ألأمَ دار
جاورتُ اعدائي وجاوَرَ ربَّهُ ... شتَّان بين جِوارهِ وجِواري
أُخفي من البُرَحاء ناراً مثل ما ... يُخفي من النار الزّناد الواري
وأُخفِّض الزَفرات وهي صواعدٌ ... وأُكفكف العبرات وهي جوار
وشِهابُ نارِ الحزن ان طاوعتهُ ... أَورَى وإن عاصيتهُ مُتَواري
وأكُفُّ نيرانَ الاسى ولرُبما ... غُلِب التَّصبُّرُ فارتمتْ بشِرار
ثوبُ الرّياء يَشِفُّ عمّا تحتهُ ... واذا التحفتَ بهِ فانك عار
قصرَتْ جفوني أم تباعَدَ بينها ... أم صُوِّرتْ عيني بلا أشفار
أُحيي اللّيالي التِمَّ وهي تُميتني ... ويُميتُهن تبلُّج الأسحار
وطَري من الدنيا الشبابُ ورَوْقهُ ... فاذا انقضى فقد انقضت أوطاري
قصُرت مسافتهُ وما حسناته ... عندي ولا آلاؤه بقصار
نزداد هَمّاً كلّما ازددنا غِنىً ... والفقرُ كلُّ الفقر في الإِكثار
ما زاد فوق الزاد خُلِّفَ ضائعاً ... في حادثٍ او وارثٍ او عار
إِني لأَرحم حاسدِيَّ لحرِّ ما ... ضمِنتْ صدورهمُ من الأَوغار

دالِّية المعرّي

في رثاء صديق له

والمرثي من افاضل الفقهاء. وكان عزيزاً على المعرّي وقد خلَّد الشاعر ذكره بهذه القصيدة المشهورة . واساس شهرتها ما فيها من رقة العواطف وسموّ الفكر ولطف التعبير عن خوالج النفس المتألمة المتأملة

غيرُ مُجدٍ في ملّتي واعتقادي ... نَوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيِّ اذا قيسَ ... بصوت البشير في كلّ ناد
أَبكتْ تلكمُ الحمامةُ ام ... غنَّتْ على فرع غصنها الميّاد

صاحِ هذي قبورنا تملأُ الرحبَ فاينَ القبور من عهد عاد
خفّفِ الوطءَ ما أظنُّ اديمَ الـ ـأرض إلّا من هذه الاجساد
وقبيحٌ بنا وان قدُمَ العهـدُ هوانُ الآباء والاجداد
سر إنِ اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رُفات العبـاد
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحمِ الاضداد
ودفينٍ على بقـايا دفينٍ في طويل الازمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمَّن احسّاً من قبيلٍ وآنسا من بلاد[1]
كم اقاما على زوال نهـارٍ وانارا لمدلجٍ في سواد
تعبٌ كلّهـا الحياةُ فما اعجبُ الّاَ من راغب في ازدياد
إنَّ حزناً في ساعة الموت اضعا ف سرورٍ في ساعة الميلاد
خُلقَ الناس للبقاء فضلّت أُمّةٌ يحسبونهم للنفـاد
إنمـا يُنقلون من دار أعما لٍ الى دار شقوةٍ او رَشاد
ضجعةُ الموت رقدةٌ يستريح الجسمُ فيهـا والعيش مثل السُّهاد

• • •

أَبناتِ الهديل أَسعدْنَ او عدْنَ قليل العزاء بالإسعاد[2]
إيهِ لله دَرُّكنَّ فانتنَّ اللواتي تُحسنَّ حفظَ الوداد
ما نسيتنَّ هالكاً في الاوان الخالِ اودى من قبل هُلك إياد[3]
بيدَ أني لا ارتضي ما فعلتنَّ واطواقكنَّ في الاجياد
فتسلّبْنَ واستعِرْنَ جميعـاً من قميص الدُّجى ثياب حداد
ثمَّ غرّدنَ في المـآتم واندُبْنَ بشجوٍ مع الغواني الخِراد

• • •

قصدَ الدهرُ من ابي حمزة الأَوّا بِ مولى حجىً وخِدن اقتصاد[4]

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من احوال الناس
(٢) بنات الهديل الحمام . واسعدن اي ساعدن
(٣) اشارة الى ان الحمام لا تزال وفية تبكي هديلها الذي هلك سابقاً
(٤) ابو حمزة المرثي . اي اصابه الدهر وكان صاحب عقل وصلاح

انفقَ العمر ناسكاً يطلبُ العلمَ بكشفٍ عن اصله وانتقاد
ذا بنانٍ لا تلمسُ الذهبَ الاحمرَ زهداً في العسجدِ[1] المستفاد

. . .

ودِّعا ايها الحفيّان ذاك الشخصَ انَّ الوداعَ أيسرُ زاد
واغسلاه بالدمع ان كان طهراً وادفناه بين الحشى والفؤاد
واحبواه الاكفانَ من ورقِ المُصحفِ كِبراً عن أنفسِ الأبراد
واتلوا النعشَ بالقراءة والتسبيح لا بالنحيب والتعداد
اسفٌ غيرُ نافعٍ واجتهادٌ لا يؤدِّي الى غناء اجتهاد
طالما اخرجَ الحزينَ جوى الحزنِ الى غيرِ لائقٍ بالسداد
مثلما فاتتِ الصلاةُ سليمانَ فانحى على رقاب الجياد
وهوَ من سُخِّرتْ له الانس والجنُّ بما صحَّ من شهادة صاد[2]

. . .

كيف اصبحت في محلِّك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد
قد اقرَّ الطبيب عنك بعجزٍ وتقضّى تردُّد العوَّاد
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجد بأنْ لا مَعادَ حتى المعاد
هجدَ الساهرون حولك للتمريضِ ويحٌ لأعين الهجَّاد
كنت خِلَّ الصبا فلمَّا اراد البينَ وافقتَ رأيه في المراد[3]
ورأيتَ الوفاء للصاحبِ الاوَّلِ من شيمةِ الكريم الجواد
وخلعتَ الشبابَ غضاً فيا ليتكَ ابليتهُ مع الأنداد
فاذهبا خيرَ ذاهبَينِ حقيقَينِ بسُقيا روائحٍ وغواد
ومراثٍ لو أنهنَّ دموعٌ لمحَوْنَ السطور في الانشاد

. . .

(١) العسجد الذهب (٢) صاد — سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة ص اذ قيل (فسخرنا له الريح - الآية)
(٣) الضمير في اراد يرجع الى الصبا

زُحلٌ اشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المرّيخ من حدثان الدهر مُطفٍ وان علتْ في اتّقاد
والثريّا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعَدّ في الافراد
كلُّ بيتٍ للهدم ما تبتني الورقاء (١) والسيّد الرفيع العماد
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلّ السِدْر ضربَ الاطناب والاوتاد (٢)
بان امر الاله واختلف النا س فداعٍ الى ضلال وهاد
والذي حارت البريّة فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
واللبيب اللبيب مَنْ ليس يغترُّ بكونٍ مصيرهُ للفساد

رثاء الاندلس

لابي البقاء صالح الرَّندي المتوفى سنة ٧٩٨ هـ.

بلغت الاندلس العربيّة اوج مجدها ايام الملك الاموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠–٣٥٠ هـ) ثم اخذت بالتقهقر التدريجي وما زالت كذلك حتى تفرّقت امارات صغيرة متنافرة ممّا فتّ في عضدها وساعد الافرنج اخيراً على التغلب عليها . وقد عزّ على هذا الشاعر ان يرى اضمحلال الدولة الاندلسية فرثاها بقصيدة مؤثرة قال فيها –

لكلّ شيءٍ اذا ما تمّ نُقصانُ فلا يُغَرَّ بطيب العيش انسانُ
هي الامور كما شاهدتها دُوَلٌ مَنْ سرّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمان
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شان

وبعد ان يذكر الدول البائدة وملوكها يقول

اتى على الكلّ أمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قضَوا فكأنّ القوم ما كانوا

(١) الورقاء الحمامة (٢) والانسان راحل يغنيه ظلّ السدر (وهو شجر النبق) عن ان يبتني المنازل اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب ان لا يهتم بها

وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطَّيف وَسنان
فجائعُ الدّهر أنواعٌ مُنوَّعة ... وللزَّمان مسرّاتٌ وأحزان
وللحوادث سُلوانٌ يُسهّلها ... وما لما حلّ بالاسلام سُلوان
دَهى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ له ... هَوى لهُ أُحدٌ وانهدّ ثهلان(١)
تبكي الحنيفيَّةُ البيضاء من أَسَفٍ ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد أقفرتْ ولها بالكفر عُمران

وهنا يلتفت الى امراء المسلمين في افريقيا وسواها يستفزّ همتهم للاتحاد والاخذ بالثأر

يا غافلاً وله في الدّهر موعظة ... ان كنت في سِنَةٍ فالدّهرُ يقظان
تلك المصيبة أنست ما تقدَّمها ... وما لها من طوال الدّهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السبق عِقبان
وحاملين سيوف الهند مُرهفةً ... كأنها في ظلام النّقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطان
أعندكم نبأٌ من أهل أندلسٍ ... فقد سرى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنا المُستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتزّ انسان
ماذا التّقاطع في الاسلام بينكمُ ... وأنتمُ يا عباد الله إخوان
ألا نُفوسٌ أبيَّات لها هِممٌ ... أما على الخير انصارٌ وأعوان
يا من لِذلّةِ قومٍ بعد عزّهمِ ... أحال حالَهمُ جورٌ وطُغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفر عُبدان
ولو رأيت بُكاهم عند بيعهمِ ... لهالك الأمرُ واستهوتك أحزان
لمثل هذا يذوبُ القلب من كمدٍ ... ان كان في القلب إسلام وإيمان

---

(١) احد وثهلان جبلان

رثاء مصطفى كامل باشا(1)

لحافظ ابرهيم

مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر وزعيم المناوئين للاحتلال ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مِصقعاً وصحافياً واسع النفوذ . واليـه يرجع الفضل في اذكاء روح القومية المصرية وتوحيد صفوفهـا للمطالبة بحقوقها . توفي سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبياً مشهوداً وقد عمَّ الحزن عليه مصر بل جميع الاقطار العربية ورثاه الادب العربي في كل مكان . ومما قيل فيه قصيدة حافظ التالية –

ويا قبر هـذا الضيف آمال امةٍ ... فكبّرْ وهلّلْ والقَ ضيفك جاثيـا
عزيزٌ علينا ان نرى فيك (مصطفى) ... شهيد العلى في زهرة العمر ذاويـا
أيا قبرُ لو انّا فقدناهُ وحـده ... لكان التأسي من جوى الحزن شافيا(1)
ولكن فقدنا كل شيء بفقـده ... وهيهات ان يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلي اين المروءة والوفـا ... واين الحجا والرأي ؟ ويحك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كلَّ صائح ... فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا(2)
ومات الذي احيا الشعور وساقه ... الى المجد فاستحيا النفوس البواليا(3)
مدحتُكَ لما كنت حياً فلم أجدْ ... واني أُجيد اليوم فيك المراثيـا
عليكَ ، والا ما لذا الحزن شاملاً ... وفيك، والا ما لذا الشعب باكيا(4)
يموت المداوي للنفوس ولا يرى ... لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً ... فاسهدتنا حزناً وامسيت غافيـا

(1) التأسي : اقتداؤك بمن سواك في الصبر على المصائب . وجوى الحزن : حرقته

(2) الضمير في « لهم » : للانجليز

(3) استحياه اي احياه . والاستحياء (لغة) : الاستبقاء ؛ يقال : استحيا فلان فلاناً ، اذ ابقاه حياً

(4) عليك ، اي عليك الحزن ، وفيك ، اي فيك البكاء.

شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا   يرنُّ كما قد كان بالامس داويا
يُهيب بنا هذا بناءٌ اقمته   فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا(١)
يصيح بنا : لا تشمروا الناس انني   قضيتُ وان الحي قد بات خاليا(٢)
يُناشدنا بالله ألاَّ تفرَّقوا   وكونوا رجالاً لا تسرُّوا الأعاديا
فروحي من هذا المقام مطلةٌ   تشارفكم عني وان كنت باليا(٣)
فلا تحزنوها بالخلاف فانني   أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا
أجلْ ، ايها الداعي الى الخير اننا   على العهد ما دمنا فنم انت هانيا
بناؤك محفوظٌ ، وطيفك ماثلٌ   وصوتك مسموعٌ ، وان كنت نائيا
عهدناك لا تبكي وتُنكر ان يُرى   اخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غدٍ   ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا
فيا نيل ان لم تجرِ بعد وفاته   دماً احمراً لا كنت يا نيلُ جاريا
ويا (مصر) ان لم تحفظي ذكر عهده   الى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويأهل (مصرٍ) ان جهلتم مصابكم   ثقوا ان نجم السعدِ قد غارَ هاويا
ثلاثون عاماً بل ثلاثون درَّةً   بجيد الليالي ساطعات زواهيا(٤)
ستشهدُ في التاريخ انك لم تكن   فتىً مفرداً بل كنت جيشاً مُغازيا

---

(١) اهاب به : صاح به ودعاه (٢) قضى : مات (٣) شارفه : نظر اليه من علو
(٤) توفي مصطفى كامل باشا عن اربعة وثلاثين عاماً ، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبي

رثاء فيصل الاول ملك العراق

لبشاره الخوري

الملك فيصل الاول اثر خالد في العالم العربي فقد كان قائد الثورة التي اعلنها والده الملك حسين سنة ١٩١٦ على الاتراك والعامل الاكبر في بناء النهضة القومية العربية . ولما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها سنة ١٩١٨ عُهد اليه بامارة سوريا ولم يلبث ان انتخبه السوريون ملكاً عليهم . ثم حدث ما حدث من دخول فرنسا دمشق سنة ١٩٢٠ فلم يرَ بدّاً من ترك سوريا . وفي ١٩٢١ دعاه العراقيون الى عرش العراق وكان في كلا العهدين السوري والعراقي مثال الجدّ والحنكة السياسية والاخلاق الكريمة . ولم يزل يجدّ في سبيل القضية العربية حتى قضى فجأةً وهو في سويسرا (وذلك سنة ١٩٣٣) فكان الحزن عليه شاملاً واشتركت جميع الاقطار والمهاجر العربية في اقامة حفلات التأبين له . وها نحن نثبت هنا نخبة من قصيدة بشاره الخوري التي القاها في حفلة بغداد الكبرى

ابستْ بعدكَ السوادَ العواصمْ ... واستقلّتْ لك الدموعَ المآتمْ
ودّ لو يفتديكَ صقر قريشٍ ... بالخوافي من الردى والقوادم
دار هولُ المصاب حتى احتوى الكونَ كما ... دار بالاصابع خاتم
فاذا البحر مُثقل الصدر بالاحزان والافق ... شاحب الوجه ساهم
واذا انت لا ترى غير رأسٍ ... مطرق وارم المحاجر واجم
أسنِدوا البيت بالصدور فقد ماد ... وخانت جدرانهنّ الدعائم
وامنعوا « القبر » ان يلمّ به النا ... عي فينمى الى الرسول القاسم [1]

وبعد ان يصف مكارم الفقيد ومكارم آبائه يذكر ماكان للعرب من احلام وضاءة بفيصل ومن امل بارجاع ملك الرشيد يقول –

املٌ طاف بالجزيرة ريّانَ ... طليق الهوى طليق الكمائم

---

(١) يريد بالبيت البيت الحرام وبالقبر قبر الرسول وفحوى الكلام لا توصلوا الخبر الفاجع الى قبر النبي فان فيصلاً بمثابة القاسم (اي ابن النبي)

حشد العُربَ تحت رايتـه السمحاء والعدلَ والعلى والمكارم
واستردَّ الاجيال من مُضر الـحمراء والشعرَ والحجى والمواسم
املٌ كالسماء في بسمة الـفجر وفي موكب الرياض الفواغم
فرَّ مذ مُدَّت الاكفّ اليه   كفرار النعيم من كف حالم
حدَّثونا عن الحقوق فلما   كبر النصر احوجتنا التراجم (١)
نفحتنا بها الحروبُ سلاماً   ورمانا بها السلام اداهم (٢)

. . .

حدِّثونا عن يوم فيصلَ ، عن   بغداد ، عن شمسها وراء الغمائم
وعن البحر من اناسٍ وخيل   وعن الافق من لظى وزمازم
وعن النعش اذ دنا وتدلّى   من (توارٍ) فوق الربى والجماجم
قد حملنا الشآم من طرفيها   فوق بحر من الاسى متلاطم
وسفحنا في دجلةٍ قلبَ لبنا   نَ واجفانه الهوامي الهوائم
عربيٌ النجار شد عراهُ   باللواءين عبد شمس وهاشم (٣)
خذ بهمس القلوب في اذن الحب ودعْ عنك كاذبات المزاعم (٤)

. . .

حدِّثونا عن يوم فيصل ، عن   بغداد ، عن فتكة القضاء الغاشم
وعن النسر كيف حلّق وانقضّ مَهيضَ الجناح دامي القوائم
رجَّةٌ أجفل الكواسرُ منها   ورمى الذعرُ في العرين الضراغم
واشرأبَّ الوجود ينظر للنسر على ذروة العروبة جاثم
مدَّ فوق الثرى جناحاً والقى   شامخاً ما له من الموت عاصم
حاملاً ملء ثوبه من جراحات الليالي ومن غبار الملاحم
مُطبَق الناظرَين الا بقايا   من شعاعٍ حول المحاجر هائم
ان غفا ناظراه فالروح سهرا   نُ على العرش فهو يقظان نائم
هكذا مصرع النسور وسادٌ   من جلالٍ وقبَّة من طلاسم (٥)

(١) اي حدَّثنا الحلفاء في ابّان الحرب بحقوقنا في الملك والسيادة فلما تم النصر صاروا يحدثوننا بلغة لا تفهم   (٢) اداهم اي قيود   (٣و٤) اي ان لبنان عربي النسب يشدّ عراه بقريش فلا تصغ الى غير ما تتناجى به قلوب الشعب   (٥) الطلاسم اشكال سحرية ترسم لدفع الاذى

باب
الفخر وشكوى الزمان

الفخر هو ان يتمدَّح الانسان بمكارمه او بمكارم اسلافه . ولا يعدّ عادةً عن باب الكياسة او اللياقة بل لا يُتسامح به الاَّ في الشعر حيث يصبح فنًّا يراد به وصف مزايا النفس العليا والحضّ على التحلّي بها . والفخر قديم جدًّا في الشعر العربي لم يخلُ منه عصر من العصور وقلّما تجد شاعراً لا يتحدث عن نفسه او عن قومه . وهو انواع اهمها –

الفخر الحماسي – كالتمدّح بالبأس في الحرب والشجاعة في مجابهة الاهوال والتفوّق على الاعداء.

الفخر الخلقي – او التحلّي بالاخلاق الحميـدة من كرم وحِلم واحتمال ومروءة وحسن نظر وما الى ذلك

الفخر القومي – اي المباهاة بعشيرة الرجل او قومه وابراز محامدهم ومآثرهم والتنويه بابطالهم وعظمائهم وما يرجى للناس على ايديهم

وكثيراً ما يقترن الفخر بذم الزمان والتشكّي من حدثانه كأن الزمـان خصم الدّ للشاعر ابداً يعاكسه رامياً اياه بالنائبات او صادًّا اياه عن سبيل التقدم او حائلاً بينه وبين مراده وامانيه

ولقد تبلغ الشكوى في نفس الشاعر مبلغهـا فيتّهم الزمان بممالأة الاسافل ومحاربة الافاضل والعمل على نشر الفساد بين العباد . ولا غرابة فالشاعر بطبيعته حادّ الشعور شديد التأثر بالسيئات وهو كأهل الفن عموماً لا يرى من انصاف في معاملة الناس له وفي تقديرهم اعماله . وذلك إمَّا ان يدفعه في سبيل التشاؤم فيذم الحياة وما فيها ، واما في سبيل الاعتزاز فيُدلّ بنفسه ومآتيها ويصوّر لك من محامده ما يُحبّب اليك صفـاتِ الاماجد ويطربك بتغنيه بالمكارم والمحامد

نخبة من معلقة عمرو بن كلثوم

وهو من الجاهلية . توفي حوالي سنة ٦٠٠ م وكان سيد بني تغلب معروفاً بالانفة وعزة النفس . وقد نظمها كما يروون على اثر حادثة جرت له مع عمرو بن هند ملك الحيرة(١) وكان الملك قد حاول اهانته فضربه الشاعر بالسيف ونجا . ثم قال مفاخراً -

أبا هندٍ فلا تَعجَلْ علينا ... وأنظِرنا نُخبِّركَ اليقينا (٢)
بأنَّا نُورِدُ الراياتِ بيضاً ... ونُصدِرهنَّ حمراً قد روينا
وايامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ ... عصَينا المَلْكَ فيها ان نَدينا (٣)
نُطاعِنُ ما تَراخى الناسُ عنَّا ... ونضربُ بالسيوف اذا غُشينا (٤)
وانَّ الضِغْنَ بعد الضِغنِ يبدو ... عليك ويخرج الداء الدفينا
ألا لا يجهلَنْ احدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا
بأيِّ مشيئة عمرو بن هندٍ ... تُطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا
تهدِّدُنا وتوعدُنا رويداً ... متى كنا لأُمِكَ مَقتوينا (٥)
فإنَّ قناتنا يا عمرو اعيت ... على الاعداء قبلك ان تَلينا (٦)

ومنها يخاطب قبيلة بكر

اليكم يا بني بكرٍ اليكم ... ألمَّا تعرفوا منا اليقينا (٧)
ألمَّا تعرفوا منَّا ومنكم ... كتائبَ يطَّعِنَّ ويرتمينا
وقد علم القبائل من مَعَدٍّ ... اذا قُبَبٌ بأبطحها بُنينا (٨)
بأنَّا المطعمون اذا قدرنا (٩) ... وأنَّا المهلكونَ اذا أُبتلينا
وأنَّا المانعونَ لما اردنا ... وأنَّا النازلون بحيث شِينا

(١) راجع سيرته ومعلقاته في الاغاني للاصفهاني وشرح المعلقات للزوزني وسواهما

(٢) انظرنا اي امهلنا (٣) الغرّ البيض اي المشهورة . ومعنى البيت وفي تلك الايام عصينا الملك لكرهنا ان نتذلل له (٤) اي اذا ابتعد الناس عنا طعناهم بالرماح واذا هاجمونا فبالسيوف (٥) مقتوينا اي خداماً (٦) القنـاة قصبة الرمح ومعناه ان الاعداء حاولوا اذلالنا فلم يستطيعوا ذلك (٧) لما اي لم . بكر قبيلة معادية لقبيلة الشاعر (٨) معدّ قبيلة مشهورة الابطح المكان الواسع (٩) قدّرنا اي طبخنا الطعام بالقدور

وأنّا التاركونَ اذا سخِطنا وأنّا الآخذونَ اذا رضينا
ونشربُ ان وردنا الماء صفواً ويشربُ غيرنا كدَراً وطينا
اذا ما المَلْك سام الناس خسفاً أبينا ان نُقرِّ الذلّ فينا (١)
ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وماء البحر نملأهُ سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ تخِرُّ له الجبابر ساجدينا

نخبة من قصيدة السموأل الفخرية

السموأل صاحب الابلق الفرد بتيماء وهو امير جاهلي اشتهر بالوفاء والمحافظة على العهد ويروون عنه ان امرأ القيس استودعه دروعه وامواله فآثر ان يُقتل ابنه على ان يسلمها لعدوّه وحكايته مشهورة

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرضهُ فكلُّ رداء يرتديهِ جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليسَ الى حُسنِ الثناء سبيل (٢)
تُعيّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليل
وما قلَّ مَن كانت بقاياه مِثلنا شبابٌ تسامى للعلى وكهول
لنا جبلٌ يحتلُّه من نجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليل
رسا أصلهُ تحتَ الثرى وسما بهِ الى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويل
وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبّةً اذا ما رأتهُ عامرٌ وسلول
يُقرّبُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهُهُ آجالهم فتطول
وما مات منّا سيّدٌ حتفَ أنفهِ ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيل (٣)
تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا وليست على غير الظُّباتِ تسيل (٤)

(١) سام الناس خسفاً اي اذاقهم الذل (٢) الضيم الاذى اي لا يحمد الانسان الاّ اذا احتمل الاذية والمصاب (٣) طل القتيل اذا لم يؤخذ بثاره او لم تدفع ديته
(٤) الظبات شفار السيوف

وَنُنكِرُ إنْ شِئْنا على الناس قولهم ... ولا يُنكرون القول حين نقول
اذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ ... قَؤُولٌ لما قالَ الكرامُ فَعُول
وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دون طارقٍ ... ولا ذَمَّنا في النازلين نَزِيل
وأيّامُنا مشهورةٌ في عدوّنا ... لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجول[1]
وأسيافُنا في كل غربٍ ومَشرقٍ ... بها من قِراع الدّارعين فلول[2]
مُعَوَّدةٌ انْ لا تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغْمَدَ حتى يُستباحَ قبيل
سلي انْ جَهِلتِ الناسَ عنّا وعنهمُ ... وليس سَواءً عالمٌ وجَهُول
فانَّ بني الديّان قُطبٌ لقومهم ... تدورُ رحاهم حولهم وتجول[3]

من فخريات عنترة بن شداد

عنترة اشهر فرسان الجاهلية وهو شاعر رقيق واكثر شعره – او ما نسب اليه من الشعر – في حبه لابنة عمه عبلة وفخره بوقائعه الحربية ومكارمه الشخصية . قال من قصيدة له في معركة تعرف عندهم بيوم المصانع

اذا كشفَ الزّمانُ لك القناعا ... ومدَّ اليك صَرْفُ الدهرِ باعا[4]
فلا تَخشَ المنيّةَ والتقيها ... ودافع ما استطعتَ لها دفاعا[5]
ولا تختَرْ فراشاً من حريرٍ ... ولا تبكِ المنازل والبقاعا
وفي يوم المَصانع قد تركنا ... لنا بفعالنا خبراً مُشاعا
أقمنا بالذّوابل سُوق حَرْبٍ ... وصيّرنا النفوسَ لها مَتاعا[6]
حِصاني كانَ دلاّلَ المنايا ... فخاضَ غُبارها وشرى وباعا
وسيفي كانَ في الهيجا طبيباً ... يُداوي راسَ مَنْ يشكو الصُّداعا

(١) اي وقائعنا معلمة واضحة (٢) الدارع اي لابس الدرع
(٣) الديّان عشيرة الشاعر ، وقطب العشيرة اي مركزها الرئيسي
(٤و٥) اي اذا تنكر لك الزمان واخذ في معاكستك فلا تخشَ بل دافع بكل قوّتك
(٦) في البيتين جعل المعركة سوقاً سلعها او بضائعها النفوس وحصانه دلال النفوس

انا العبدُ الذي خبرتَ عنه وقد عاينتني فدع السّماعا
ولو أرسلتُ رُمحي مع جبانٍ لكانَ بهيبتي يلقى السّباعا
ملأتُ الارضَ خوفاً مِن حُسامي وخصمي لم يجدْ فيها اتّساعا
اذا الأبطالُ فرّتْ خوفَ بأسي ترى الاقطارَ باعاً او ذراعا

ومن قوله

حاربيني يا نائبات الليـالي عن يميني وتارةً عن شمالي
وأجهدي في عداوتي وعنادي أنتِ والله لم تُلمّي ببالي
إنَّ لي هِمّةً أشدَّ من الصّخرِ وأقوى من راسياتِ الجبال
وسِناناً اذا تعسّفتُ في اللّيـل هداني وردّني عن ضلالي
وجواداً ما سارَ الا سرَى الـبرقُ وراهُ من اقتداح النّعال[1]
أدهمٌ يصدعُ الدّجى بسوادٍ بينَ عينيه غُرّةٌ كالهلال

...

يا سباعَ الفلا اذا اشتعلَ الحرب اتبعيني مِنَ القفار الخوالي
إتبعيني ترَيْ دمـاء الأعادي سائلاتٍ بين الرّبى والرّمال
ثمَّ عودي من بعد ذا واشكريني واذكري ما رأيته مِن فعالي
وخذي من جماجم القوم قوتاً لبنيك الصغار والأشبال

---

(١) شبه ما يتطاير من الشرر من وقع نعال فرسه بالبرق

المتنبي يفاخر الدهر

المتنبي اشعر شعراء العرب واكثر شهرته في الحكم والامثال . ولد بالكوفة وكان فارساً شديد الطموح الى العلى . وبعد ان قضى سني شبابه يتردَّد في اقطـار الشام لزم سيف الدولة امير حلب ومدحهُ ونال منه العطايا الوافرة . ثم دخل بينهما المفسدون فاضطر ان يتركه ويقصد كافوراً سيّد مصر وكان يؤمل ان ينال من كافور ما تطمح اليه نفسه من الامارة فلم ينجح . فهجر مصر الى العراق ثم زار فارس وفي عودته منها الى العراق قُتل وذلك سنة ٣٥٢ هـ

والمتنبي عدد كبير من الابيات الجارية على الالسنة مجرى الامثال وشعره من الطبقة الاولى وهو برغم ما فيه من المغالاة في المدح والهجاء مفعم بعزة النفس وحكمة الاختبار معروف بحسن الوصف ودقة التصور . واليك قطعتين من فخرياته المعروفة

من قصيدة في علي بن احمد الانطاكي

أطاعِنُ خيلاً من فوارِسها الدَّهرُ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجعُ مني كلَّ يومٍ سلامتي ... وما ثبَتَت إلاَّ وفي نفسها أمرُ (١)
تمرَّستُ بالآفات حتى تركتُها ... تقولُ أماتَ الموتُ ام ذُعِرَ الذُّعرُ (٢)
وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ كأنَّ لي ... سوى مُهجتي او كانَ لي عندها وِترُ (٣)
ذَرِ النفسَ تأخذُ وُسعَها قبل بينها ... فمُفترقٌ جارانِ دارُهما العُمرُ (٤)
ولا تحسبَنَّ المجد زِقّاً وقينةً ... فما المجدُ الاَّ السيفُ والفَتكة البِكرُ (٥)
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وإن تُرى ... لكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعسكرُ المَجرُ (٦)

(١) ما بقيت لي السلامة الا لامر عظيم سيجري على يدي (٢) تمرَّست تحككت
(٣) الاتي السيل . والوتر الثأر اي كأنَّ لي قلباً ثانياً او كانني اود الانتقام منه
(٤) يريد بالجارين الروح والجسد اللذين يجتمعان مدة العمر
(٥) الزق وعاء للخمر . القينة الجارية المغنية والبكر التي لا مثيل لها
(٦) الهبوات غبرات الحرب . المجر الكثير يريد ان تكون ذا بطش في الحروب

وتركُكَ في الدُّنيا دويّاً كأنَّما تداوَلَ سمعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ

. . .

اذا الفضل لم يرفعكَ عن شكرِ ناقصٍ على هِبَةٍ فالفضلُ فيمن لهُ الشُّكرُ
ومَن يُنفِق الساعاتِ في جمعِ مالِهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فَعَلَ الفقرُ
وكم من جبالٍ جُبتُ تشهد أنني الجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ
وما زلتُ حتى قادني الشوقُ نحوهُ يسايرني في كلِّ ركبٍ لهُ ذِكرُ
وأستكبرُ الاخبارَ قبلَ لقائِهِ فلما التقينا صغَّرَ الخبرَ الخُبرُ (١)

. . .

دَعاني اليكَ العلمُ والحلمُ والحجى وهذا الكلامُ النظمُ والنائلُ النثرُ (٢)
وما قلتُ من شعرٍ تكاد بيوتُهُ اذا كُتِبَت يبيضُّ من نورها الحِبرُ
كأنَّ المعاني من فصاحةِ لفظها نجومُ الثريّا او خلائقكَ الزُّهرُ
وجنَّبني قرب السلاطين مقتُها وما يقتضيني من جماجِمِها النَّسرُ (٣)
وإني رأيتُ الضُّرَّ احسنَ منظراً وأهونَ من مرأى صغيرٍ به كِبرُ
وما انا وحدي قلت ذا الشعر كلَّهُ ولكن لِشعري فيكَ من نفسهِ شِعرُ
وإنيَ لو نلتَ السماءَ لعالِمٌ بأنكَ ما نلتَ الذي يوجِبُ القدرُ

من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة

وكان قد ظن الحيف عليه وشعر بفتور الامير وتحامل حساده عليه في حضرته

يا أعدَلَ الناس إلاَّ في معاملتي فيكَ الخِصامُ وانتَ الخصمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أن تحسَبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ ورَمُ (٤)
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظرهِ اذا استوَتْ عندهُ الانوارُ والظُّلَمُ (٥)
سيعلمُ الجمعُ مِمَّن ضمَّ مجلسُنا بانني خيرُ من تسعى بهِ قدَمُ
انا الذي نظرَ الاعمى الى ادبي واسمعتْ كلماتي مَن به صَمَمُ

---

(١) الخبر الاختبار (٢) النائل النثر العطايا المنثورة
(٣) يبعدني عن بقية الملوك كرهي لهم ومطالبة النسور اياي بدمائهم
(٤) اعيذ نظراتك الصادقة ان لا تميز بين الشحم والورم اي بيني وبين المتظاهرين بحبك
(٥) الناظر اي العين

انامُ ملء جفوني عن شواردِها   ويَسهرُ الخلقُ جَرّاها ويَختصم (١)

...

وجاهلٍ مدَّهُ في جهلهِ ضحكي   حتى أتتهُ يدٌ فرّاسةٌ وفمُ (٢)
اذا رأيتَ نيوبَ الليث بارزةً   فلا تظننَّ انَّ الليثَ يبتسِمِ
ومُرهفٍ سرتُ بين الجحفلين بهِ   حتى ضربتُ وموجُ الموت يلتطم (٣)
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني   والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلم
صحبتُ في الفلوات الوحش منفرداً   حتى تعجّبَ مني القُورُ والأكم (٤)

...

يا مَنْ يعزُّ علينا ان نفارقهم   وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عدم
ما كان اخلقَنا منكم بتكرمةٍ   لو أنَّ امركُمُ من أمرنا أمم (٥)
إن كانَ سرَّكمُ ما قالَ حاسدُنا   فما لجرحٍ اذا ارضاكمُ الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ   إنَّ المعارفَ في اهل النُّهى ذِمم (٦)
كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم   ويكرَه الله ما تأتون والكرم
ما ابعدَ العيبَ والنقصانَ من شرفي   انا الثريّا وذانِ الشيبُ والهرَم (٧)
ليتَ الغمامَ الذي عندي صواعقُهُ   يزيلُهنَّ الى من عندَهُ الدِيَم (٨)
ارى النوى تقتضيني كلَّ مرحلةٍ   لا تستقلُّ بها الوَخّادةُ الرُّسُم (٩)
اذا ترَحّلتَ عن قومٍ وقد قدَروا   ان لا تفارقهم فالراحلون هُمُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به   وشرُّ ما يكسِبُ الانسانُ ما يَصِم (١٠)
وشرُّ ما قنصَتهُ راحتي قنصٌ   شُهبُ البُزاةِ سواءٌ فيهِ والرَّخم (١١)
بأيِّ لفظٍ تقول الشعر زِعنِفةٌ   تجوزُ عندكَ لا عُربٌ ولا عجم (١٢)
هذا عِتابكَ إلاَّ أنَّهُ مِقةٌ   قد ضُمِّنَ الدرَّ إلاَّ انهُ كَلِم (١٣)

(١) انام ملء جفوني عن شوارد الشعر لاني ادركها متى شئت وغيري يسهرون ويتنازعون عليها
(٢) وكم جاهل اغترّ بضحكي له حتى بطشت به (٣) المرهف اي السيف
(٤) القور الاراضي السوداد ويروى الغور (٥) امم اي قريب
(٩) اي ان المعرفة بين اثنين بمثابة ذمة وعهد (٧) اي اني بعيد عن العيب والنقصان بعد الثريا عن الشيب والهرم (٨) ليت الغمام يعني سيف الدولة يحوّل صواعقه عني الى من خصهم بامطاره اي بانعاماته — يريد حساده (٩) ارى البعد عنكم يكلفني كل مرحلة بعيدة لا تقوم بقطعها النياق السريعة الشديدة (١٠) يصم يعيب اي شر كسبٍ هو ما يلحق العار بصاحبه (١١) سواء فيه البازي الاشهب والرخم الذي هو طائر صغير (١٢) زعنفة اوباش (١٣) مقة — محبة

من مفاخر ابي فراس

هو ابن عم سيف الدولة الامير الحمداني المشهور ويعدّ من الطبقة الاولى في الشعر حتى قيل : بُدئَ الشعر بملك (اي بامرىء القيس) وختم بملك (اي بأبي فراس) (١) . وكان فارساً مشهوداً له بالشجاعة والأنفة والاقدام . ولا بدع فهو ابن امير وتظهر عزّة نفسه في اقواله كما تظهر في افعاله . واليك شيئاً من فخرياته . قال وقد اسره الروم في احدى المواقع –

أُسرتُ وما صَحبي بعُزل لدى الوغى ... ولا فرسي مُهرٌ ولا ربُّه غمرُ
ولكنْ اذا حُمّ القضاء على امرىء ... فليس له برٌّ يقيه ولا بحرُ
وقال أُصيحابي : الفرارُ او الرَّدى . ... فقلتُ همـا امران احلاهما مُرُّ
ولكنني أمضي لمـا لا يَعيبني ... وَحسبُكَ من امرين خيرُهما الأسرُ

ويشير الى تمنين الروم له بانهم ابقوا له ثيابه فيقول –

يُمنّون أنْ خلّوا ثيابي وانّمـا ... عليَّ ثيابٌ من دمـائهم حمرُ
وقائمُ سيفٍ فيهم دُقَّ نصلُهُ ... واعقابُ رمحٍ فيهم حُطّم الصدرُ
سيذكرني قومي اذا جدَّ جِدهم ... وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ
ونحن اناسٌ لا توسّط بيننـا ... لنا الصدرُ دون العالمينَ او القبرُ
أعزُّ بني الدنيا واعلى ذوي العلى ... واكرمُ مَن فوق التراب ولا فخرُ

ومما يُعرف له قوله

غيري يغيّرهُ الفَعال الجافي ... ويحولُ عن شِيَمِ الكريم الوافي
لا ارتضي ودًّا اذا هو لم يدُمْ ... عند الجفاء وقلّة الإنصافِ
انَّ الغني هوَ الغنيُّ بنفسهِ ... ولوَ انّهُ عاري المناكب حافي
ما كلُّ ما فوقَ البسيطةِ كافياً ... واذا قنعتَ فبعضُ شيء كافِ
وتعافُ لي طمَعَ الحريص فتوّتي ... ومروءَتي وقناعتي وعفافي

---

(١) وفيات الاعيان ١-١٧٨

ومكارمي عددَ النجوم ومنزلي ... مأوى الكرام ومنزل الاضياف
لا اقتني لصروف دهري عدةً ... حتى كأنَّ خطوبهُ أحلافي
شِيَمٌ عُرفتُ بهنَّ مذ انا يافعٌ ... ولقد عَرفتُ بمثلها أسلافي

مهيار الديلمي

يفتخر بنفسه وقومه

شاعر مشهور مجوسي الاصل . قيل انه اسلم على يد الشريف الرضي وعليه تخرَّج في الادب . وله ديوان شعر كبير وهو يتصف بالجزالة وطول النفس . وفي هذه الابيات يرى القارئ عصبيته الفارسيَّة مقترنة بنزعته الاسلامية . قال –

أُعجبتْ بي بين نادي قومها ... امُّ سعدٍ فمضت تسألُ بي
سرَّها ما علمت من خُلقي ... فارادت علمها ما حَسَبي
لا تخافي نَسَباً يخفضني ... انا من يُرضيكِ عند النَّسبِ
قوميَ استولوا على الدهر فتىً ... ومشوا فوق رؤوس الحقبِ
عمَّموا بالشمس هاماتِهم ... وبَنوا ابياتهم بالشُّهُبِ
وأبي كسرى على إيوانهِ ... اينَ في الناسِ ابٌ مثلُ أبي
سَورةُ المُلكِ القُدامى وعلى ... شرَفِ الاسلام لي والأدبِ (١)
قد قَبستُ المجد من خيرِ أبٍ ... وقبستُ الدين من خيرِ نبي
وضَممتُ الفخرَ من أطرافهِ ... سؤددَ الفُرس ودينَ العرَبِ

(١) القدامى القديم . يفتخر بعز الملك الفارسي القديم مع شرف الاسلام والادب

المعرّي يفتخر ويذمّ الزمان

عرف المعرّي بالزهد والحكمة والترفّع عن الدنيا . على انه لم يخرج في طوره الاول طور شبابه عن طريقة الشعراء. فتراه في ذلك الطور شديد الشعور باهمية نفسه كثير التفاخر بها . فلا عجب اذا طالعنا في ديوانه سقط الزند ببعض ما كان يجيش في خاطره من وصف نفسه وذم دهره . ومن ذلك قوله —

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ عَفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ يصدَّق واشٍ او يخيَّبُ سائل
تُعَدُّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ولا ذنبَ لي الا العلا والفواضل
كأني اذا طُلتُ الزمانَ واهلَهُ رجعتُ وعندي للانام طوائل(١)
وقد سار ذكري في البلاد فمَنْ لهم باخفاء شمسٍ ضوءها متكامل
يهمُّ الليالي بعض ما انا مضمرٌ ويثقُلُ رضوى(٢) دون ما انا حامل
وإني وان كنتُ الاخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الاوائل
واغدو ولو أنَّ الصباح صوارمٌ وأسري ولو أنَّ الظلام جحافل
وانّي جوادٌ لم يُحَلَّ لجامهُ ونضوٌ يمانٍ اغفلته الصياقل(٣)
وان كان في لِبس الفتى شرفٌ له فما السيفُ الاَّ غِمدُهُ والحمائل
ولي منطقٌ لم يرضَ لي كنه منزلي على أنني بين السماكين نازل(٤)
لدى موطنٍ يشتاقهُ كلُّ سيّدٍ ويقصُرُ عن ادراكهِ المتناول
ولما رأيت الجهلَ في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظُنَّ أَنيَ جاهل
فوا عجبا كم يدَّعي الفضلَ ناقصٌ ووا أسفا كم يظهرُ النقص فاضل
وكيف تنامُ الطيرُ في وكناتها وقد نُصبتْ للفرقدين الحبائل(٥)
ينافسُ يومي فيَّ امسي تشرُّفاً وتحسُدُ اسحاري عليَّ الاصائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفهِ فلستُ أُبالي من تغولُ الغوائل

(١) كأني اذا فقت اهل الزمان عادوني فاصبحت في نفوسهم عليَّ ثارات
(٢) رضوى اسم جبل بالمدينة (٣) قوله لم يحلّ من التحلية . والنضو السيف والصياقل هم الذين يصقلون السيوف (٤) السماكان نجمان (٥) الفرقدان نجمان والحبائل المصائد

فلو بانَ عضديَ ما تأسّفَ منكِبي ولو مات زَندي ما بكتهُ الانامل
اذا وصفَ الطائيَّ بالبخل مادرٌ وعيَّر قُساً بالفهاهةِ باقل[١]
وقال السُّهى للشمسِ انتِ خفيَّةٌ وقال الدُّجى يا صبحُ لونك حائل[٢]
وطاولتِ الارضُ السماء سفاهةً وفاخرت الشُّهبَ الحصى والجنادل
فيا موتُ زُرْ انَّ الحياةَ ذميمة ويا نفسُ جِدّي انَّ دهرك هازل

لاميّة العجم

للطغرائي (الحسين بن علي)

كان هذا الشاعر من كتّاب الدولة السلجوقية ونُعت بالأُستاذ . وقد ولي الوزارة للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل . ويظهر ان احداث السياسة لم تصفُ له كل حياته فاذاقه الزمان مره كما اذاقه حلوه. وها هو في الخمسين من عمره (سنة ٥٠٥) ينظم هذه القصيدة المشهورة يصف حاله ويشكو زمانه. ولم يعش بعدها الا عشرة اعوام اذ قتل سنة ٥١٥ . ويصفه ابن خلّكان بغزارة الفضل ولطف الطبع وبتفوّقه في النظم والنثر . قال[٣] –

أَصالةُ الرّأيِ صانَتني عن الخطَلِ وحِلية الفَضل زانَتني لدى العَطَلِ[٤]
مجدي اخيراً ومجدي اولاً شَرَعٌ والشمس رأدَ الضُّحى كالشمس في الطفَلِ[٥]
فيمَ الإقامةُ بالزّوراء لا سكَني بها ولا ناقتي فيها ولا جمَلي[٦]

---

(١) الطائي هو حاتم طي المشهور بكرمه ومادر رجل معروف بالبخل وقس هو الخطيب المشهور. وباقل يضرب به المثل في العي (٢) السهى نجم صغير جدًّا لا يكاد يرى بالعين

(٣) وفيات الاعيان ١–٢٢٥ (٤) صانتني حفظتني والخطل الخطأ . والعطل التجرّد عن الحلى

(٥) مجد شرف . وشرع سواء . ورأد الضحى ما قبله . والطفل الوقت الذي بعد العصر وقبل الغروب (٦) الزوراء اسم لبغداد

نَاءٍ عن الاهل صِفر الكفِّ منفردٌ … كالسيف عُرِّيَ مَتناهُ عن الخِللِ[١]
فلا صديقٌ اليهِ مشتكي حزَني … ولا انيسٌ اليهِ مُنتهي جذَلي
طـال اغترابي حتى حنَّ راحلتي … ورَحلهـا وقرى العَسَّالة الذُّبلِ[٢]
أُريدُ بَسطةَ كفٍّ استعين بها … على قضـاء حقوق للعلى قِبَلي
والدهرُ يَعكسُ آمالي ويُقنعُني … من الغنيمة بعد الكدِّ بالقفلِ[٣]

الى ان يقول

حُبُّ السلامة يَثني عَزمَ صاحبِهِ … عن المعالي ويُغري المرء بالكسلِ[٤]
فان جنحتَ اليه فاتّخذ نفقـاً … في الارض او سُلَّماً في الجوّ فاعتزلِ[٥]
ودعْ غِمار العُلى للمُقدمين على … ركوبهـا واقتنعْ منهنَّ بالبللِ[٦]
يرضى الذليل بخفض العيش مسكنةً … والعزُّ عند رسيمِ الأَينُقِ الذُّللِ[٧]
فادرأ بها في نحور البيدِ جافلةً … معارضاتٍ مَثاني اللُّجم بالجُدلِ[٨]
إن العلى حدّثتني وهي صادقةٌ … فيما تحدّث أن العزَّ في النُّقَلِ[٩]
لو أنَّ في شرف المأوى بلوغ منىً … لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمَلِ
أَهبتُ بالحظ لو ناديت مستمعاً … والحظّ عنّي بالجهّـال في شُغُلِ
لعلّه ان بدا فضلي ونقصهمُ … لِعينه نـام عنهم او تنبَّه لي
أُعلِّل النفس بالآمال أرقبهـا … ما أَضيق العيش لولا فسحةُ الاملِ
لم أرتضِ العيش والايام مقبلةٌ … فكيف أرضى وقد ولَّتْ على عجلِ
غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتهـا … فصنتُها عن رخيص القدْر مبتذلِ
وعادة السيف ان يُزهى بجوهره … وليس يعملُ الا في يديْ بطلِ

---

(١) ناءٍ بعيد . وصفر خالي . وعُرّي جرّد . ومتناه جانباه . والخلل كسوة غمد السيف (٢) حنَّ مال . والراحلة ما يرحل عليه من الابل مذكراً كان او مؤنثاً . والرحل العدة التي يركب عليها . وقرى العسالة اي اعالي الرماح (٣) يعكس يرد . ويقنعني يرضيني . والكد التعب . والقفل الرجوع (٤) اي الرغبة في النجاة من المشاق تصرف عزم ملازمها عن مكاسب الشرف وتولعه بالتثاقل والفتور عنها (٥) النفق سرب في الارض له منفذ من مكان الى آخر (٦) غمار كثير والبلل القليل (٧) رسيم سرعة . والاينق الذلل اي الابل المروضة التي ليست بجموحة (٨) ادفع بهذه الاينق في الصحارى مسرعة مقابلات بأزمتها اعنة الخيل التي تصحبها في السير اي غير متأخرة عنها فيه (٩) النقل التحول والانتقال

ما كنتُ أوثر أن يمتدَّ بي زمني — حتى أرى دولة الاوغاد والسِفَل
تقدَّمتني أناس كان شوطهمُ — وراء خطويَ لو امشي على مَهَل
هذا جزاء امرىء اقرانه درجوا — من قبله فتمنَّى فسحة الأَجَل
فان علاني مَن دوني فلا عجبٌ — لي اسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَل
فاصبِرْ لها غير محتالٍ ولا ضَجِرٍ — في حادث الدَهر ما يغني عن الحِيَل
أعدى عدوِّك ادنى من وثقتَ به — فحاذِرِ الناس واصحبهم على دَخَل
فانما رُجل الدنيا وواحدها — من لا يُعوِّل في الدُنيا على رجل
وُحسن ظنِّك بالايام معجَزةٌ (١) — فظُنَّ شرًّا وكن منها على وجل
غاض الوفاء وفاض الغَدْر وانفرجت — مسافة الخُلْف بين القول والعمل
وشانَ صدقَك عند الناس كِذْبهم — وهل يُطابَقُ معوجٌّ بمعتدِلِ
ان كان ينجع شيءٌ في ثباتهمِ — على العهود فسبْقُ السَيفِ للعذَلِ

...

يا وارداً سُؤرَ عيش كلُّه كدرٌ — أنفقتَ صفوك في ايامك الأُوَلِ (٢)
فِيمَ اقتحامُك لجَّ البحر تركبُهُ — وأنت تكفيك منه مصَّة الوشَل
مُلكُ القناعة لا يُخشى عليه ولا — يحتاج فيه الى الانصار والخوَل
تَرْجو البقاء بدارٍ لا ثبات بها — فهل سمعتَ بظلٍّ غير منتقل
ويا خبيراً على الاسرار مطَّلعاً — أُصمُتْ ففي الصَّمت مَنجاةٌ من الزلل
قد رشَّحوك لامرٍ إن فَطِنت له — فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

---

(١) اي عجز (٢) سؤر العيش آخره

فخرية ابن سناء المُلك

توفي ابن سناء الملك على ما يقول ابن خلكان سنة ٦٠٨ . وكان من الرؤساء النبلاء وافر السعادة محظوظاً من الدنيا . والذي يقرأ هذه القصيدة يلمس فيها شعور اديب خدمته الايام وروح رجل عزيز النفس رفيع المقام ، فلا غروَ اذا سمعناه يقول متمدّحاً بمكارمه متشامخاً على اهل زمانهِ

سوايَ يهابُ الموتَ او يرهبُ الرَّدى — وغيريَ يهوى ان يعيشَ مُخلَّدا
ولكنني لا أرهبُ الدَّهرَ إن سطا — ولا أحذرُ الموتَ الزُّؤام اذا عدا
ولو مدَّ نحوي حادثُ الدهر كفَّهُ — لحدَّثتُ نفسي أن أمدَّ له يدا
توقّدُ عزمي يتركُ الماء جمرةً — وحيلةُ حلمي تتركُ السيف مِبردا
وفرط احتقاري للأنام لانني — ارى كل عارٍ من حلى سؤددي سُدى(1)
وأظمأُ إن أبدى ليَ الماء مِنَّةً — ولو كان لي نهر المجرَّة مورِدا
ولو كان إدراك الهُدى بتذلُّلٍ — رأيتُ الهُدى ان لا اميل الى الهدى
وقِدماً بغيري أصبحَ الدهرُ أشيباً — وبي وبفضلي اصبح الدهر امردا
وإنك عبدي يا زمان وإنني — على الرُّغم مني أن أرى لك سيّدا
وما انا راضٍ انني واطئ الثرى — ولي همّةٌ لا ترتضي الأفقَ مقعدا
ولو علمتْ زُهرُ النُّجوم مكانتي — لخرَّت جميعاً نحو وجهيَ سُجَّدا
ارى الخَلقَ دوني اذ أرانيَ فوقهم — ذكاءً وعلماً واعتلاءً وسُؤددا
وبذلُ نوالي زاد حتى لقد غدا — مِن الغيظ منه ساكن البحر مُزبدا
ولي قلمٌ في أنملي ان هززتُهُ — فما ضرَّني أن لا أهزَّ المُهنَّدا
اذا صال فوقَ الطِّرْسِ وقعُ صريرهِ — فإنَّ صليلَ المشرفيِّ له صدى

---

(1) عارٍ مجرَّد

صفيّ الدين الحلّي

يفتخر بقومه واخذهم بثأر خاله من قـاتليه غدراً في المسجد وذلك سنة ٧٠١ هـ (وكان الشاعر في الرابعة والعشرين) . وهو اشهر شعراء العصر المغولي ، نشأ في الحلة ثم اتصل بامراء مـاردين (الارتقية) ولم يكن قبل ذلك (كما يقول) ينوي التكسّب بالشعر او التزلف الى احـد بمدح ولكن جرت بالعراق خطوب اوجبت بُعده عن وطنه والالتجـاء الى هؤلاء الامراء فلقي منهم كل احسان ولم يرَ بدًّا من مدحهم[1] وتخليد فضلهم . وشعره برغم تأنقه البديعي سلس لطيف السبك ينمّ عن شاعرية فياضة . قال —

سِلي الرِّماحَ العوالي عن معالينـا ... واستشهدي البيضَ هل خاب الرَّجا فينا
وسائلي العُربَ والاتراكَ ما فعلَتْ ... في ارضِ قبرِ عُبيد الله أيدينا
لمّا سعينا فما رقَّت عزائمُنـا ... عمّا نرومُ ولا خابتْ مساعينـا
يا يومَ وقعةِ زوْراءِ العِراقِ وقد ... دِنَّا الاعاديَ كما كانوا يدينونا
بضُمَّرٍ ما ربطناهـا مُسوَّمةً ... إلاَّ لِنغزو بها مَنْ باتَ يغزونا
وفِتيةٍ إن نقلْ أصغَوْا مسامِعَهم ... لِقولنـا او دَعوناهم أجابونا
قومٌ اذا استُخصموا كانوا فراعِنةً ... يوماً وان حُكِموا كانوا موازينا
تدرَّعوا العقلَ جِلباباً فإنْ حمِيَتْ ... نارُ الوغى خِلتهم فيهـا مجانينا
اذا ادَّعوْا جاءَت الدُّنيا مُصدِّقةً ... وإن دَعوْا قالت الايام آمينا
إنَّ الزَّرازيرَ لمَّا قام قائمُهـا ... توهَّمتْ أنهـا صارت شواهينا[2]
ذلُّوا بأسيافنا طول الزمـانِ فمُذْ ... تحكَّموا اظهروا أحقادهم فينا
لم يُغنِهم مالُنا عن نهبِ أنفُسنا ... كأنَّهم في أمانٍ من تقاضينـا
أخلَوْا مساجدَ مِن أشياخنا وبغَوْا ... حتى حملنا فأخلينا الدواوينـا
ثُمَّ انثنينا وقد ظلَّتْ صوارمُنا ... تميسُ عُجباً وتهتزُّ القنـا لِينا
وللدِّماءِ على أثوابنـا علَقٌ ... بنشرِهِ عن عَبيرِ المسكِ يُغنينا
إنَّا لَقومٌ أبتْ أخلاقُنا شرَفاً ... أنْ نبتدي بالأذى مَنْ ليس يؤذينا
بيضٌ صنائعُنا سودٌ وقائعُنـا ... خُضرٌ مرابعنـا حمرٌ مواضينا
لا يظهرُ العجزُ منَّا دون نيلِ مُنىً ... ولو رأينا المنايا في أمانينـا

---

(١) راجع مقدمة ديوانه (دمشق ١٢٩٧) ونفح الازهار ٧٢-٧٣ (٢) يريد بالزرازير اعداءه

محمود سامي البارودي

(يفاخر ويشكو)

امير من امراء السيف والقلم . نشأ في مصر (وهو من اصل جركسي) نشأة عسكرية وتقلّب في المناصب الاميرية فتولّى مهامّ خطيرةً في الاستانة ومصر وشارك في كثير من وقائع الدولة العثمانية

وفي اثناء الثورة العربية بمصر رقي الى رئاسة النظار . فلما احتل ا . نكليز وادي النيل سنة ١٨٨٢ نُفي الى سيلان وبقي هناك ثماني سنوات ثم عُني عنه فرجع الى مصر وقد كفّ بصره . ولم يعش بعد ذلك الأ اربع سنوات

ويعدّ البارودي امير شعراء عصره وهو بليغ العبارة عالي النّفس . وكان على جانب عظيم من عزّة النفس وبعد الهمة واباء الضيم فلا عجب اذا رأينا له كثيراً من شعر الفخر وشكوى الزمان . واليك هذه الابيات من قصيدة نظمها في عهد الخديو اسماعيل يشكو فيها من سوء الحال ويدعو ابناء وطنه الى النهوض والسعي في سبيل الكمال[1]

انّي امرؤٌ كفّني حلمي وادّبني ، كرُّ الجديدين[2] من ماضٍ ومُقتبلِ
فما سريتُ[3] قناع الحلم عن سفهٍ ولا مسحتُ جبينَ العزّ من خجَلِ
حلبتُ اشطُر هذا الدهر تجربةً وذقتُ ما فيهِ من صابٍ[4] ومن عسلِ
فما وجدتُ على الايام باقيةً أشهى الى النفس من حُرّيّة العمل
لكننا غرضٌ للشرّ في زمنٍ اهل العقول به في طاعة الخَمَلِ
قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثَكَلِ[5]
ذلّت بهم مصرُ بعد العزّ واضطربتْ قواعد المُلك حتى ظلّ في خلل
بئس العشير وبئستْ مصرُ من بلدٍ اضحتْ مناخا لاهل الزُّور والخطَل
ارضٌ تأثّل فيها الظّلم وانقذفتْ صواعقُ الغدر بين السهل والجبل

(١) ديوانه ٢-٢٠٧ (٢) الجديدان الليل والنهار (٣) سريت القناع كشفته
(٤) الصاب عصارة شجر مرّ (٥) الثكل الثاكل

واصبحَ الناسُ في عمياءَ مُظلمةٍ[1] لم يخطُ فيها امرؤٌ الأ على زَلَلِ
أصوّحت شجَرات المجد ام نَضَبَتْ غُدر الحميّةِ حتى ليس من رجلِ ؟[2]

ثم يذكّرهم باسلافهم ويقول —

قومٌ اقرّوا عماد الحق وامتلكوا ازمّة الخلق من حافٍ ومُنتعلِ
جنَوا ثمار العُلى بالبيض[3] واقتطعوا من بين شوكِ العوالي زهرةَ الأملِ

ويهيب بهم الى النهوض والمبادرة الى الاصلاح وحسن التدبير دون ما وجل او تردد

حتى تعودَ سماءُ الأمن ضاحيةً[4] ويرفل العدل في ضافٍ من الحُلَلِ
هذي نصيحةُ من لا يبتغي بدلاً بكم وهل بعد قوم المرء من بَدَلِ
اسهرتُ جفني لكم في نظم قافيةٍ ما إنْ لها في قديم الشعر من مَثَلِ
إن أخلقتْ جِدَّةُ الاشعار أثلها لفظٌ اصيل ومعنىً غيرِ مُنتحَلِ

ومن فخره قوله[5] —

واني امرؤٌ لولا العَوائقُ اذعنتْ لسلطانه البدوُ المغيرةُ والحضرُ
من النَفرِ الغُرِّ الذين سيوفُهم لها في حواشي كلّ داجيةٍ فجر
اذا استلَّ منهم سيّدٌ غربَ سيفهِ تفزّعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عُمُدٌ مرفوعةٌ ومعاقلٌ وألويةٌ حُمرٌ وأفنيةٌ خُضر
اقاموا زماناً ثمّ بدّد شملَهم ملولٌ من الايام شيمتهُ الغدر
فلم يبقَ منهم غيرُ آثار نعمةٍ تضوع برياها الاحاديث والذكر

---

(١) العمياء اللجاجة في الضلال (٢) صوّحت يبست . غُدر جمع غدير
(٣) البيض السيوف (٤) ضاحية اي بارزة لا يسترها غيم او ضباب
(٥) من قصيدة يعارض فيها قصيدة ابي فراس (اراك عصي الدمع) الديوان ١—١٣١

شكوى حافظ ابرهيم

(توفي ١٩٣٢)

تظهر شكوى شاعر النيل في مظهرين – مظهر شخصي وفيه يذكر ظلم الايام له مفاخراً بصبره وأنفته – ومظهر قومي يبثُّ فيه اسفه لما اصاب وطنه من تأخر وانحطاط وما لحقه من حيف الزمان واستبداد المستبدّين . وفي كليهما ترى اناقته الفنية وعاطفته القوية . ومن شكاويه القومية

لم يبقَ شيءٌ من الدنيا بأيدينا الا بقيَّةَ دمعٍ في مآقينا
كنّا قِلادة جيدِ الدهر وانفرطت وفي يمينِ العُلى كنّا رياحينا
كانت منازلُنا في العزّ شامخةً لا تشرق الشمس الا في مغانينا
وكان اقصى مُنى نهر المجرَّة لو من مائهِ مُزجت أقداحُ ساقينا
والشُهب لو أنها كانت مُسخَّرة لرَجم من كان يَبدو من اعادينا
فلم نزلْ وصروفُ الدهر ترمُقُنا شزْراً وتخدُعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاهٌ ولا نَسَبٌ ولا صديقٌ ولا خِلٌّ يواسينا

وقوله على لسان اللغة العربية يعرّض بميل ابنائها عنها الى اللغات الاجنبية

رجعتُ لنفسي فاتَّهمتُ حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعُقمٍ في الشباب وليتني عقمتُ فلم أجزع لقولِ عُداتي
ولَدتُ ولمَّا لم أجد لعرائسي رجالاً واكفاء وأدت بناتي
وسعتُ كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضِقت عن آيٍ به وعِظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق اسماء لمخترعات

أنا البحر في احشائه الدرّ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدَفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وان عزّ الدواء أُساتي
فلا تكلوني للزمان فانني اخاف عليكم ان تحين وفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً وكم عزّ أقوامٌ بعزّ لغات
أتوا اهلهم بالمعجزات تفنناً فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينادي بوأدي في ربيع حياتي

. . .

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يعزّ عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرتُ اهل الغرب والشرق مُطرقٌ حياءً بتلك الأعظم النَخِرات
ارى كل يومٍ بالجرائد مَزلقاً من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتّاب في مصر ضجّةً فأعلم ان الصائحين نُعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم الى لغةٍ لم تتّصل برواةِ
سرَتْ لوثة الأعجام فيها كما سرى لُعاب الافاعي في مسيل فُرات
فجاءت كثوبٍ ضمّ سبعين رقعةً مشكّلة الالوان مختلفات
الى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ بسطتُ رجائي بعد بسط شكاتي
فإمّا حياةٌ تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رُفاتي
وإمّا مماتٌ لا قيامة بعدهُ مماتٌ لعمري لم يقسْ بممات

بين البقر والبشر

للشاعر المهجري رشيد سليم الخوري المعروف بالشاعر القروي . وهو يشكو فيها من الانسان . وتمثل شعوراً عاماً بين شعراء المهجر .

طوباكِ سارحةً في القفرِ طوباكِ   إن كنتُ احسدُ مخلوقاً فاياكِ[1]

* * *

الزهر مثلك في الآفاق تنتشر   تغشى مُروجَ العلى والليل معتكر
تاللهِ كم يتمنى عيشكِ البشر   ماذا تخافينَ في البيداء يا بقرُ ؟
ان كنت تخشين من انياب فتّاك   طوباكِ فالجلد غير العِرض طوباكِ[2]

* * *

سيري الهُوينآء بين السهل والجبل   الرزقُ حولك موفورٌ فلا تَسلي
يا ليت لي في صحاري الجدِ والعمل   بعضَ الذي لك ميسوراً على مهل
ان كنت تشكين من صخرٍ وأشواك   طوباك فالفقر غير الفقرِ طوباك

* * *

طوباك في الصيف والرمضاء تتقدُ   والحرُّ منه يذوب الجلدوا الجَلَد[3]
هذا اللهيب الذي يُشوى به الجسد   أشدُّ منه على اكبادنا الحسد
ان كان منه الذي سوّاك نجّاك   طوباك في لفحة الرَّمضاء طوباك

* * *

تشكين فصل الشتاء البارد القاسي   ماذا أقول انا في عشرة الناس
نامي على الثلج نامي ليس من باس   فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وان تكن هاطلات الغيث تغشاك   طوباك فالقطر غير الدمع طوباك

* * *

طوباك في مربع الحرية الخصِب   بين الازاهر والأمواه والعشب
لو تعلمين عن الافرنج والعرب   وما يعانيه في الاوطان كلُّ أبي
ما كنت تخشين من سكّين سفّاك   طوباك فالموت غير الذلُّ طوباك

---

(١) اكثر اهل اللغة على ان الصواب طوبى لك   (٢) اي ان الانسان اشد فتكاً من الوحش اذ يفتك بالحياة والشرف معاً   (٣) الرمضاء : شدة الحر ، والارض الحارة الحامية من شدة حر الشمس

باب الغزل

للشعر الحبّي في تاريخ الادب العربي بل في تاريخ كل ادب شأن كبير . وهو عريق في نفس الانسان يرجع الى اقدم العهود ويمثل ارقّ العواطف

والشعراء فيه مذاهب . فمنهم اصحاب الاختبارات الحبّية الصادقة الذين يعبّرون في شعرهم عن تأثرهم بالجمال وشغفهم بالحسان وهؤلاء صنفان : صنف يفتن بحسناء ويسحر بهواها فتصبح امنيّته القصوى ومنشودته الوحيدة . ومع انه قد لا يتمكن من الحصول عليها او قد تتزوّج سواه يظلّ محافظاً على ودّها خاضعاً لوجده بها ، يطيب له الالم بل الموت في سبيلها . فيكون شعره وصفاً لآلام نفسه الصادقة ولواعج حبّه المحرقة . وهذا هو الحبّ العذري الذي عُرف به جماعة من القدماء اشهرهم عروة وجميل وقيس بن ذريح وقيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وسواهم ممّن وجدوا حقًّا في التاريخ او اوجدتهم مخيّلة الكتّاب والقصّاصين

اما الصف الثاني من اصحاب الاختبارات الغرامية فيختلفون عن الصنف الاول في انهم لا يعرفون الثبات على حبّ حبيب ولا يبالون الا بالمتعة السانحة ، مثلهم مثل الفَراش ينتقل من زهرة الى زهرة ويكثر في غزلهم المجون والتهتُّك او وصف الوقائع الغراميّة وغرَات الشباب ويمثلهم من القدماء امرؤ القيس وعمر بن ابي ربيعة وابو نواس وامثالهم

. . .

ومن الشعر الغزلي ما ينظم لا عن اختبار غرامي خاصّ بل لرغبة فنّية او لاعتبار عُرفي وهو شائع كثيراً في المقدّمات الغزلية التي كان الشعراء في كل جيل ينظمونها في مطلع قصائدهم ثم يتخلصون منها الى سائر اغراضهم . وقد ترى لبعضهم من هذا الباب ما يبلغ الدرجة العليا من جمال المعنى وروعة الديباجة

وهناك غزل يُعرف بالغزل الصوفي وهو يجري في الفاظه وتعابيره على طريقة الغزل العادي الا ان المحبوب فيه ليس حسناء من النساء ولكنه الجمال الاسنى الذي يتمتع به المتصوّف في حال غيبوبتهُ عن الدنيا . وهذا الغزل خارج عن شعور حقيقي وقد يكون اشدّ

من شعور الواجد بمحبوب انساني · ويدور على وصف الجمال الاسنى ووجد النفس المشتاقة الى الاتحاد به وشرح الاحوال التي يشعر بها المحب في اثناء بعده وقربهِ .وأهمّ محب صوفي هو ابن الفارض ، وانت اذا نظرت الى شعرهِ نظراً ظاهرياً لم تميّزه عن سائر الشعر الحبي الخارج عن نفثة مصدور وعن قلب عاشق مهجور

وسترى في المختاراتِ التالية امثلة على ما مرّ ذكره من هذه الاصناف

رائية عمر في فتاته نُعم

عمر بن ابي ربيعة المخزومي شاعر قريش عاش في القرن الهجري الاول وعُرف برقّتهِ وميله الى المجون والمرح · وقد قصر شعره على وصف النساء وذكر وقائعه معهنّ · وهذه القصيدة من اشهر قصائد الغزل في الادب العربي · وصف فيها زيارة له لنُعم وكان لها ابن عم يكره عمر ويودّ اذيته

يقف الشاعر مساء على شرفة وادٍ مطل على مخيَّم لقبيلة فتاته ويظل مراقباً تلك الخيام حتى يستيقن ان الجمع ناموا فيتسلّل الى خيمتها ويسهر معها الليل ولا يشعر بالخطر المحدق به حتى تبدو تباشير الصباح . وهنا نترك للشاعر ان يصف لنا ما حدث له وكيف نجا في تلك المغامرة الحبية الغريبة

أمن آل نُعمٍ انت غادٍ فمُبكرُ غداةَ غدٍ ام رائحٌ فمهجّرُ
تهيم الى نعمٍ فلا الشّمل جامع ولا الحبل موصولٌ ولا القلبُ مُقصِر
ولا قربُ نعمٍ ان دنتْ لك نافعٌ ولا نأيها يُسلي ولا انت تصبرِ
اذا زُرتُ نعماً لم يزلْ ذو قرابة لها كلّما لاقيتُها يتنمّر
عزيزٌ عليه أنْ أُلمَّ ببيتها يُسرُّ ليَ الشحناء والبغض يظهر

. . .

وليلة ذي دوران(١) جشّمتني السُرى وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرَّر
فبتُّ رقيباً للرفاق على شفاً احاذر منهم من يطوف وانظر

---

(١) ذو دوران اسم مكان ، يذكر ليلته بذلك المكان وما حملته من المشاق

اليهم متى يستمكن النومُ منهمُ ولي مجلسٌ لولا اللُّبانة (١) اوعر
وبتُّ اناجي النفس اين خباؤها وكيف لما آتي من الامر مصدر (٢)
فدلَّ عليها القلبَ ريًّا عرفتُها لها وهوى النفس الذي كاد يظهر
فلما فَقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ مصابيحُ شُبَّت بالعِشاء وأنوُر
وغاب قُميرٌ كنت ارجو غيوبهُ ورَوَّح رُعيانٌ ونوَّم سُمَّر (٣)
وخُفّض عني الصوت اقبلت مِشيةَ الحُباب (٤) وشخصي خِيفةَ القوم أزوَر
فحَيَّتُ اذ فاجأتُها فتولَّهت وكادت بمكنون التحيَّة تجهر
وقالت وعضَّت بالبنان فَضحتني وانت امروءٌ مَيسور امرك اعسر
فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجة سرَت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادني الشَّوق والهوى اليكِ وما عينٌ من الناس تنظر
فقالت وقد لانت وأفرخ رَوعها (٥) كلاكَ بحفظِ ربِّكَ المتكبَّر
فانت ابا الخطَّاب غير منازَعٍ عليَّ اميرٌ ما مكثتَ مؤمَّر

. . .

فيا لك من ليلٍ تقاصر طولُهُ وما كان ليلي قبل ذلك يقصر
ويا لك من ملهى هناك ومجلس لنا لم يكدِّرهُ علينا مكدِّر
يمجُّ ذكيَّ المسك منها مفلَّجٌ رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤشَّر (٦)
يرِفُّ اذا يفترُّ عنه كأنه حصى بَرَدٍ او اقحوانٌ منوِّر
وترنو بعينيها اليَّ كما رنا الى رَبربٍ وسط الخميلة جُؤذر (٧)

. . .

فلما تقضَّى الليل الا اقلُّهُ وكادت توالي نجمه تتغوَّر
اشارت بان الحيَّ قد حان منهمُ هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عزوَر (٨)

---

(١) اللبانة الغرض (٢) وكيف يمكنني الرجوع (٣) وارجع الرعيان مواشيهم ونام المتسامرون (٤) الحباب الحيَّة (٥) ذهب خوفها (٦) اي فم رقيق الحواشي محزز الاسنان ذو رضاب ممسَّك (٧) كما يرنو الظبي الصغير الى قطيع الظباء في الخميلة
(٨) اي موعد اجتماعنا الثاني في عزور وهو اسم مكان

فما راعني الا منادٍ برحلةٍ وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تثوَّرَ منهم وأيقاظهم قالت أشِرْ كيف تأمر
فقلتُ أباديهم فاماً افوتهم واما ينال السيف ثاراً فيثأر
فقالت اتحقيقاً لما قال كاشحٌ علينا وتصديقاً لما كان يُؤثَر (١)
فإن كان ما لا بدَّ منه فغيرُهُ من الامر ادنى للخفاء وأستر
اقصُّ على اختيَّ بدءَ حديثنا وما ليَ من ان تعلما مُتأخَّر
لعلّهما ان تبغيا لك مخرجاً وان ترحبا سَرباً (٢) بما كنتُ أحصر

. . .

فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ من الحزن تذري عبرةً تتحدر
فقامت اليها حُرّتان عليهما كساآن من خزٍّ دِمقَسٌ وأخضر
فقالت لاختيها أعينا على فتىً أتى زائراً والامرُ للامر يُقدَر
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا أقلِّي عليكِ اللوم فالخطب أيسر
فقالت لها الصغرى ساعطيه مِطرفي ودرعي (٣) وهذا البُرد إن كان يحذر
يقوم فيمشي بيننا متنكِراً فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مِجنّي دون من كنت اتّقي ثلاثُ شخوصٍ كاعبان ومُعصر (٤)
فلما أجزنا ساحة الحيِّ قلنَ لي اما تتّقي الاعداء والليل مقمر
وقلنَ أهذا دأبك الدهر سادراً (٥) اما تستحي او ترعوي او تفكِّر
اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرَنا لكي يحسبوا أنَّ الهوى حيث تنظر (٦)
فآخرُ عهدٍ لي بها حين اعرضتْ ولاح لها خدٌّ نقيٌّ ومَحجِر (٧)
هنيئاً لاهل العامرية نشرها اللذيذُ وريّاها الذي اتذكَّر

---

(١) انفعل ذلك فيثبت علينا قول المبغضين وما ينقلونه عنا (٢) سرباً صدراً
(٣) الدرع من ثياب الجارية وكذلك المطرف والبرد
(٤) فكان ترسي من الاعداء هولاء الاخوات الثلاث
(٥) طائشاً (٩) اي لكي يظنوا ان هواك في غيرنا (٧) محجر مقلة

اليتيمة[١]

قصيدة الشاعر الذي قُتل غدراً لتفوّق قصيدته

ويروون في ذلك[٢] – ان اميرة نجدية كانت بارعةً في الجمال وفي الشعر فخطبها الى ابيها جماعة من الامراء. ولكنها ابت ان تتزوّج الا برجل اشعر منها. فاخذ الشعراء ينظمون القصائد ويعرضونها عليها فلم يعجبها شيء مما نظموه، وشاع خبرها وتحدث الناس بها. وكان في تهامة شاعر بليغ فنظم قصيدة فيها وركب ناقته يقصدها. فالتقى في طريقه بشاعر آخر شاخص لنفس الغاية وقد نظم ايضاً قصيدة في دعد. فلما اجتمعا باح التهامي لصاحبه بغرضه وقرأ له قصيدته فرأى هذا ان قصيدة التهامي اعلى طبقة فقتله وانتحل قصيدته. ثم جاء مجلس الفتاة وقرأ القصيدة. وادركت من لهجته وبعض ابيات فيها انها ليست له فقبضوا عليه واستنطقوه فاعترف بجريمته فقتلوه. واليك اهمّها–

هــل بالطُّلول لسائلٍ ردُّ ... ام هل لها بتكلُّمٍ عهدُ
درَسَ الجديدُ جديدَ معهدها ... فكأنَّما هي رَيطةٌ جَرد[٣]
من طول ما تبكي الغيوم على ... عرَصَاتهــا ويُقهقه الرعد
فوقفتُ أسألها وليس بها ... الا المهى ونقانقٌ رُبد[٤]
فتناثرت دُررُ الشؤون[٥] على ... خدِّي كما يتنــاثر العِقد

---

(١) راجع وصف اليتيمة في فهرست آداب اللغة لدار الكتب المصرية ٤٣٧ فهناك يرجح الباحث ان القصيدة للعكوّك المتوفى في بغداد ٢١٣ هـ. ويذهب البعض انها لابي الشيص المتوفى ١٩٦ هـ.

راجع ايضاً وصفها في البيّنات لعبد القــادر المغربي ص ٢٩٥. وفي شرح العكبري المتنبي ١–١٦ يقول في عرض شرحه للبيت ونذيمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدّها تتميز الاشياء

انّ ابن جني يقول ان البيت ماخوذ من قول « المنبجي »

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ ... والشعر مثل الليل مسودُّ
ضدان لما استجمعا حسنا ... والضدُّ يظهر حسنه الضد

وهذان البيتان من قصيدة اليتيمة (٢) الهلال ١٤–١٧٤. وهو من قبيل القصص
(٣) الريطة الجرد. الثوب البالي (٤) النقنق ذكر النعام. الاربد المغبرّ اللون
(٥) الشؤون المدامع

لهفي على دعدٍ ومـا خلقت   الأ اطول تلهُّفي دعد
بيضاء قد لبس الاديم ُاديمَ الحسن فهو لجلدهـا جـلد
ويزين فَوديها اذا حسرتْ   ضافي الغدائر فاحمٌ جَعد(١)
فالوجه مثل الصبح مبيضٌ   والشعر مثل الليل مسودُّ
ضدّان لمّا استجمعا حسُنا   والضدُّ يُظهر حسنهُ الضدُّ
وجبينُهـا سَلطٌ وحاجبها   شختُ المخطِ ازجّ ممتد(٢)
فكأنها وسنى اذا نظرتْ   او مُدنف لمّـا يُفقْ بعد
بفتور عينٍ مـا بها رمدٌ   وبها تُداوى الأعين الرُّمد
وتريك عرنينـاً بهِ شممٌ   اقنى وخـدّاً لونه ورد
وتُجيل مسواك الأراك على   رَتلٍ كأن رضابه شَهد(٣)
والجيد منها جيد جؤذُرةٍ   تعطو اذا ما طالهُ المَرد(٤)
والمِعصمان فما يُرى لهمـا   من نعمةٍ وبَضاضةٍ زند
ولهـا بنانٌ لو أردتَ له   عقداً بكفِّك أمكن العقـد
مـا شانها طولٌ ولا قِصَرٌ   فقيامهـا وقعودها قَصد
قد قلتُ لمّا ان كلِفتُ بهـا   واعتادني من حبّهـا الجهد
إن لم يكن وصلٌ لديك لنا   يشفي الصبابةَ فليكن وعد
قد كان اورقَ وصلكم زمناً   فذوى الوصال واورق الصدُّ
لله اشواقٌ اذا نزحتْ   دارٌ بنا ونبا بكم بُعد
إن تُتهمي فتهامةٌ وطني   او تنجدي ان الهوى نجد
وزعمتِ أنّك تضمرين لنا   ودّاً فهلّا ينفعُ الودُّ
واذا المحبُّ شكا الصدودَ ولم   يُعطَفْ عليه فقتلُهُ عَمـد
وتخصُّهـا بالودّ وهي على   ما لا نحبُّ وهكذا الوجد

...

(١) يزين جانبي راسها شعر اسود مجعّد   (٢) سلط اي واضح . شخت دقيق . الازج الدقيق الطويل   (٣) الرتل الفم   (٤) الجؤذرة بنت الظبي . تعطو تمدّ عنقها اذا بعد عنها شجر المرد كناية عن طوله

ولقد علمت بانني رجلٌ في الصالحات اروح او أغدو
بردٌ على الادنى ومرحمة وعلى المكاره باسلٌ جلد
متجلببٌ ثوب العفاف ولقد وَصل الحبيب وساعد السعد
مَنعَ المطامعَ ان تثلمني أنّى لِمعولها صفاً صلد[1]
فاظلُّ حراً من مذلّتها والحرُّ حين يُطيعها عبد
هيهات يأبى ذاك لي سلَفٌ خمدوا ولم يخمدْ لهم مجد
فالجدُّ كِندةُ والبنون همُ فذكا البنون وانجب الجدُّ
فلئن قفوتُ جميل فعلهمِ بذميمِ فعلي إنني وغد

. . .

أجملْ اذا حاولتَ في طلبٍ والجدُّ يغني عنك لا الجِدُّ
واذا صبرتَ لجهد نازلةٍ فكأنه ما مسَّك الجهد
ليكن لديك لسائلٍ فرَجٌ ان لم يكن فليحسن الرد

. . .

وطريد ليلٍ ساقهُ سَغَبٌ وهناً اليَّ وقاده برد[2]
اوسعت جُهد بشاشةٍ وقِرى وعلى الكريم مَضيفهُ جهد[3]
فتصرّم المشتى ومربعُهُ رحبٌ لديَّ وعيشهُ رغد
يا ليت شِعري بعد ذلكمُ ومحارُ كلِّ معمر لحد
أصريعَ كَلمٍ ام صريع ضنى أردى فليس من الردى بد[4]

---

(١) منع المطامع ان تؤذيني اني قوي كالصخر الاصم (٢) سغب جوع . وهناً ليلاً
(٣) اوسعت ضيافته حين انه يصعب على الكريم ذلك
(٤) أأموت بعد ذلك صريع جرح في الحرب ام صريع الحب

عيون المها

لعلي ابن الجهم المتوفّى ٢٤٩ هـ

هو شاعر قرشي وقد كان من جلساء الخليفة العباسي المتوكل وله فيه مدائح كثيرة . ومن مدائحه هذه القصيدة التي نثبتها كلها في باب الغزل لانها تبلغ ٢٤ بيتاً وليس فيها الا اربعة ابيات في المديح . وهي من القصائد السائرة ولا سيما مطلعها الذي يردّده العامّ والخاص . قال —

عيونُ المها بينَ الرّصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
أعدنَ ليَ الشوق القديم ولم اكن ... سلوتُ ولكن زدنَ جمراً على جمر
سلِمنَ واسلمنَ القلوب كأنما ... تُشكُّ بأطراف المثقّفة السُّمر
خليليَّ ما احلى الهوى وأمرّهُ ... وأعرفني بالحلو منهُ وبالمرّ
كفى بالهوى شغلاً وبالشيب زاجراً ... لو انَّ الهوى مما يُنهنهُ بالزجر
بما بيننا من حرمةٍ هل علمتما ... أرقَّ من الشكوى واقسى من الهجر
وأفضحَ من عين المحبّ لسرّه ... ولا سيما ان أطلقتْ عبرةً تجري
وان أنسَ للاشياء لا انسى قولها ... لجارتها : ما اولعَ الحبَّ بالحرّ
فقالت لها الاخرى : فما لصديقنا ... معنًّى وهل في قتلهِ لكِ من عُذر
صِليهِ لعلَّ الوصل يحييهِ واعلمي ... بأنَّ اسير الحبّ في اعظم الاسر
فقالت أذود الناس عنه وقلّما ... يطيب الهوى الا لمنهتك الستر

* * *

وأيقنتا أنْ قد سمعت فقالتا ... من الطارق المصغي الينا وما ندري
فقلتُ فتى ان شئتما كتم الهوى ... والاَّ فخلّاعُ الاعنّةِ والعذر[1]
على انه يشكو ظلوماً وبُخلَها ... عليه بتسليم البشاشة والبشر
فقالت هُجينا . قلت قد كان بعض ما ... ذكرتِ لعلَّ الشر يُدفع بالشر

---

(١) اي والا فانه متهتك لا يبالي احداً

فقالت كأني بالقوافي سوائراً   يردنَ بنا مصراً ويصدرنَ عن مصرِ
فقلتُ اسأتِ الظن بي لست شاعراً   وان كان احياناً يجيش به صدري
صِلي واسألي من شئتِ يُخبرْكِ انني   على كل حالٍ نعمَ مستودَع السرّ
وما انا ممن سار بالشعر ذكره   ولكنَّ اشعاري يسيِّرها ذكري
وللشعر اتباع كثير ولم اكن   له تابعاً في حال عُسر ولا يسرِ
ولكنَّ احسان الخليفة جعفر   دعاني الى ما قلت فيه من الشعرِ
فسار مسير الشمس في كل بلدةٍ   وهبَّ هبوب الريح في البر والبحرِ
ولو جلَّ عن شكر الصنيعة منعم   لجلَّ امير المؤمنين عن الشكرِ
ومن خال ان البحر والقطر اشبها   نداه فقد اثنى على البحر والقطرِ

لا تعذليه [1]

لابي الحَسَن عليّ بن زُرَيق البغدادي وكانت له ابنة عمٍّ قد كَلِف بها اشدَّ الكلف ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقةٍ عَلَتْهُ فقصد ابا الخيبر عبدالرحمن الاندلسي في الاندلس ومدحه بقصيدة بليغة فاعطاهُ عطاء قليلاً . فقال ابن زُرَيق انَّا لله وانَّا اليهِ راجعون سلكت القفار والبحار الى هذا الرجل فاعطاني هذا العطاء . ثم تذكر فراق ابنة عمهِ وما بينهما من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده فاعتلَّ غمًّا ومات . قالوا واراد عبدالرحمن بذلك ان يختبره فلما كان بعد ايام سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتاً وعند راسه رقعةٌ مكتوبٌ فيها هذه القصيدة [1]

لا تعذُليهِ فانَّ العذل يُولعُهُ   قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعُهُ
جاوزتِ في نُصحهِ حدًّا اضرَّ به   من حيث قدَّرتِ ان النُصح ينفعهُ
فأستعملي الرِّفق في تأديبه بدَلاً   من عنفهِ فهو مُضنى القلب مُوجَعهُ
قد كان مضطلعاً بالخطب يحملهُ   فضُلِّعت بخُطوب البين أضلُعهُ

(١) تجدها في الكشكول للعاملي ص٥٥ على اننا تابعنا هنا ترتيب نفح الازهار

يكفيه من لوعة التشتيت أنَّ له ... من النوى كلَّ يوم ما يروّعه
ما آبَ من سَفَر الا وأزعجهُ ... عزمٌ الى سفرٍ بالرغم يُزمعه
تأبى المطالب الأ ان تُكلّفهُ ... للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه
كأنّما هو في حلٍ ومرتحَلٍ ... موكَّلٌ بفضاء الله يَذرعه
اذا الزمان اراهُ في الرحيل غنىً ... ولو الى السّند اضحى وهو يقطعه
وما مجاهدةُ الانسان واصلةٌ ... رزقاً ولا دَعَةُ الانسان تقطعه[1]
قد قسّم الله بين الناس رزقهمُ ... لا يخلق الله من خَلقٍ يضيّعه
لكنهم كُلِفوا حِرصاً فلستَ ترى ... مُسترزقاً وسوى الغايات يُقنعه
والحِرص في الرزق — والارزاق قد قُسِمت — ... بَغيٌ ألا إنّ بغيَ المرء يصرعه
والدهرُ يُعطي الفتى من حيث يمنعهُ ... عفواً ويمنعهُ من حيث يُطمعه

***

أستودعُ اللهَ في بغدادَ لي قمراً ... بالكرخ من فَلَك الأزرار مَطلعه
ودّعتُهُ وبودّي لو يودّعني ... صَفو الحياةِ وأنّي لا أوَدّعه
وكم تشفّعَ بي أنْ لا أفارقهُ ... وللضرورات حالٌ لا تشفّعه
وكم تشبّثَ بي يومَ الرحيل ضُحىً ... وأدمُعي مستهلّاتٌ وأدمعه
لا أكذبُ اللهَ، ثوبُ العذر منخرقٌ ... مني بفرقتهِ لكن أرقّعه
إني أوسّع عُذري في جنايتهِ ... بالبَين عنه وقلبي لا يوسّعه
أُعطيتُ مُلكاً فلم أُحسنْ سياستهُ ... وكلُّ من لا يسوسُ المُلكَ يخلعه
ومَن غدا لابساً ثوبَ النعيم بلا ... شكرٍ عليه فعنهُ الله ينزعه
إعتضتُ من وجه خِلّي بعد فرقتهِ ... كأساً يُجرّعَ منها ما أُجرّعه
كم قائلٍ لي ذُقتَ البينَ قلت له ... ألذنبُ والله ذنبي لستُ ادفعه
هلّا أقمتُ فكان الرُّشدُ أجمعه ... لو أنني حين بانَ الرُّشد اتبعه
لو أنني لم تقعْ عيني على بلدٍ ... في سفرتي هذه الا واقطعه
يا مَن أُقطّع أيامي وأنفدُها ... حزناً عليه وليلي لست اهجعه
لا يطمئنُّ بجنبي مضجعٌ وكذا ... لا يطمئنُّ به مذ بِنتُ مضجعه

---

(١) اي تقطع الرزق

ما كنتُ أحسبُ أنَّ الدهر يفجعني ... به ولا أنَّ بي الايام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ ... عسراء تمنعني حقِّي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعاً فرقاً ... فلم أُوَقَّ الذي قد كنتُ اجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درستْ ... آثارُهُ وعَفَتْ مُذ بِنتُ أَرْبُعه
هل الزمانُ مُعيدٌ فيك لذَّتنا ... أَمِ الليالي التي أمضتْهُ تُرجعه
في ذمَّةِ الله مَن اصبحتَ منزلهُ ... وجادَ غيثٌ على مغناك يُمرعه
مَن عنده ليَ عهدٌ لا يضيع كما ... عندي له عهد صدقٍ لا أُضيِّعهُ
ومن يُصدِّع قلبي ذكرُهُ واذا ... جرى على قلبِهِ ذكري يصدِّعه
لأَصبرنَّ لدهرٍ لا يمتعني ... به ولا بيَ في حالٍ يمتعه
علماً بأنَّ اصطباري مُعقِبٌ فرَجاً ... فأضيقُ الامرِ إن فكَّرتَ أوسعه
علَّ الليالي التي أضنتْ بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن تغُل احداً منا منيَّتُهُ ... لا بدَّ في غدهِ الثاني سيتبعه
وإنْ يَدُم ابداً هذا الفراق لنا ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

اضحى التنائي

للشاعر الاندلسي ابن زيدون (المتوفى ٤٦٣ ﻫ) . والذي يروونه في نظم هذه القصيدة ان الشاعر احبَّ ولادة ابنة امير المؤمنين المستكفي في قرطبة واحبَّته . على ان حبَّهُ لم يكسبه غير العناء . فقد سُجن من اجل ذلك ثم اضطر الى هجر قرطبة والالتحاق بالمعتضد صاحب اشبيلية فكان عنده كاتباً ووزيراً . ولما طال به الامر وقد يئس من لقياها بعثَ اليها بهذه القصيدة يستديم عهدها ويؤكد ودَّها وهي من ارقَّ القصائد الغزلية واكثرها شهرة (١) —

اضحى التنائي بديلًا من تدانينا ... وناب عن طِيب لُقيانا تجافينا
بِنتم وبِنَّا فما ابتلَّت جوانحنا (٢) ... شوقاً اليكم ولا جفَّت مآقينا

---

(١) عن ديوانه ودائرة المعارف للبستاني ونفح الازهار (٢) شفيت صدورنا

يكادُ حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لبينكم ايامنا فغدت ... سُوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلقٌ من تألفنا ... وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا غصونَ الأنس دانيةً ... قطوفها فجنينا منه ما شِينا
ليَسقِ عهدكمُ عهدُ (١) السرورِ فما ... كنتم لأرواحنا الا رياحينا
من مُبلغُ المُلبسينا بانتزاحهمِ ... حزناً (٢) مع الدهر لا يَبلى ويُبلينا
أنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحكنا ... أنساً بقربهمِ قد عاد يُبكينا
غيظَ العدى من تساقينا الهوى فدعَوا ... بأنْ نغصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكونُ وما يُخشى تفرقنا ... فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا
لم نعتقدْ بعدكم الا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلّدْ غيرهُ دينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يُغيّرنا ... إن طالَ ما غيّرَ النأيُ المُحبّينا
واللهِ ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنكِ يشغلنا ... ولا اتّخذنا بديلاً منكِ يُسلينا

* * *

يا ساريَ البرق غادِ القصر فاسقِ به ... مَن كان صِرفَ الهوى والودِّ يسقينا
ويا نسيمَ الصبا بلّغ تحيّتنا ... مَن لو على البُعد حيّا كان يُحيينا
يا روضةً طالما أجنتْ لواحظنا ... ورداً جلاهُ الصِّبا غضّاً ونسرينا
ويا حياةً تملّينا بزهرتها ... مُنىً ضروباً ولذّاتٍ أفانينا
ويا نعيماً رفلنا من غضارته ... في وشيِ نُعمى سحبنا ذيلهُ حينا
لسنا نسمّيكِ إجلالاً وتكرمةً ... وقدرُكِ المُعتلي عن ذاك يُغنينا
اذا انفردتِ وما شوركتِ في صفةٍ ... فحسبُنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا
يا جنّةَ الخلدِ أُبدلنا بسدرتها ... والكوثرِ العذبِ زقّوماً وغسلينا (٣)
كأننا لم نبِتْ والوصلُ ثالثنا ... والسعد قد غضّ من أجفان واشينا

(١) عهد السرور اي مطر السرور   (٢) حزناً مفعول الملبسين
(٣) ثمر مر الطعم . وغسلين شجر في الجحيم او ما يسيل من جلود اهلها

سرَّان في خاطر الظَّلماء يكتُمنا حتى يكاد لسان الصبح يُفشينا
لا غروَ أنَّا ذكرنا الحزن حين نَهت عنه النُّهى وتركنا الصبرَ ناسينا
إنَّا قرأنا الأسى يوم النوى سُوَراً مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا
امَّا هواكِ فلم نعدِلْ بمَنهلهِ شرباً وان كان يُروينا فيُظمينا
لم نَجفُ أُفق جمالٍ انت كوكبه سالينَ عنهُ ولم نهجرْهُ قالينا
ولا اختياراً تجنَّبناكِ عن كثب لكن عَدَتنا على كُرهٍ عَوادينا
نأسى عليك اذا حُثَّت مشعشعةً فينا الشمولُ وغنَّانا مُغنّينا
لا أكؤس الراح تُبدي من شمائلنا سِيما ارتياحٍ ولا الأوتار تُلهينا

...

دومي على العهد ما دمنا مُحافِظَةً فالحُرُّ من دانَ إنصافاً كما دِينا
فما ابتغينا خليلاً منكِ يُحبِبُنا[1] ولا استفدنا حبيباً عنكِ يُغنينا
ولو صَبا نحونا من عُلوِ مطلعهِ بدرُ الدُّجى لم يكن حاشاكِ يُصبينا
أوْلي وفاء وإن لم تبذُلي صِلَةً فالذِّكر يُقنعنا والطَّيف يكفينا
عليكِ مني سلامُ اللهِ ما بَقيت صبابةٌ منكِ نُخفيها فتُخفينا

(١) يُرضينا

يا ليلَ الصبِّ

لابي الحسن علي الحُصري القيرواني (٤٨٨ ﻫ)

وهي مقدّمة رقيقة لقصيدة انشدها الشاعر في احد الامراء وقد اعجب بها الناس وتداولها المنشدون وشغل بمعارضتها كثير من الشعراء المتقدمين والمتأخرين(١)

يا ليلَ الصبِّ متى غدُهُ ... أقيامُ الساعةِ موعِدُهُ
رقد السمّارُ فأرّقهُ ... اسفٌ للبينِ يردّده
فبكاه النجم ورقّ له ... مما يرعاه ويرصده
كلِفٌ بغزالٍ ذي هَيَفٍ ... خوفُ الواشين يُشرّده
نصبتْ عيناي له شركاً ... في النوم فعزّ تصيُّده
صَنَمٌ للفتنة منتصبٌ ... أهواه ولا اتعبّده
صاحٍ والخمرُ جنى فمِهِ ... سكرانُ اللحظِ مُعربدُهُ
ينضو من مقلتهِ سيفاً ... وكأنّ نُعاساً يُغمده
فيريقُ دمَ العشّاق به ... والويل لمن يتقلّده
يا من جَحدتْ عيناه دمي ... وعلى خدّيه تورّده
خدّاك قد اعترفا بدمي ... فعلامَ جفونُك تجحدُهُ
بالله هب المشتاق كرى ... فلعلَّ خيالَك يُسعده
ما ضرّكَ لو داويتَ ضنى ... صبٍّ يُدنيك وتُبعده
لم يُبقِ هواكَ له رمقاً ... فليبكِ عليه عُوّدُه
وغداً يقضي او بعد غدٍ ... هل من نظر يتزوّده
يا اهل الشوق لنا شرَقٌ ... بالدمع يفيض مُوردُه
يهوى المشتاقُ لقاءكُمُ ... وصروفُ الدهر تُبعّده

(١) من اراد الاطلاع على هذه المعارضات فليراجع ما نشره منها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف سنة ١٩٢١

امثلـة

من غزل ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثم تذوب في الفضاء الواسع تاركـة وراءها نغماً لطيفاً يرجعه الشعر فيطرب السامعين . وقد اختلف الناس في النظر الى شعره فمنهم من نظر نظراً باطنياً وفسّره تفسيراً صوفياً . ومنهم من نظر اليه نظراً ظاهرياً ورأى فيه لواعج العشاق وعواطف المدنفين . وكيفما كان النظر اليه فهو من ارق الشعر (رغم تأنقه البديعي) وله شهرة واسعة في مجالس المتأدبين

انا القتيل

ما بين معترَكِ الاحداق والُمهَج — انا القتيل بلا إثمٍ ولا حرجِ
ودَّعت قبلَ الهوى روحي لِما نظرت — عيناي من حسُنِ ذاكَ المنظر البهج
للهِ اجفـانُ عينٍ فيكَ ساهرةٍ — شوقاً اليك وقلبٌ بالغرام شجِ
واضلُعٌ نحِلتْ كادتْ تقوّمهـا — من الجوى كبدي الحرَّى من العوج
وادُمعٌ هملـت لولا التنفُّسُ منْ — نارِ الهوى لم اكَدْ انجو من اللُجج
وحبّذا فيك اسقامٌ خفيتُ بها — عنّي تقومُ بها عند الهوى حُججي
اصبحتُ فيك كما أمسيتُ مكتئباً — ولم اقل جزَعاً يا أزْمةُ انفرجي
أهفو الى كلِّ قلبٍ بالغرام له — شُغلٌ وكلِّ لسانٍ بالهوى لهِج
عذِّبْ بما شئتَ غيرِ البعد عنك تجد — اوفى محبٍّ بما يرضيك مبتهج
وخذ بقيَّةَ ما ابقيتَ من رمقٍ — لا خير في الُحبِّ إن ابقى على المهج
من لي باتلاف روحي في هوى رشاٍ — حُلوِ الشمائل بالارواح ممـتزج

من مات فيه غراماً عاش مرتقياً ما بين اهل الهوى في ارفع الدَّرج
محجَّبٌ لو سرى في مثلِ طُرَّته اغنتهُ غُرَّتهُ الغرَّا عن السُّرج
وان ضَللتُ بليلٍ من ذوائبهِ اهدى لعيني الهدى صبحٌ من البلَج
وان تنفَّسَ قال المسكُ معترفاً لعارفي طيبه من نشرهِ أرجي
يا ساكنَ القلبِ لا تنظر الى سكَني واربح فؤادك واحذرْ فتنةَ الدَّعج
تبارك اللهُ ما احلى شمائله فكم اماتتْ واحيتْ فيه من مُهج
يهوى لذكرِ اسمهِ من لجَّ في عذَلي سمعي وان كان عذلي فيه لم يلج
وارحمُ البرقَ في مسراه منتسباً لثغره وهو مستحيٍ من الفلَج
تراه ان غابَ عني كلُّ جارحةٍ في كلّ معنىً لطيفٍ رائقٍ بهج
في نغمةِ العود والناي الرخيمِ اذا تألفا بين ألحانٍ من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائلِ والإصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نَورٍ من الازهارِ منتسج
وفي مساحب اذيالِ النسيم اذا اهدى اليَّ سُحيراً اطيبَ الارج
وفي التثامي ثغرَ الكأس مرتشفاً ريق المدامةِ في مستنزهٍ فرج
لم ادرِ ما غربةُ الاوطانِ وهوَ معي وخاطري اين كنا غيرُ منزعج

قلبي يحدثني

قلبي يحدِّثني بانكَ مُتلفي روحي فِداكَ عرفتَ ام لم تعرفِ
لم أقضِ حقَّ هواك ان كنتُ الذي لم أقضِ[1] فيه اسىً ومثلي من يفي
ما لي سوى روحي وباذلُ نفسهِ في حبِّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيتَ بها فقد اسعفتني يا خيبة المسعى اذا لم تُسعف

---

(١) اقضي الثانية بمعنى اموت

يا مانعي طيبَ المنامِ ومانحي ثوبَ السَّقام به ووجدي المتلف
عطفاً على رمقي وما ابقيتَ لي من جسميَ المضنى وقلبي المدنف
اهفو لانفـاس النسيم تعلَّةً ولوجه من نقلتْ شذاه تشوُّفي
فلعلَّ نار جوانحي بهبوبهـا ان تنطفي ، وأودَّ ان لا تنطفي
يا اهل وُدّي انتمُ املي ومن ناداكمُ يا اهلَ ودّي قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا كرَماً فاني ذلك الخِلُّ الوفي
وحياتِكم وحياتِكم قسَماً وفي عمري بغير حياتِكم لم احلِف
لو أنَّ روحي في يدي ووهبتها لِمُبَشِّري بقدومكم لم أُنصف
لا تحسبوني في الهوى متصنّعاً كَلَفي بكم خُلقٌ بغير تكلُّف
اخفيتُ حبَّكمُ فاخفاني اسىً حتى لعمري كدتُ عنه اختفي
وكتمتُهُ عني فلو ابديتـهُ لوجدتُهُ اخفى من اللطف الخفي
ولقد اقول لمن تحرَّش بالهوى عرَّضتَ نفسك للبلا فاستهدف
انت القتيلُ بأيِّ من احببتهُ فاخترْ لنفسك في الهوى من تصطفي
قل للعذول اطلت لوميَ طامعاً أنَّ الملام عن الهوى مستوقفي
دعْ عنك تعنيفي وذُقْ طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنّف

***

اسعدْ أُخيَّ وغنّني بحديثهِ وأنثر على سمعي حلاهُ وشنّف
لأرى بعين السَّمعِ شاهد حسنه معنىً فأتحفني بذاك وشرّف
يا أختَ سعدٍ من حبيبيَ جئتني برسالةٍ اديتـهـا بتلطُّف
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرتُ ما لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي[1]
ان زار يوماً يا حشاي تقطّعي كلفاً بهِ او سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنبٌ ومن اهوى معي ان غاب عن انسان عيني فهو في[2]

(١) ايتها الفتاة المنتمية الى قبيلة سعد قد حملت رسالة الحبيبة الي ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعتُ وعرفتُ. (٢) اي في قلبي

زدني بفرط الحب

زدني بفرط الحب فيك تحيُّرا وارحم حشىً بلظى هواك تسعَّرا
واذا سألتك ان اراك حقيقةً فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلبُ انت وعدتني في حبهم صبراً فحاذرْ ان تضيق وتضجرا
انَّ الغرامَ هو الحياةُ فمتْ به صبّاً فحقك ان تموت وتُعذرا
قل للذين تقدَّموا قبلي ومَنْ بعدي ومن اضحى لاشجاني يرى
عني خذوا وبيَ اقتدوا وليَ اسمعوا وتحدَّثوا بصبابتي بين الورى
ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ ارقُّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرةً أمّلتها فغدوت معروفاً وكنت منكَّرا
فدُهشت بين جمالهِ وجلالهِ وغدا لسان الحال عني مُخبرا
فأدِرْ لحاظك في محاسن وجههِ تلقى جميع الحسن فيه مصوَّرا
لو أنَّ كلَّ الحسن يكمُلُ صورةً ورآه كان مهلّلا ومكبِّرا

من الموشحات الاندلسية

كان اسلوبُ النظم عند العرب اسلوب القصيدة ذات الابيات القائمة على رويٍّ واحد . ثم ظهر التوشيح في الاندلس فاستحسنه النــاس وجروا عليه وقــد تفنن فيه اهل هذا العصر ولا سيما في المهاجر . على ان اسلوب القصيدة لا يزال الشائع في الاقطار العربية

جادك الغيث

لِلسان الدين ابن الخطيب

جادكِ الغيث اذا الغيث همى   يا ليالي الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلكِ الا حُلما   في الكرى او خلسة المختلسِ

...

اذ يقُود الدهرَ اشتاتُ المنى   ينقل الخطوَ على ما ترسم[1]
زُمراً بين فرادى وثُنــا   مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا[2] قد جلّل الروضَ ثنا   فثغور الزهر منــه تبسم
وروى النعمان عن مــاء السما   كيف يروي مالكٌ عن أنسِ[3]
فكساهُ الحسن ثوباً مُعلما   يزدهي منه بابهى ملبس

...

في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى   بالدجى لولا شموس الغرَرِ
مال نجم الكأس فيها وهوى   مستقيم السيرِ سعدَ الاثرِ
وطرٌ ما فيه من عيبٍ سوى   انــه مرَّ كلمح البصرِ

*

حين لذَّ الأنس مع حلو اللمى   هجم الصبح هجوم الحرسِ
مالت الشمس بنا او ربمــا   أثرت فينا عيون النرجسِ

...

ايُّ شيءٍ لامرىءٍ قد خلصا   فيكون الروض قد مُكِّن فيه

(١) اي يسير الدهر كما تشتهي المنى (٢) الحيا المطر (٣) وحدَّث زهر الشقيق (النعمان) عن ريّ المطر له كما يحدث الامام مالك عن ابيه انس . وفي لفظه النعمان ومــاء السماء تورية اي اشارة الى الملك النعمان وامه ماء السماء

تنهب الازهار فيه الفُرصا   أمنتْ من مكرهِ ما تتقيهْ
فاذا الماء تناجى والحصا   وخلا كلُّ خليلٍ باخيهْ

*

تُبصر الورد غيوراً بَرِما   يكتسي من غيظهِ ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما   يسرق السمع بأذني فرسِ

. . .

يا أُهيلَ الحيّ من وادي الغضا   وبقلبي مسكنٌ انتم بهِ
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا   لا ابالي شرقهُ من غربهِ
فاعيدوا عهد أنسٍ قد مضى   تعتقوا عبدكمُ من كربه

*

واتّقوا الله وأحيوا مغرما   يتلاشى نفساً في نفَسِ
حبس القلب عليكم كرماً   أفترضون خراب الحُبُسِ

. . .

وبقلبي منكم مقتربُ   بأحاديث المنى وهو بعيدْ
قمرٌ يطلع منه المغربُ   شقوة المضنى به وهو سعيد
قد تساوى محسنٌ او مذنبُ   في هواه بين وعدٍ ووعيد

*

أحور المقلة معسول اللمى   جال في النفس مجال النفَسِ
سدّد السهم فأصمى اذ رمى   بفؤادي نبلة المفترسِ

. . .

ما لقلبي كلما هبّت صبا   عادهُ عيدٌ من الشوق جديدْ
جلب الهمَّ له والوصبا   فهو للاشجان في جهدٍ جهيد
كان في اللوح له مكتتبا   قوله « انَّ عذابي لشديد »

*

لاعجٌ في اضلعي قد أُضرما   فهي نار في هشيم اليَبسِ
لم يدع في مهجتي الا الذمّا[1]   كبقاء الصبح بعد الغلسِ

(١) الذماء بقية الروح

ايها الساقي

لمحمد بن عبد الملك بن زهر (وقيل لابن المعتز) معجم الادباء ٧_٢١

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمعِ

. . .

ونديمٍ همت في غرّته وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزقّ اليه واتّكى وسقاني اربعاً في اربع

. . .

ما لعيني عُشيت بالنظر انكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت فاسمع خبري
عُشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

. . .

غصن بان مال من حيث استوى بات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى
كلما فكّر بالبين بكى ويحهُ يبكي لما لم يقع

. . .

ليس لي صبر ولا لي جلد يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما اجد
مثل حالي حقُّها ان يشتكى كمد اليأس وذل الطمع

. . .

كبدي حرّى ودمعي يكف يعرف الذنب ولا يعترف
ايها المعرض عما اصف
قد نما حبي بقابي وزكا لا تخل في الحب اني مدّعي

مقطَّعات غزلية مشهورة

من الشعر القديم

من شعر عبدالله بن الدُّمَينة

(الاغاني (بولاق) ١٥–١٥٦)

ألا يا صَبا نجدٍ متى هجتِ من نجدِ — فقد زادني مسراكِ وجداً على وجدِ
أإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى — على فَنَنٍ غضّ النبات من الرَّند
بكيتَ كما يبكي الوليد ولم تكن — جليداً وابديت الذي لم تكن تُبدي
وقد زعموا ان المحبَّ اذا دنا — يَمَلُّ وان النأي يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا — على انّ قرب الدار خير من البعد
على انَّ قرب الدار ليس بنافعٍ — اذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

لابي صخر الهذلي

الاغاني (بولاق) ٥–١٦

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها — فلمّا انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبّها زدني جوىً كلَّ ليلةٍ — ويا سلوة الايام موعدك الحشر
واني لتعروني لذكراك هِزَّةٌ (١) — كما انتفض العصفور بلّلهُ القطر
اما والذي ابكى وأضحك والذي — امات واحيا والذي امرُه الامر
لقد تركتني احسد الوحش ان ارى — أليفين منها لا يروعها الدهر

---

(١) في الاغاني فترة وقد تبعنا هنا رواية اخرى

لجميل في فتاته بُثينة

(ديوانه)

لقد لامني فيها اخ ذو قرابةٍ حبيب اليه في ملامته رشدي
فقلت له فيها قضى الله ما ترى عليَّ وهل فيما قضى الله من ردّ
فان كان رشداً حبها او غوايةً فقد جئتهُ . ما كان مني على عمد
فلا وابيها الخير ما خنت عهدها ولا ليَ علمٌ بالذي فعلت بعدي
افي الناس امثالي احبَّ فحالهم كحاليَ ام أحببتُ من بينهم وحدي
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما لقيتُ بها ام لم يجد احدٌ وجدي

وقوله

اراني لا القى بثينة مرّةً من الدهر الا خائفاً او على رحل
خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حبِّ قاتلة قبلي

لقيس ابن الملوّح (مجنون ليلى)

الاغاني (دار الكتب) ٢-٤٨ وتروى « في الحماسة » لنصيب

كأنَّ القلب ليلةَ قيل يُغدى بليلى العامريّة او يُراحُ
قطاةٌ عزَّها شركٌ فباتت تُجاذبهُ وقد علق الجناح

وقوله – الاغاني ٢-٦٣

جرى السيلُ فاستبكانيَ السيل اذ جرى وفاضت له من مقلتيَّ غروبُ
وما ذاك الأ حين ايقنتُ انهُ يكون بوادٍ انتِ منه قريبُ
يكون أجاجاً دونكم فاذا انتهى اليكم تلقَّى طيبكم فيطيبُ

وقوله – ديوانه – مطبعة حجازي

ذكرتكِ والحجيج له ضجيج بمكّة والقلوبُ لها وجيبُ
فقلتُ ونحن في بلدٍ حرامٍ به لله أخلصت القلوب
اتوبُ اليك يا ربّاه عمّا جنيت فقد تكاثرت الذنوب
ولكن عن هوى ليلى وحبي زيارتها فاني لا اتوب

للصمّة القشيري

عن الحماسة والاغاني

حننتَ الى ريّا ونفسك باعدت مزاركَ من ريّا وشعبا كُما معا
فما حسَنٌ أنْ تأتيَ الامرَ طائعاً وتجزَعَ أنْ داعي الصّبابة أسمعا
قفا ودِّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى وقلَّ لنجدٍ عندنا ان يُودَّعا
بنفسي تلك الارض ما أطيبَ الرُّبى وما احسن المُصطاف والمتربَّعا
وليست عشيّاتُ الحمى برواجعٍ عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا
ولما رأيت البِشرَ أعرضَ دُوننا وجالت بنات الشّوق في الصدر نُزَّعا
بكت عينيَ اليسرى فلمّا زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفّتُّ نحو الحيّ حتى وجدتُني وَجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا(١)

---

(١) الليت صفحة العنق والاخدع عرق في العنق

لنُصيب . في كتاب «ديوان الحماسة» لابي تمام [1]

لقد هتفتْ في جنح ليلٍ حمامة　　على فننٍ وهناً [2] واني لنائم
فقلتُ اعتذاراً عند ذاك وانني　　لنفسي مما قد رأيتُ للائم
أأزعمُ اني هائمٌ ذو صبابةٍ　　لسُعدى ولا ابكي – وتبكي الحمائم
كذبتُ وبيت الله لو كنت عاشقاً　　لما سبقتني بالبكاء الحمائم

(١) وهو مجموعة مشهورة اختارها ابو تمام من اشعار العرب واشتهر بها حتى صار يقال ابو تمام صاحب الحماسة . وهي تجمع فنونا من الشعر على انه قد غلب عليها اسم الباب الاول منها

(٢) وهناً . ليلاً

باب الوصف

الوصف نوعان حسّي وخيالي[١] . فالاول يتناول المحسوسات فيصوّرها وهو عين ما يفعلهُ الرسّام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة ويجسّمها بالالوان على لوحته فتبدو فتانة تميل اليها النفوس ويتنافس في اقتنائها اهل الذوق . وقد اجاد العرب في هذا النوع من الوصف . فعُني الاقدمون منهم بما له علاقة بحياتهم البدوية كالجمل والصحراء والسيف والطلول وجمال جسم الحبيب . ولما جاء العصر العباسي تحوّل الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور وما شاكل من ظواهر الحضارة والترف . وكذلك فعل الذين بعدهم ولا يزال الشعر العربي الى الآن يعنى بالوصف الحسّي بل هو عامّ في ادب كل امّة ويعدّ من ابواب الشعر الهامّة

اما الوصف الخيالي فنظر فنّي الى ما وراء المحسوسات واذا كان الشاعر واسع الخيال فهو لا يقف عند حدّ ما تقع عليه العين فقط بل يتعدّاه الى مناطق يفتحها امامه الخيال فيجعل المرئيات اساساً لغير المرئيات ويولّد عن المحسوسات صوراً مجرّدة يرسمها للبشر تأملات وذكريات . يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة وتمرّ امامه على صفحات الماء حوادث الايام فيذكر الامم الغابرة والوقائع التاريخية وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان وكم تتسع الحياة لخواطر نشعر بها لدن رؤيتنا بعض المشاهد الطبيعية . فالوصف الخيالي هو وصف التأثر الذي يحدثه فيك المنظر الحسّي والتعبير عما يوحي اليك من خواطر وصور فكرية

وهذا النوع من الوصف قليل في الشعر العربي القديم قلما اهتم بها ادباء الاجيال الماضية ولذلك لم يتركوا لنا من آثارهم فيه الا النزر اليسير

اما اليوم فان الشعر الحديث شديد العناية به وهو يظهر في هذه الوقفات الشعرية التي يقفها الشعراء لدى الآثار التاريخية او الانهار العظيمة او مآثر الاقدمين او عجائب الحضارة الجديدة . فتحملهم المشاهد الى آفاق فكرية بعيدة يرون فيها مرعى خصباً لخيالاتهم . واليك بعض الامثلة من النوعين —

---

(١) تلخص هذه المقدمة عن امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ١٩٩—٢٠٣

ايوان كسرى

قصد البحتري هذا القصر في يوم ضاق صدره واشتدت عليه الهموم فوقف يتأمل طلوله ويفكّر في تقلّب الزمان عليه وعلى الاكاسرة الذين شادوه . وذكر عظمة الفرس يوم كان مقرّ سلطانهم، واياديهم البيضاء على وطنه اليمن اذ ساعدوا ملكه سيف بن ذي يزن على الاحباش . فهاجته الذكرى ونظم هذه القصيدة الرائعة في ٥٦ بيتاً واصفاً ما رآه وذاكراً ما سلف من عهده . قال –

صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي وترفّعت عن جدا كل جبسِ
وتماسكت حين زعزعني الدهـر التماساً منه لتعسي ونكسي
بُلَغٌ من صُبابة العيش عندي طفّفتها الايام تطفيف بخس

وبعد ان يصف همّهُ ويبث شكواه يقول

حضرتْ رحلي الهموم فوجّهت الى ابيض المدائن عَنسي[1]
اتسلّى عن الحظوظ وآسى لمحلٍ من آل ساسان[2] درس
ذكّرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي
وهمُ خافضون في ظل عالٍ[3] مُشرفٍ يحسر العيون ويُخسي
حِللٌ لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس مُلس[4]
نقل الدهرُ عهدهنَّ عن الجدّة حتى غدونَ أنضاء لِبس
فكأن الجرماز[5] من عدم الإنس واخلالهِ بنيّةُ رَمس
لو تراه علمتَ ان الليالي جعلتْ فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قومٍ لا يُشاب البيان فيهم بلَبس
فاذا ما رأيت صورة انطا كيّةَ ارتعت بين روم وفرس[6]

---

(١) نزلت بساحتي الهموم فوجهت ناقتي (عنسي) الى القصر الابيض في المدائن
(٢) آل ساسان ملوك الفرس (٣) وهم متنعمون في ظل قصر عالٍ
(٤) ان هذه الطلول ليست كاطلال البدو في القفار (٥) الجرماز اسم احد القصور هناك
(٦) في هذا البيت والستة التالية يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم

والمنايا مواثلٌ وانو شروان يُزجي الصفوف تحت الدِرَفْس(١)
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراكُ الرجال بين يديه في خفوتٍ منهم واغماض جرس
من مُشيحٍ يهوي بعامل سيفٍ ومُليحٍ من السنان بتُرس(٢)
تصفُ العين أنهم جِدُّ احياء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقرّاهم يداي بلمس(٣)

* * *

عكستْ حظَّهُ الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلُّداً وعليهِ كلكلٌ من كلاكل الدهر مُرسي
مشمخرٌ تعلو له شرفاتٌ رُفعت في رؤوس رَضوى وقُدْس(٤)
لابساتٍ من البياض فما تبصر منها الا فلائل بُرس(٥)
ليس يُدرى أصنعُ إنسٍ لجنٍ سكنوهُ ام صُنع جنٍّ لانس
عَمرت للسرور دهراً فصارت للتعزّي رباعهم والتأسي

(١) الدرفس العلم الفارسي (٢) من مهاجم بالسيف ومحاذر يدافع بالترس
(٣) يشتد ارتيابي انهم احياء حتى المسهم بيدي (٤) رضوى وقدس جبلان
(٥) البرس القطن

وصف الاسد

قطعة من قصيدة المتنبي في بدر بن عمار حاكم طبريا . وكان بدر قد خرج يوماً مع رجاله لصيد الاسود . ففاجأوا اسداً ياكل فريسته ولما شاهدهم هجم عليهم فضربه بدر بسوطه ثم تمكنوا منه وقتلوه . وفي القصيدة ذكر لاسد آخر فرَّ منهم ناجياً بنفسه . يصف الشاعر ذلك وصفاً رائعاً في الابيات التالية

أمعفِّرَ الليثِ الهِزبرِ بسَوطِهِ ... لمن ادَّخرتَ الصارمَ المصقولا
وقعتْ على الأُردنِّ منه بليَّةٌ ... نُضدتْ بها هام الرفاق تلولا[1]
ورْدٌ اذا ورد البحيرة شارباً ... وَرَدَ الفرات زئيرهُ والنيلا
متخضِّبٌ بدم الفوارس لابسٌ ... في غِيلِهِ من لِبدتيه غِيلا[2]
ما قوبلتْ عيناهُ الا ظُنَّتا ... تحت الدجى نار الفريق حُلولا[3]
في وَحدة الرُّهبان الا انه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأُ الثرى مترفِّقاً من تيهِهِ ... فكأنهُ آسٍ يجسُّ عليلا
ويردُّ عُفرتهُ الى يأفوخه[4] ... حتى تصير لرأسه اكليلا
وتظنُّهُ – مما يُزمجر – نفسُهُ[5] ... عنها لشدة غيظه مشغولا
قصرتْ مخافتهُ الخطى فكأنما ... ركبَ الكميُّ جوادهُ مشكولا[6]
ألقى فريسته وبربر دونها ... وقربتَ قرباً خاله تطفيلا
فتشابه الخُلُقان في إقدامِهِ ... وتخالفا في بذلك المأكولا
اسدٌ يرى عضويه فيك كليهما ... مَتْناً ازلَّ وساعداً مفتولا
ما زال يجمع نفسه في زُورِهِ ... حتى حسبت العَرض منه الطولا

---

(١) كثرت بسببه قتلى المسافرين فصارت رؤوسهم كالتلول
(٢) لابس وهو في غابته غابةً من شعره
(٣) عيناه تلتهبان كنار المسافرين وقد حلوا في مكان من الامكنة
(٤) العُفرة من الاسد شعر قفا الراس (٥) نفسه فاعل تظن
(٦) رهبته جعلت الخيول ضيّقة الخطى كانها مقيدة الارجل

وَيدقُّ بالصدر الحجار كأَنَّهُ يبغي الى ما في الحضيض سبيلا
وكأَنَّهُ غرَّتهُ عينٌ فادَّنى لا يُبصر الخطبَ الجليل جليلا
أنفُ الكريم من الدنيئة تاركٌ في عينه العددَ الكثير قليلا
والعارُ مضاضٌ وليس بخائفٍ من حتفه مَن خاف مما قيلا
سَبَق التقاءكهُ بوثبة هاجمٍ لو لم تصادمهُ لجازك ميلا
خذَلتهُ قوّته وقد كالحته فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضت منيّتهُ يديه وعنقه فكأنما صادفتهُ مغلولا

* * *

سمع ابن عمَّته به وبحاله فنجا يهرول امس منك مهولا
وامرُءٌ مما فرَّ منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلا
تلفُ الذي اتخذ الجراءة خُلَّة وعظَ الذي اتَّخذ الفِرار خليلا

ومما يذكر للمتنبي وصفه للبدويات ومقابلته اياهن بالحضريات . وذلك في مقدمة قصيدة يمدح بها كافور الاخشيدي . قال –

مَن الجآذرُ في زيّ الاعاريبِ حُمر الحلى والمطايا والجلابيبِ
ان كنت تسأل شكًا في معارفها فمن بلاك بتسهيدٍ وتعذيب
سوائرٌ ربما سارت هوادجها منيعةً بين مطعونٍ ومضروب
وربّما وخدتْ ايدي المطيّ بها على نجيعٍ من الفرسان مصبوب (١)
كم زورةٍ لك في الأعراب خافيةٍ ادهى وقد رقدوا من زورة الذيب
ازورهم وسوادُ الليل يشفع لي وانثني وبَياض الصبح يُغري بي
ما أوجهُ الحضر المستحسنات به كأوجه البدويّات الرعابيب
حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوب
اين المعيزُ من الآرام ناظرةً وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب
افدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجنَ من الحمّام مائلة اوراكهنَّ صقيلاتِ العراقيب
ومن هوى كلَّ من ليست مموّهةً تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادتهِ رغبتُ عن شعَرٍ في الرأس مكذوب

---

(١) ان مطايا هذه الحسان تحميها الابطال فتسير على دماء الاعادي

وقال يصف حمى اصابته ويعرِّض بالرحيل عن مصر

مَلومُكما يَجلُّ عنِ الملامِ ووقعُ فعالهِ فوقَ الكلامِ (١)
ذَراني والفلاةَ بلا دليلٍ ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ
فاني أستريحُ بذي وهذا وأتعبُ بالإناخةِ والمُقامِ
ولا أمسي لأهل البخل ضيفاً وليس قِرًى سوى مُخِّ النِّعامِ (٢)
ولمَّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبّاً جزَيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ (٣)
وصرتُ أشكُّ فيمن أصطفيهِ لعلمي انَّهُ بعضُ الأنامِ

***

أقمتُ بارضِ مصرَ فلا وَرائي تخبُّ بي الركابُ ولا امامي (٤)
ومَلَّني الفِراشُ وكانَ جنبي يَملُّ لقاءَهُ في كل عامِ
قليلٌ عائدي سَقِمٌ فؤادي كثيرٌ حاسدي صَعْبٌ مَرامي
عليلُ الجسمِ مُمتنعُ القيامِ شديد السكْرِ من غيرِ المُدامِ
وزائرَتي كأنَّ بها حياءً فليسَ تزورُ الا في الظلامِ (٥)
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي (٦)
يضيقُ الجلدُ عن نَفَسي وعنها فتوسعهُ بانواعِ السَّقامِ
كأنَّ الصبحَ يطرُدُها فتجري مَدامِعُها باربعةٍ سِجامِ

(١) يخاطب صاحبيه فيقول ان من تلومانه على ركوب الاسفار هو اعلى من ان يصل اليه الملام
(٢) وليس لي زاد البتة اشارة الى ان النعام لا مخ له (٣) خباً اي خداعاً
(٤) تخب بي الركاب اي تسير بي الابل ويريد بهذا البيت انه لزم الاقامة بها فلم يبرح
(٥) اشارة الى الحمى (٦) المطارف اردية الخز . والحشايا الفراش

أُراقبُ وقتها من غيرِ شوقٍ   مراقبةَ المشوقِ المستهامِ
ويصدقُ وعدها والصدقُ شرٌّ   إذا القاكَ في الكُرَبِ العظامِ
أبِنتَ الدهرِ عندي كلُّ بنتٍ   فكيفَ وصلتِ انتِ من الزحامِ (١)
جرحتِ مجرَّحاً لم يبقَ فيه   مكانٌ للسيوف ولا السِّهامِ
يقولُ ليَ الطبيبُ اكلتَ شيئاً   وداؤكَ في شرابكَ والطعامِ
وما في طبّه اني جوادٌ   اضرَّ بجسمهِ طولُ الجَمامِ (٢)
تعوَّدَ أنْ يُغبِّرَ في السَّرايا   ويدخُلَ من قَتامٍ في قتامِ (٣)
فأُمسِكَ لا يُطالُ لهُ فيرعى   ولا هو في العليقِ ولا اللِّجامِ (٤)
فان امرَضْ فما مرِضَ اصطباري   وإنْ أُحمَمْ فما حُمَّ اعتزامي
وإنْ أسلمْ فما ابقى ولكنْ   سَلِمْتُ منَ الحمام الى الحمامِ
تمتَّعْ من سُهادٍ او رُقادٍ   ولا تأمل كرًى تحت الرجامِ (٥)
فإنَّ لثالث الحالين معنًى   سوى معنى انتباهكَ والمنامِ (٦)

---

(١) يريد ببنت الدهر الحمى وبنات الدهر شدائده فيقول ايها الحمى عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول اليَّ   (٢) الجمام الراحة

(٣) تعود ان يثير الغبار بين الجيوش ويخرج من غبرة الى غبرة اي من معركة الى اخرى   (٤) فأمسك لا يرخى له الحبل فيرعى ولم يقدم له العليق ولم يكن تحت اللجام في السفر . وقد شبه حالته مع كافور بحالة هذا الجواد   (٥) الرجام هنا حجارة القبر . يقول تمتع ما دمت حيا بحالتي السهر والنوم ولا ترج نوماً او راحة في القبر   (٦) يريد بثالث الحالين الموت . يقول حال الموت غير حال الحياة من سهر ونوم

الربيع

من زهرية لصفيّ الدين الحلّي

يصف بها ورود الربيع العطرة ونسائمه اللطيفة بعد برد الشتاء وظلامه

وَرَدَ الربيع فمرحباً بوُرُودِهِ ... وبنور بهجتِهِ ونُور وُرودِهِ (١)
وبحُسن منظرهِ وطيب نسيمهِ ... وأنيق مَلبسِهِ ووشيِ برُودِه (٢)
فصلٌ اذا فخرَ الزمانُ فانَّهُ ... انسانُ مُقلتِهِ وبيتُ قصيدِهِ (٣)
يُغني المزاجَ عن العلاج نسيمُهُ ... باللطف عند هبوبه وركوده
يا حبذا أزهارُهُ وثمارُهُ ... ونَباتُ ناجِمِه وحبُّ حصيدِه (٤)
والغصنُ قد كُسيَ الغلائلَ بعدما ... اخذت يدا كانونَ في تجريده (٥)
نال الصِبا بعد المشيب وقد جرى ... ماء الشبيبة في منابت عوده
والوردُ في اعلى الغصون كأنَّه ... مَلكٌ تحفُّ به سَراةُ جنودِه (٦)
والياسمين كعاشقٍ قد شفَّهُ ... جَورُ الحبيب بهجرِهِ وصُدوده
فانظر لنرجسِهِ الشهيِّ كأنَّهُ ... طَرْفٌ تنبَّهَ بعدَ طولِ هجودِه (٧)
وانظر الى المنظوم من منثورهِ ... متنوِّعاً بفصولِهِ وعقوده
اوَ ما ترى الغيمَ الرقيقَ وما بدا ... للعين من اشكالِهِ وطروده
والسحبُ تعقدُ في السماء مآتماً ... والارضُ في عُرْسِ الزمان وعيده
نَدبتْ فشقَّ لها الشقيقُ جيوبَهُ ... وازرقَّ سوسنها لِلَطْمِ خدوده (٨)

---

(١) النور الزهر (٢) برود جمع برد وهو الثوب . وشي نقش
(٣) انسان المقلة اي بؤبؤ العين ويراد به افضل شيء فيه
(٤) الناجم النبات لا ساق خشبي له كساق الشجر (٥) الغلائل الدروع وتعني هنا القشور
(٦) السراة سادات . تحف به تحيط به (٧) الهجود النوم
(٨) الشقيق والسوسن من الزهور المعروفة

وصف المهاجرين

من قصيدة لحافظ ابرهيم يحاول فيها توطيد عرى الالفة بين المصريين وبني سوريا ولبنان • وفيها وصف شائق لنشاط المهاجر السوري واللبناني واقتحامه الاهوال طلباً للعلى • قال —

لمصرَ ام لربوع الشام تَنتسِبُ ... هنا العلى وهناك المجدُ والحَسبُ
خِدران (للضاد) لم تُهتَك ستورُها ... ولا تحوّل عن مغناهما الأدب (١)
امُّ اللغات غداةَ الفخر أُمهما ... وان سألتَ عن الآباء فالعرب
أيرغبانِ عن الحسنى (٢) وبينهما ... تلك القرابةُ لم يُقطعْ لها سبب
اذا ألمّتْ بوادي النيل نازلةٌ ... باتتْ لها راسيات الشام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألمٍ ... اجابه في ذُرى (٣) لبنان منتحب
لو اخلصَ النيلُ والاردنُّ ودَّهما ... تصافحت منهما الامواهُ والعشب
نسيمَ لبنان كم جادتك عاطرةٌ ... من الرياض وكم حيّاك مُنسكِب (٤)
في الشرق والغرب انفاسٌ مسعَّرةٌ ... تهفو اليك واكبادٌ بها لهب
لولا طِلاب العلى لم يبتغوا بدلاً ... من طيب ريّاك (٥) لكنَّ العلى تعب
بارض (كولمب) ابطال غطارفة ... اسدٌ جياعٌ اذا ما وُوثبوا وثبوا (٦)
لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عَددٌ ... سوى مضاء تحامى وِردَهُ النُوَب (٧)
أسطولهم أملٌ في البحر مرتحلٌ ... وجيشهم عملٌ في البر مُغترب
لم تبدُ بارقةٌ في افقِ مُنتجعٍ (٨) ... الاّ وكان لها بالشام مرتقب
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا ... فالشهب منثورةٌ مذ كانت الشهب

---

(١) خدران للضاد اي موطنان للغة العربية (٢) رغب عن الامر نفر منه
(٣) ذرى جمع ذروة اي جبال (٤) اي كم جادت عليك الرياض بروائحها العطرية والامطار بغيوثها المنسكبة (٥) ريّاك اي رائحتك (٦) ارض كولمب اي اميركا
(٧) اي لم يحمهم فيها سوى مضاء عزم تتجنب مصائب الدهر الدنو منه
(٨) اي لم يظهر نور رجاء في مكان يطلب فيه الرزق الا ورأى ذلك النور بعض اهل سوريا فاندفعوا نحوه

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا | الى المجرَّة رَكباً صاعداً ركبوا (١)
او قيل في الشمس للراجين منتجَعٌ | مدُّوا لها سبباً في الجوّ وانتدبوا
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت | أُمُّ اللغات بذاك السعي تكتسب
فاين كان الشآميُّون كان لها | عيشٌ جديدٌ وفضلٌ ليس يحتجب
هذي يدي عن بني مصرٍ تصافحكم | فصافحوها تصافحْ نفسها العرب

قلعة بعلبك

وصف آثارها لخليل مطران

بعلبك لفظة فينيقية مركبة من لفظين بعل وبك اي مدينة الشمس وقد ترجم اليونان اسمها الى اليونانية فدعوها هيليوبوليس . واختلفت الآراء في باني هيكلها العظيم ، والثابت ان الامبراطور الروماني انطونيوس بناه في القرن الثاني للميلاد معبداً لجوبيتر . ويذهب قوم الى انه بناه على انقاض هيكل فينيقي قديم والى هذا يشير الشاعر في قصيدته اذ يذكر الفينيقيين ويشيد بمدحهم – قال بعد مقدمة رقيقة يذكر فيها ايام طفوليته وحداثته في هذه المدينة ـ

خِرَبٌ حارت البريَّةُ فيها | فتنةُ السامعين والنُظَّارِ
مُعجزات من البناء كبارٌ | لأُناسٍ ملء الزمان كبار
ألبستها الشموسُ تفويف دُرٍّ | وعقيقٍ على رداء نُضار
وتحلَّت من الليالي بشاماتٍ | كتنقيط عنبرٍ في بهار
وسقاها الندى رشاش دموعٍ | شرِبتها ظوامىء الانوار
زادها الشَّيب حرمةً وجلالاً | توَّجتها به يد الأعصار

(١) رادوا المناهل اي قصدوا موارد الكسب . المجرَّة في الفلك هي المعروفة عند العامة بدرب التبانة والعرب تشبهها بالنهر فتقول نهر المجرَّة

رُبَّ شيبٍ أتمَّ حسناً واولى — واهنَ العزم صولةَ الجبَّار
معبدٌ للأسرار قام ولكن — صُنعهُ كان أعظم الاسرار
مثَّل القوم كلَّ شيءٍ عجيب — فيه تمثيل حكمةٍ واقتدار
صنعوا من جمادهِ ثمراً يُجنى ولكنْ بالعقل والابصار
وضروباً من كلِّ زهرٍ انيقٍ — لم تفتْهـا نضارة الازهار
وشموساً مُضيئةً وشعـاعاً — باهراتٍ لكنَّها من حجار
وطيوراً ذواهبـاً آيباتٍ — خالدات الغدوِّ(١) والإبكار
في جنانٍ معلَّقـات زواهٍ — بصنوف النجوم(٢) والانوار
وأسوداً يُخشى التحفُّز منها — ويروع السكوتُ كالتزآر(٣)
عابسات الوجوه غيرِ غضابٍ — باديات الانياب غيرِ ضواري
في عرانينها(٤) دخانٌ مثارٌ — وبالحاظهـا سيول شِرار
تلك آياتهم وما برحت في — كلِّ آنٍ روائعَ الزوَّار
ضمَّها كلها بديعُ نظامٍ — دقَّ حتى كأنها في انتثار
في مقامٍ للحسن يُعبد بعد العقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وابهى — ما تحجُّ القلوبُ في الأنظار

ثم يذكر اهل فينيقيا فيقول

اهلَ فينيقيا سلامٌ عليكم — يوم تفنى بقيَّة الادهـار
لكم الارض خالدين عليهـا — بعظيم الاعمـال والآثار
خضتمُ البحرَ يوم كان عصيّاً — لم يسخَّر لقوَّة من بخار
وركبتم منه جواداً حروناً — قلقـاً بالمِمرَّس المغوار

***

غيرُ صعبٍ تخليد ذكرٍ على الارض لمن خلَّدوه فوق البحار
شيدوها للشمس دار صلاةٍ — وأتمَّ الرومان حلي الديار

(١) الانتقال (٢) النجوم الانبتة التي لا سوق لها والانوار الازهار
(٣) صوت الاسد (٤) آفاقها

هم دُعاة الفلاح في ذلك العصر واهل العمران في الامصار
نحتوا الراسيات تحت صخور وأبانوا دقائق الافكار
واجادوا الدُّمى[1] فجاز عليهم أنها الآمرات في الاقدار

بغداد

من قصيدة — لعلي الجارم

يصف فيها هذه المدينة التي لعبت دورها العظيم في تاريخ العرب فكانت مقرّ الخلافة العباسية وموئل النهضة العلمية في القرون الوسطى . والقصيدة تجيش بالعواطف القومية

بغدادُ ، يا بلدَ الرشيد ومنارةَ المجدِ التليدِ !
يا بسمةً لمّا تزل زَهراء في ثغرِ الخلود
يا مَوطنَ الحُبِّ المُقيمِ ومَضربَ المَثلِ الشرود
يا سَطرَ مجدٍ للعروبَةِ خُطَّ في لوحِ الوجود
يا زَهرةَ الصحراء ، رُدّي بهجةَ الدنيا وزيدي

* * *

بغدادُ ، يا دارَ النُّهى والفنِّ يا بيتَ القصيد
نبتَ القريضُ على ضفافكِ بينَ أفنانِ الورود
يشدو كأنَّ لهاتهُ شُدَّت على أوتارِ عود
بغدادُ اين البحتريُّ ؟ وأين اينَ ابنُ الوليد ؟[2]
ومجالسُ الشُّعراء في بيتِ ابنِ يحيى والرشيد ؟[3]
اين القيانُ الضاحكاتُ يَمِسنَ في وَشيِ البرود ؟[4]
الساحراتُ الفاتناتُ النُّجلُ من هِيفٍ وغيد
الساهراتُ معَ النجومِ الآنفاتُ من الهُجود

(١) التماثيل (٢) البحتري ومسلم ابن الوليد الشاعران المشهوران
(٣) يحيى بن جعفر البرمكي وزير الرشيد (٤) القيان المغنيات

من كلّ بيضاء الطُّلى مهضومة الكشحين رُود
يخطرنَ حتى تعجبَ الأغصانُ من لينِ القدود
واذا سفرنَ فأينَ ضوء الشمس من شَفَقِ الخدود
يَعبثنَ بالأيّامِ ، والأيامُ أعبثُ من وليد
خبأ الجمالُ لهنّ كنزاً بين سالفةٍ وجيد

***

كم جاشَ جيشكِ بالفوارسِ من أساورةٍ وصِيد ! (١)
للنصر في أعلامهم صِلةٌ بابناء الغمود (٢)
مُلكٌ إذا صوّرتهُ عجز الخيالُ عن الصعود
وجهود جبّارين تصغرُ دونها شُمُّ الجهود
الرُّسلُ تتلو الرُّسلَ من بيضٍ صقالبةٍ وسُود (٣)
ساروا « لقصر الخلد » يُعشي طرفهم وهجُ الحديد (٤)
يتعثّرون كأنهم يمشون في حلَقِ القيود
الجوُّ يسطعُ بالظُبا والارضُ ترخَرُ بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا بجباههم أثر السجود

***

بغداد ، يا وطنَ الأديبِ ، وأيكةَ الشعر الغريد
جدّدتِ أحلامي ، وكنتُ صحوتُ من عهدٍ عهيد
جمحَ الخيالُ فما اطمأنَّ ولا استقرَّ الى خلود
جازَ القرونَ النائياتِ ، وفكَّ أسرارَ العقود
ذكر العهود فأنَّ للذكرى وحنَّ الى العهود
واهتاجهُ الطيفُ البعيدُ ، فجُنَّ للطيفِ البعيد
وصَبا الى ظِلِّ العروبةِ في حمى الملك العتيد

---

(١) اي من قادة وامراء (٢) ابناء الغمود السيوف
(٣) يشير الى رُسل الملوك الى الرشيد (٤) قصر الخلد هو قصر الرشيد

البحيرة

للدكتور نقولا فياض

نقلت هذه القصيدة عن الافرنسية وهي في الاصل للشاعر المشهور لامارتين نظمها على ضفاف بحيرة . وقد رأينا ان نثبتها هنا لان الشاعر العربي قد اجاد ترجمتها فتناقلتها الافواه والاقلام واصبحت من ادبنا السائر . وهي فضلاً عن ذلك تعبّر عن ارق العواطف الانسانية وتضرب على وتر يحرّك النفس ويرفعها الى اعلى الذروات الحيّة

أهكذا تنقضي دوماً امانينا — نَطوي الحياةَ وليلُ الموت يطوينا
تجري بنا سُفن الاعمار ماخرةً — بحرَ الوجود ولا نُلقي مراسينا
بحيرةَ الحب حيَّاكِ الحيا[1] فلكم — كانت مياهك بالنجوى تحيينا
قد كنتُ ارجو ختام العام يجمعنا — واليومَ للدهر لا يرجى تلاقينا
فجئت اجلس وحدي حيثما اخذت — عنّي الحبيبة آيَ الحب تلقينا
هذا انينكِ ما غيَّرتِ نغمته — وطالما حُملت فيه اغانينا

* * *

هل تذكرين مساء فوق مائك اذ — نجري ونحن سكوتٌ في تصابينا
والارضُ والبحرُ والافلاكُ مصغيةٌ — معنا فلا شيء يُلهيها ويلهينا
الا المجاذيفَ بالامواج ضاربةً — يخال توقيعها العشاقُ تلحينا
اذا برنّة انغامٍ سُحرتُ بها — خلت ان الملا الاعلى يناجينا
والموجُ اصغى لمن اهوى وقد تركتْ — بهذه الكلماتِ الموجَ مفتونا[2]
يا دهر قف فحرامٌ ان تطير بنا — من قبل ان نتملّى من امانينا
ويا زمانَ الصبا دعنا على مَهلٍ — نلتذُّ بالحبّ في احلى ليالينا
أجبْ دعاء بني البؤسى بارضك ذي — وطرْ بهم فهمُ في العيش يشقونا
خذِ التعيس وخُذْ معهُ تعاسته — وخلّنا فهناء العيش يكفينا

---

(١) الحيا المطر (٢) يشير الى الكلام التالي وهو الذي انشدته الحبيبة هناك

هيهات هيهات انَّ الدهر يسمع لي فالوقت يُفلت والساعات تفنينا

* * *

تالله يا ظلمة الماضي ويا عدماً في ليله الابديّ الدهرُ يرمينا
ما زال لجك للايام مبتلعاً فما الذي انتِ بالايام تجرينا
ناشدتكِ الله قولي وارحمي ولهي اترجعين لنا احلام ماضينا
فيا بحيرة ايام الصبا ابداً تبقين بالدهر والايام تُزرينا[1]
تذكار عهد التصابي فاحفظيه لنا ففيك عهد التصابي بات مدفونا

* * *

وكلّما صافحتك الريح في سحر او حرّكتْ قصباتٌ عطفها لينا
او فاح في الروض عطرٌ فليكن لك ذا صوتاً يردّد عنّا ما جرى فينا
احبّها وأحبّته وما سلمتْ من الردى رحم الله المحبّينا

وصف المسلول

لبشاره الخوري

من قصيدة جارى فيها قصيدة الشاعر الافرنسي ده موسه التي موضوعها « الكاس والشفاه » . وهي قصة فتى تدلّه بحب غانية من بنات الهوى

حسناء اي فتى رأت تصدِ قتلى الهوى فيها بلا عدد

وعاش معها عيشة المسرف بصحته وشبابه فكان من نتائجها انه اصيب بداء السلّ . فقضى شهيد اسرافه . وها نحن نثبت منها وصفه الرائع لحالة ذلك الفتى البائس . قال —

سنةٌ مضتْ واذا خرجتَ الى ذاك الطريق بظاهر البلدِ
ولفتَّ وجهك عنّةً فترى وجهاً متى تذكّرهُ ترتعد
هذا الفتى في الأمس، صار الى رجل هزيلِ الجسم منجرد

---

(١) بالدهر وبالايام متعلقان بالفعل تزرين

متلجلج الالفاظ مضطرب   متواصل الانفاس مطّرد
متجعّد الخدّين من سرف   متكسّر الجفنين من سهد
عيناه عالقتان في نفق   كسراج كوخ نصف متّقد
او كالحباب باخ لامعة   يبدو من الوجنات في خدد
تهتزّ أنمله فتحسبها   ورق الخريف أصيب بالبرد
يمشي بعلّته على مهل   فكأنه يمشي على قصد
ويمجّ احياناً دماً فعلى   منديله قطع من الكبد
قطع تآبين مفجعة   مكتوبة بدم بغير يد
قطع تقول له : تموت غداً ،   واذا ترقّ تقول : بعد غد
والموت ارحم زائر لفتى   متزمّل بالداء معتمد
قد كان منتحراً لو أنّ له   شبه القوى في جسمه الخضد
لكنّه والداء ينهشه   كالشلو بين مخالب الاسد
جلد على الآلام ينجده   طلل الشباب ودارس الصيد
متوحّد اما الحبيب فمذ   خاف انتقال الداء لم يعد(1)
فقضى ، ولم يأنس بذي رحم   يأسو ولم يسعد بمفتقد
حاشا مدامعه وكنّ له   غوثاً متى يسأل ندى تجد

...

اين التي علقت به غضاً   حلو المجاني ناضر الملد
اين التي كانت تقول له   ضع رأسك الواهي على كبدي
نم لا تسلّط يا حبيب على   مخمور جسمك قلّة الجلد
مات الشقيّ بها وقد سلمت   يا للقتيل قضى بلا قود
مات الفتى فأقيم في جدث   مستوحش الأرجاء منفرد
متلبّس بالفقر مؤتزر   بالنبت من متيبّس وندي
وتزوره حيناً فتؤنسه   بعض الطيور بصوتها الغرد
كتبوا على حجراته بدم   سطراً به عظة لذي رشد
« هذا قتيل هوى ببنت هوى   فاذا مررت بأختها فجد »

(1) اشارة الى عدم وفاء فتاته التي هجرته لمرضه

باب الخوالج الوطنية

كما يكون الشعر معبّراً عن احساس الفرد الخاص كذلك يكون احيـاناً معبّراً عن احساس الامة العام . وهذا الاحساس العام قد ينجم عن تألم لحالتها السياسية او ايمـان برسالتها التاريخية فاذا عُبّر عنه بالكلام الموزون كان الشعر القومي او السياسي الذي يثير روح الامة مصوّراً لها آلامها وآمالها

وتختلف الحوافز السياسية من جيل الى جيل . فبينا نراها في الجاهلية مثلاً تنافساً بين القبائل وفي صدر الاسلام تناحراً بين الاحزاب ثم يصبح حملات شديدة على اعداء الاسلام من روم وصليبيين وسواهم ، نراه في النهضة الحديثة وخصوصاً بعد الدستور العثماني ١٩٠٨ وعياً قومياً يتنبّه فيه العرب الى كيانهم وحقوقهم . وقد بلغ هذا التنبّه اقصاه عقب الثورة العربية سنة ١٩١٦ والتلويح لزعمائها بملك عربي يجمع شتات العرب ويعيد مجدهم القديم . ثم ما كان من انفصال الاقطار العربية عن تركيـا سنة ١٩١٨ وما عقبه من مشادة عنيفة بين فكرتي الانتداب والاستقلال مما لا يزال اثره الى الآن

وقد ينجم هذا الاحساس العام في الامة عن شعور بانحطاط الحياة الاجتماعية والحاجة الماسّة الى اصلاحهـا ، ولا يُنكر ان العهود العربية القديمة لا تخلو من ادب يدعو الى الاصلاح الخلقي والاجتماعي كما نرى في لزوميات المعرّي مثلاً . على انه عند التحقيق لا يعدّ ادباً عاماً يشترك فيه كلّ الادباء او جلّهم كما هي الحال الآن

ولعلّنا لا نبالغ اذا قلنا ان النزعة الاصلاحية كانت الطابع العـام للادب العربي منذ اواخر القرن الماضي الى الوقت الحاضر . فقلما تجـد ديوان شعر او نثر لا يدعو الى العلم والاخلاق واصلاح حال المرأة والفلاح والعامل ونبذ العادات المضرّة والتقاليد البالية وما شاكل مما تقتضيه حالة العصر الجديد والثقافة الحرّة الراقية

وسنعرض هنا نماذج من هذين النوعين اي الخوالج القومية والخوالج الاجتماعية وكلّها من آثار النهضة الحديثة

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ

من قصيدة للشيخ ابرهيم اليازجي نظمها سنة ١٨٦٨ (وهو في الحادية والعشرين) وكانت البلدان العربية يومئذٍ تحت حكم تركيا وقد غشى البلاد فساد اداريّ واجتماعي عام حتى صار الاحرار فيها يتمنون زوال الحكم العثماني. وقد نُشرت هذه القصيدة يومئذٍ سرًا وبلا توقيع واهتمت حكومة الاستانة بها وبامثالها واخذت تسعى لمعرفة اصحابها فلم تفز بطائل

تنبّهوا واستفيقوا ايها العربُ فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ
فيمَ التعللُ بالآمال تخدعُكم وأنتمُ بين راحات القنا سُلُب
الله اكبرُ ما هـذا المنامُ فقد شكاكم المهد واشتاقتكم التُرَب
كم تُظلَمونَ ولستم تشتكون وكم تُستغضبون فلا يبدو لكم غضب
ألفتمُ الهونَ حتى صار عندكمُ طبعاً وبعضُ طباعِ المرء مُكتسب
وفارقتكُم لطول الذل نخوتُكم فليس يؤلمكم خسفٌ ولا عطَب
لله صبرُكُمُ لو أن صبركمُ في ملتقى الخيل حين الخيل تضطرب
كم بين صبرٍ غدا للذلّ مجتلباً وبين صبرٍ غـدا للعزّ يجتلب
فشمّروا وانهضوا للامرِ وابتدروا من دهركم فرصةً ضنّت بها الحقب
لا تبتغوا بالمنى فوزاً لانفسكم لا يَصدقُ الفوز ما لم يَصدق الطلب
خلُّوا التعصب عنكم واستووا عُصباً على الوئـام لدفع الظلم تعتصب
هذا الذي قد رمى بالضعف قوّتكم وغادر الشمل منكم وهو منشعب
وسلّطَ الجورَ في اقطـاركم فغدت وارضُها دون اقطار الملا خَرَب
وحكّمَ العلجَ فيكم مع مهانته يقتـادكم لهواهُ حيث ينقلب

ومنها:

بالله يا قومنا هبّوا لشأنكمُ فكم تُناديكمُ الاشعارُ والخُطب
ألستمُ من سطوا في الارض واقتحموا شرقـاً وغرباً وعزّوا اينما ذهبوا
ومن اذلّوا الملوكَ الصِيد فارتعدت وزلزل الأرضَ مما تحتها الرَهَبُ

ومَن بَنوا لصروح العزّ اعمدةً تهوي الصواعقُ عنها وهي تنقلب
فما لكُمْ ويحكُمْ اصبحتمُ هَمَلاً ووجه عزّكمُ بالهون منتقب
لا دولةٌ لكمُ يشتدُّ أزرُكمُ بها ولا ناصِر للخطب يُنتدب
وليس من حُرمةٍ او رحمةٍ لكمُ تحنو عليكم اذا عضّتكم النُوَب

وقفة عند يلدز

من قصيدة لمعروف الرصافي نظمها بعد ان خُلع السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ وأُخرج من قصره الشهير يلدز . والشاعر هنا يخاطب القصر فيذكر مـا كان له من مساوىء ومظالم ويحذّر الظلّام عموماً من عواقب الظلم والاستبداد

لمن القصرُ لا يجيبُ سؤالي آهلاتٌ ربوعه ام خوالي
مشمخرُّ البناء حيث تراءى باليـاً مجدهُ بلى الاطلال
لم تصبْهُ زلازل الارض لكن قد رمَتْهُ السمـاء بالزلزال
وكسَتْهُ الايام بالصمت لما نطقتْ فيه حادثات الليالي
فترااءت ابكاره شاحبـاتٍ باكياتٍ بأعينِ الآصـال

* * *

أيها القصر ايهِ بعضَ جوابٍ لا تكن ساكتاً على تسآلي
ليت شِعري والصمتُ فيك عميقٌ ذاكرٌ انت عهدهم ام سالي
ما تداعى منك البناء ولكن قد تداعى بناء تلك المعـالي
كنت كلَّ البلاد في الطول والعرض وكل العباد في الاعمـال
كنت مأوى العلى مثار الدنايا مهبط العزّ مصدر الاذلال
كنت جبّاً وايَّ جبٍّ عميق بالعـاً للنفوس والاموال
مورد الخـائنين كنت وكانت منك تُدلى مطامع العمّال
قصرُ عبد الحميد انت ولكن اين يا قصر اين عرش الجلال
اين خاقانك الذي كان يُدعى قاسمَ الرزق باعثَ الآجال

ما ارى اليوم ذلك المجد الا   كخيال يمرُّ بعد خيال
هل وقوفي على مبانيك الا   كوقوفي على الطلول البوالي

***

قد تخوَّنتنا ثلاثين عاماً   جئتَ فيها لنا بكلّ محال
تلك اعوام رفعةٍ للاداني   تلك اعوام حطّةٍ للاعالي
تلك فيما جرت به نقطةٌ سوداء تبقى بجبهة الاجيال
ملأت خطة الزمان شناراً   فأبتها كلُّ العصور الخوالي
يثبُ العدلُ طافراً كلما مرَّ   عليها مشمّر الاذيال
وكأني ارى اضطراب نفوسٍ   كنت تغتالها واي اغتيال
تلك يا قصر انفسٌ انفت منك فطارت الى سماء المعالي
وهي اليوم احرقتكَ بشهبٍ   قذفتها عليك ذات اشتعال
لم يضعْ مجدها وان هي امست   ضائعات الأشلاء والاوصال

***

افأصبحت نادماً ايها القصر تبالي بالقوم ام لا تبالي
لم تفدكَ الندامة اليوم شيئاً   قُضيَ الامر فاصطبر باحتمال
وعزاء فلست اول قصرٍ   نكّس الدهر من ذراه العوالي
قد تداعى من قبلُ ايوانُ كسرى   بعد ان طال شاهقات الجبال
وكأينْ من قصر ملك ترامى   ساقطاً بالملوك والاقيال
فابقَ يا قصرُ عابس الوجه كيما   يصبح الملك باسم الآمال
وتعثّر فلا لعا[1] لك حتى   ينهض العدل ناشطاً من عقال

***

يا ملوك الانام هلّا اعتبرتم   بملوكٍ تجور في الافعال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن   كم لعبد الحميد من امثال
فاتركوا الناس مطلقين والاّ   عشتمُ موثقين بالاوجال
هل جنيتم من التجبّر الا   كلّ اثمٍ عليكم ووبال

---

(١) لا لعا لك اي لا اقامك الله!

النائحة

لجميل الزهاوي

من قصيدة طويلة نظمها في شهداء العرب الذين شنقهم الاتراك في بيروت ودمشق سنة ١٩١٥ وفيها ذكر لدخول الحلفاء دمشق وانتقام العرب لانفسهم من الحكم التركي البائد

على كلِّ عودٍ صاحبٌ وخليلُ ... وفي كلِّ بيتٍ رنَّةٌ وعويلُ
وفي كل عينٍ عَبرةٌ مُهراقة ... وفي كل صدر حسرةٌ وغليل
كأنَّ وجوه القوم فوق جذوعهم ... نجومُ سماء في الصباح أُفول
كأنَّ الجذوع القائمات منابرٌ ... علتْ خطباءٌ عودهنَّ تقول
«سموٌّ كما شاءت نزار لولدها ... وبُعدٌ كما شاء الفخار وطول»

...

لقد ركبوا كور المطايا يحثهم ... الى الموت من وادي الحياة رحيل
مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردى ... وللحقِّ بين الصالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منازل ... وتبكي ربوعٌ للعلى وطلول
وأعظِم بخطبٍ فيه للمجد شقوة ... وفي جسد العلياء منهُ نحول
قبورٌ ببيروتٍ ، واخرى بجلّقٍ ... تُجرُّ عليها الرياح ذيول
سرتْ روحهم تطوي السماء لربها ... وما غير ضوء الفرقدين دليل
ولله عيدان من الليل اثمرت ... رجالاً عليهم هيبة وقبول
ويا لك من رزء حمدتُ له البكا ... وقبحت فيه الصبر وهو جميل

...

وسائلةٍ ما بالُ دمعك فائضاً ... على النحر يُغريه الغداةَ هُمول
أتبكي لرزء قد اصابك شطره ... وانت اخو صبرٍ وانت حَمول
فقلتُ أجل أبكي الأُلى طلبوا العلى ... فماتوا كراماً والبكاء قليل
أبعد بني قومي أنهنه عبرتي ... وأمنعها ، إني إذن لبخيل

وقد يتناسى المرء غيبة واحدٍ مضى في سبيل الحق وهو قتيل
ولكنَّ خطباً قد ألمَّ بامةٍ وأفجع شعباً إنه لجليل
وإنَّ دماً لم يكترث اهلهُ له ولم يثأروا يوماً به لطليل
وإنَّ امرءاً لا يغسل العارَ سيفه بما هو يجري من دمٍ لذليل

. . .

قد اسودَّ ليل الظلم حتى كأنهُ ستارٌ على الارض الفضاء سديل
فيا لك من ليلٍ يروع كأنما بكل مكان منه يرقب غول
وقد قرَّ حتى قلتُ قد جمد الدجى وخلتُ بياض الصبح ليس يسيل
وعسعس يرتاع الكرى من ظلامه وطال وليل الخائفين يطول
إلى أن أتى بالفتح جيش عرمرمٌ مدافعه تنكي العدا وتهول
فقد ذرَّ قرن الشمس او كادو انجلت من الليل عن صبح النَّجاة سدول
وجاءت خيول العرب تعدو وراءها بقربةٍ للانكليز خيول
هنالك اهل الشام صاحوا وكبَّروا وكبَّر أعلامٌ بها وسهول
وكان لأخذ الثار قد ثار ضيغم له في مغار الغابتين شبول
«حسينٌ[1]» بما قد جاءقد سرَّ جدَّه وإنَّ حسيناً للنبيّ وكيل
أغرُّ كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرعٌ وطاب اصول
فأعظِم بملكٍ سلَّ الذبِّ[2] سيفه وأرهِف بسيفٍ ليس فيه نكول

. . .

جرَتْ هذه الاحداث والحرب لم تزل على فتكها بالناس فهي أكول
إذ الشام أو بيروت أو أكثر القرى كمنحدرٍ تجري عليه سيول
مضى مامضى لا عاد واليوم فاستمعْ إلى لهجة التاريخ كيف يقول
ستُكتَب فيهِ بالدماء مباحث وتقرأ للويلات فيه فصول
ويذهب هذا الجيل نِضوَ شقائه ويأتي سعيداً بالسلامة جيل

---

(١) اي ملك الحجاز (٢) الذبّ الدفاع

كفّوا البكاء (١)

من قصيدة أُنشدت في بيروت سنة ١٩١٠ وكانت البلاد في اضطراب فكري والمشادة عنيفة بين العناصر على اثر الدستور وخلع عبد الحميد وهي تدعو الى النهوض القومي الحقيقي القائم على الاتحاد والتجدّد والعمل المجدي

كفّوا البكاء على الطلول الهمّد ... ليس القضاء على البلاد بمعتدي
حتّامَ نربع فوق آثارٍ عفَتْ ... والدهرُ يدعونا الى نِعَم الغد
متربّصين وما لنا من حافزٍ ... متسكّعين وما انا من مُرشد
ونرى جموع الناهضين من الورى ... يتسابقون الى المرام الامجد
متدافعين مع الزمان تجدّداً ... انّ الزمان مطيّة المتجدد

...

أبني العراقِ ومصرَ إنّا أُمّةٌ ... قعدتْ من الايام اسوأ مقعد
هيّا نجدِّدُ للبلاد شبابَها ... متكاتفين على الزمان الأنكد
ان فرّق الايمان بينَ جموعنا ... فلساننا العربيُّ خيرُ موحّد
قربتْ به الاقطارُ وهي بعيدةٌ ... وتوحّدت من بعد فتٍّ في اليد

...

مهلاً كرامَ المسلمين فمنكمُ ... يرجى الورود الى حياض السُّؤدد
لا تجعلوا «التقليد» يفرط عِقدنا ... فرجاؤنا عبثٌ اذا لم يعقد
قد كنتمُ اهلَ البلادِ وإننا ... كنّا كذلك في الزمان الابعد
كنتم وكنا والبلاد بلادكم ... وبلادنا فعلامَ لم نتوحّد
وإلامَ يقتلنا التعصّبُ عن عمى ... ويتيه فينا الجهل تِيهَ السيّد
دعني وشأني والذي انا عابدٌ ... وكما يشا ايمان قلبك فاعبد
إني اخوك وان يكن ايماننا ... في البعد ما بين الثرى والفرقد

(١) لمحرر الكتاب ا. خ. م

ما كان نورك مرشدي في ظلمةٍ　　كلّا ولا ايمان غيري مُخلدي (١)
الكنَ لي وطناً اجلُ مقامهُ　　وأُعيذهُ من كل داء مفسد (٢)
وارى جيوشاً زاحفاتٍ نحوه　　لجباً على لجج الخضمّ المزبد
زحفوا الى نيل العلاء فطأطأت　　لهمُ الجبال وقال قائلها اسجدي

. . .

يا شرقُ انك جاهلٌ ما حقّروك　　م وانما حقّرتَ نفسك فارقد
فحسبتَ نفسك طينةً منبوذةً　　وحسبتهم من لؤلوه او عسجد
وكأنما هبطوا اليك من العلى　　حتى خررتَ بذلّةِ المتعبّد

. . .

تيهي بلاد الغرب إنّا أُمَّةٌ　　غيرَ المذلّةِ والشقا لم نعتد
نرضى الحياةَ على الهوانِ كأنما　　كلُّ المطامع ان نعيش الى الغد
ونذلُّ ذلّاً للعدى ونجلّهم　　ونُنيلهم منا كبيرَ المقصد
أمُنحتمُ الدستورَ منحاً ثم انتـم تفخرون بطارفٍ او مُتلَد (٣)
ونصيح بالحكّام بالشُّورى احكموا　　أصياحُ حرٍّ ام صياحُ مقلِّد (٤)
حرية الانسان وهمٌ باطلٌ　　وفؤاده بالعلم لم يتقيّد
هذي النفوس ضعيفةٌ ربيت على　　ذلّ الضمير وربقة المستعبد
ربّوا البنين على احترام بلادهم　　فهمُ المرجّى للحوادث في الغد
قولوا لهم ان البلاد جميلةٌ　　شهدت لها الاعداء ام لم تشهد
حتّامَ نصغرُ في عيون نفوسنا　　وإلامَ نسعى كالسّوام الشُّرَّد

. . .

إن تفعلوا فلقد يتمُّ صلاحنا　　او لا — فما دستورنا بالمُسعد
المجد للفعّال في هذا الورى　　والارض ملك الفارس المستأسد

(١ و ٢) اي لكلّ نور ايمانه الحادي فلا نتخاصم على ذلك ولكن متحدين بحب الوطن الذي ترحف اليه اهل المطامع من الخارج　(٣ و ٤) خلّوا التفاخر الفارغ بما جاء على يد الغير ولننصرف الى تربية نفوسنا واولادنا على المبادي الحرة وحب الوطن

نكبة دمشق

لاحمد شوقي

أنشدت في حفلة اقيمت في مصر لاعـانة منكوبي سوريا وذلك على اثر ما اصاب دمشق في الثورة سنة ١٩٢٥

سلامٌ من صبا (بَرَدَى) (١) أرقُّ ‏ ‏ ‏ ‏ ودمعٌ لا يُكفكف يا دمشقُ
ومعذرةُ اليراعةِ والقوافي ‏ ‏ ‏ ‏ جلالُ الرزءِ (٢) عن وصفٍ يَدِقُّ
وذكرى عن خواطرها لقلبي ‏ ‏ ‏ ‏ اليكِ تلفّتٌ ابداً وخَفقُ (٣)
وبي مما رمتكِ به الليالي ‏ ‏ ‏ ‏ جِراحاتٌ لها في القلب عُمقُ

...

لحاها الله أنبـاءٌ توالت ‏ ‏ ‏ ‏ على سَمعِ الوليّ (٤) بما يَشُقُّ
يُفصِّلها (٥) الى الدنيا بريدٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ويُجملها (٦) الى الآفاق بَرقُ
تكاد لروعةِ الأحداثِ (٧) فيها ‏ ‏ ‏ ‏ تُخال من الخرافةِ وهي صِدقُ
وقيل معالمُ التاريخ دُكّت ‏ ‏ ‏ ‏ وقيل اصابها تَلَفٌ وحَرقُ
ألستِ دمشقُ للاسلام ظئراً (٨) ‏ ‏ ‏ ‏ ومُرضعةُ الأبوّة لا تُعقُّ
صلاحُ الدين تاجُك لم يُجمَّل ‏ ‏ ‏ ‏ ولم يُوسَم بأزينَ منه فَرقُ
وكلُّ حضارة في الارض طالت ‏ ‏ ‏ ‏ لها من سَرحك (٩) العُلويّ عِرقُ
سماؤك من حُلى الماضي كتابٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وأرضُكِ من حُلى التاريخ رَقٌّ (١٠)
بنيت الدولة الكبرى ومُلكاً ‏ ‏ ‏ ‏ غبـارُ حضارتيهِ لا يُشقُّ
له بالشام أعـلامٌ وعُرسٌ ‏ ‏ ‏ ‏ بشـائرهُ بأندلسٍ تُدقُّ

...

رِباعُ الخلد ويحكِ ما دهاها ‏ ‏ ‏ ‏ أحقٌّ أنهـا دَرَسَت أحقُّ

---

(١) بردى نهر دمشق ‏ ‏ (٢) الرزء المصيبة ‏ ‏ (٣) خفق خفوق
(٤) الولي المحب والصديق ‏ ‏ (٥) فصل بيّن وشرح ‏ ‏ (٦) يجمل من اجمل الكلام اختصره
(٧) الاحداث الحوادث ‏ ‏ (٨) الظئر المرضعة ‏ ‏ (٩) السرح الشجر العظام
(١٠) الرق جلد رقيق يكتب فيه

وهل غُرَفُ الجِنانِ مُنضَّداتٌ (١)   وهل لنعيمهنَّ كأمسِ نَسَق
وأين دُمى (٢) المقاصرِ (٣) من حِجالٍ   مُهتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقّ
بَرَزْنَ وفي نواحي الأَيكِ نارٌ   وخلفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَقّ
إذا رُمنَ السلامةَ من طريقٍ   أتتْ من دونهِ للموتِ طُرق
بليلٍ للقذائفِ والمنايا   وراءَ سمائهِ خَطفٌ وصَعق
إذا عصفَ الحديدُ احمرَّ أُفقٌ   على جَنَباتهِ واسودَّ أُفق
سَلي من راعَ غيدَكِ بعدَ وَهْنٍ (٤)   أَبينَ فؤادهِ والصخرِ فرق

. . .

دَمُ الثُّوّارِ تَعرفهُ فرنسا   وتَعلَمُ انهُ نورٌ وحقّ
جرى في أرضِها، فيه حياةٌ   كمُنهلِّ (٥) السماءِ وفيه رزق
بلادٌ ماتَ فِتيتُها لتَحيا   وزالُوا دون قومِهمِ ليَبقوا
وحُرِّرَت الشعوبُ على قناها   فكيف على قناها تُسترَقّ (٦)
بني سوريّةَ اطَّرِحوا الأماني   وألقوا عنكمُ الأحلامَ ألقوا
فمن خِدَعِ السياسةِ أن تُغَرّوا   بألقابِ الإمارةِ وهي رِقّ
فُتوقُ الملكِ تَحدثُ ثم تَمضي   ولا يَمضي لمُختلِفينَ فَتق
نَصحتُ ونحن مُختلفون داراً   ولكن كلُّنا في الهمِّ شَرق
ويَجمعُنا اذا اختلفتْ بلادٌ   بيانٌ غيرُ مُختلفٍ ونُطق
وقفتم بين موتٍ او حياةٍ   فإنْ رُمتم نعيمَ الدهرِ فاشقوا
وللأوطانِ في دمِ كلِّ حُرٍّ   يَدٌ سلفتْ ودَينٌ مُستحَقّ
ومَن يسقي ويَشربُ بالمنايا   إذا الأحرارُ لم يُسقَوا ويَسقوا!
ولا يَبني الممالكَ كالضحايا   ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقّ
ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ   وفي الأسرى فِدىً لهمو وعِتق (٨)

---

(١) منضد منسق (٢) الدمى واحدها دمية وهي الصورة المنقشة
(٣) المقاصر واحدها مقصورة وهي الحجرة (٤) الوهن الليل
(٥) منهلّ السماء اي قطره. وفي هذا الكلام اشارة الى الثورة الفرنساوية
(٦) تسترق تستعبد. اي هي محررة الشعوب فكيف يكون استعباد الشعوب على يديها
(٨) العتق الحرية

على قبر توتنخ آمون

من قصيدة لشوقي

توتنخ آمون من الفراعنة القدماء، وقد اكتشف حديثاً وكان لاكتشاف قبره وما فيه من كنوز صدى بعيد في عالم الادب وعالم الآثار . وطبيعي من مثل شوقي ان تتحرك شاعريته لذلك وان ينظم فيه هذه القصيدة العامرة –

قفي يا اخت (يوشع) خبّرينا ... احاديث القرون الغابرينا (١)
وقصّي من مصارعهم علينا ... ومن دولاتهم ما تعلمينا
فمثلك من روى الاخبار طرّاً ... ومن نسب القبائل اجمعينا (٢)
أأمّ المالكين بني (أمون) ... ليهنك انهم نزعوا (امونا) (٣)
فكانوا الشهب حين الارض ليل ... وحين الناس جدّ مضلّلينا
مشت بمنارهم في الارض (روما) ... ومن انوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادي اقاموا ... على (وادي الملوك) (٤) محجّبينا
فربّ مصفّد منهم وكانت ... تساق له الملوك مصفّدينا
تقيّد في التراب بغير قيد ... وحلّ على جوانبه رهينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا
غدوا يبغون ما يبقى وراحوا ... وراء الآبدات مخلّدينا
اذا عمدوا لمأثرة أعدّوا ... لها الاتقان والخلق المتينا
وليس الخلد مرتبة تلقّى ... وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى هِمَم كبار ... اذا ذهبت مصادرها بقينا
وسرّ العبقرية حين يسري ... فينتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال اذا تناهت ... الى التاريخ خير الحاكمينا

---

(١) اخت يوشع اي الشمس (٢) نسب القبائل ذكر انسابهم
(٣) نزعوه اي شاجوه وبنو امون ملوك مصر نسبة الى امون معبودهم
(٤) الوادي اي مصر ، ووادي الملوك محل مدافن الفراعنة قرب الاقصر

واخذُك من فم الدنيا ثناء وتركُك في مسامعها طنينا
فغالي[١] في بنيك الصيد غالي فقد حُبّ الغلوّ الى بنينا

* * *

خليليَّ اهبطا الوادي وميلا الى غرف الشموس الغاربينا
وسيرا في محاجرهم رويداً وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصّا بالعَمار وبالتحايا رُفاتَ المجد من توتنخمينا[٢]
وقبراً كاد من حسنٍ وطيبٍ يضيء حجارةً ويضوع طينا
يُخال لروعة التاريخ قُدَّت جنادله العلى من (طورسينا)
وكان نزيله بالملك يدعى فصار يلقَّب الكنز الثمينا
وقوماً هاتفين بـه ولكن كما كان الاوائل يهتفونا
فثمَّ جلالة قرَّت ورامت على مرّ القرون الاربعينا[٣]
جلال الملك ايام وتمضي ولا يمضي جلال الخالدينا
وقُولا للنزيل قدومَ سعدٍ وحيّاً الله مَقدمك اليمينا[٤]
سلامٌ يوم وارتك المنايا بواديها ويوم ظهرت فينا

* * *

خرجتَ من القبور خروج عيسى عليك جلالةٌ في العالمينا
يجوب البرق باسمك كلَّ سهلٍ ويخترق البخارُ به الحزونا
واُقسم كنت في لوزان شغلاً وكنت عجيبة المتفاوضينا[٥]
أتعلم انهم صلفوا وتاهوا وصدُّوا الباب عنا موصدينا
ولو كنّا نجرُّ هناك سيفاً وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضي (كرزُنٌ) بالامر عنّا وحاجاتُ (الكنانة) ما قُضينا[٦]

---

(١) الضمير راجع الى مصر (٢) العمار الريحان (٣) رامت اقامت
(٤) اليمين المبارك . اي قدمت قدوماً مباركاً (٥) لوزان اشارة الى موتمر جمعية الامم فيها
(٦) كرزن وزير انكلترا يومئذٍ . الكنانة اي مصر

إنّ العراق

من قصيدة انشدها الرصافي في الحفلة التي أُقيمت في بغداد احتفاء بامين الريحاني وذلك سنة ١٩٢٢ . وفيها يثبت الشاعر شكواه من احوال بلاده العامة وهي شكوى محبّ لوطنه يؤلمه ان يرى فيه ما يعيقه عن التقدم في سبيل المجد والعظمة

إنّ العراق بعَرضهِ وبطولهِ ... وبرافديهِ(١) وباسقات نخيلهِ
يهتزُّ مبتهجاً بمقدم ضيفهِ ... ويبشُّ مبتسماً بوجه نزيله

* * *

أأمينُ جئتَ الى العراق لكي ترى ... ما فيه من غُرر العلى وحُجوله
عفواً فذاك النجمُ اصبح آفلًا ... والقوم محتربون بعد أُفوله
أوَ ما ترى قطر العراق بحسنه ... قد فاق مُقفِرُهُ على مأهوله
امّا الحيا(٢) فيه فذيّاك الحيا ... لكن مسيلُ الماء غير مسيله
وربيعهُ ذاك الربيع وان شكا ... من جهل ساكنهِ اشتدادَ محوله
فأقمْ به ولك الغنى بفراتهِ ... عن قطر مصرَ وعن موارد نيله
وأنزلْ على وادي السلام ممتَّعاً ... برغيد عيشٍ تحت ظلّ نخيله

* * *

واذا وقفتَ بدارسٍ من مجدهِ ... فكوقفةِ الباكين بين طلوله
وانحب كما نحبَ الحزين مكفكفاً ... غربَ الدموع بجانبَي منديله
فلقد عفا المجدُ القـديم بأرضهِ ... وعليه جرَّ الدهرُ ذيلَ خموله
واذا نظرتَ الى قلوب رجاله ... فانظرْ حديد الطَّرْف غيرَ كليله
تجد الرجالَ قلوبُها شتّى الهوى ... مَدَّ الشِّقاق بها حبالةَ غوله
متناكرين لدى الخطوب تناكراً ... يعيـا لسان الشعر عن تمثيله

(١) الرافدان هما دجلة والفرات (٢) الحيا المطر

فالجار ليس بآمنٍ من جارهِ والخلُّ ليس بواثقٍ بخليله
والدين فيه يقول ذو قرآنهِ قولاً يحاذر فيه ذو انجيله
واذا تأوَّل قولهم متـأولٌ صرفوه بالتكفير عن تأويله
واذا تكلَّم عالمٌ في امرهم خفروا ذمام العلم في تجهيله
حال لو افتكر الحكيم بكُنهه طول الزمان لعيَّ عن تعليله
من ذا يبدّله فان قوارعي يئست لعمر الله من تبديله
والجهل لا يُبقي على اربابه كالسيف ليس براحمٍ لقتيله
أأمين لا تغضبْ عليَّ فانني لا ادَّعي شيئاً بغير دليله
من أين يُرجى للعراق تقدُّمٌ وسبيلُ ممتلكيه غير سبيله
لا خيرَ في وطنٍ يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلمُ عند غريبه والحكم عند دخيله
وقد استبدَّ قليلهُ بكثيرهِ ظلماً وذلَّ كثيره لقليله
إني اذا جدَّ المقالُ بوقفهِ فضَلتُ مجملَه على تفصيله
واذا المخاطَبُ كان مثلك واعياً اغنى اختصارُ القول عن تطويله
يا من يكتم فضلَه متواضعاً والناسُ مجمعةٌ على تفضيله
شكواي بحتُ بها اليك وليس في شكوى الزميل غضاضةٌ لزميله
ان المريض ليستريح اذا اشتكى مما به لطبيبه وخليله
وكذا الحزين اذا تهيَّج حزنه يبكي فيسكن حزنهُ بعويله

على اليرموك

وهو نهر يصبّ في الاردن وراء بحيرة طبرية وعنده حدثت الواقعة المعروفة التي انتصر فيها العرب على الروم وتمّ لهم بعدها فتح بلاد الشام وقد قصدهُ الناظم قبل نظمها

على اليرموك قف واقرا السلاما ... وكلّمهُ اذا فهمَ الكلاما
وقلْ يا نهرُ هل هاجتك ذكرى ... شجتْ قلبي وهيّجت الغراما
قطعتُ سهول حورانٍ وشوقي ... اليك يُثير في نفسي ضِراما
وسار بنا القطار على سهولٍ ... تفيض بخيرها عاماً فعاما
فلمّا ان اطلّ عليكِ ظُهراً ... وفي واديك سيلَ الماء شاما
جرى ينساب في الوادي كأفعى ... يروم الورد كي يُطفي الأُواما (١)
هبوطاً نحو غورٍ أشعلتهُ ... حُمياً الصيفِ فاضطرم اضطراما
تحيط به وهادٌ كالحاتٌ ... تصدُّ الريح إنْ ترُمِ انهزاما
وماء النهر يرمقنا بلطفٍ ... من الوادي ويبتسم ابتساما
فيُنسينا لوافحهُ ويُحيي ... بذكرى المجد قلباً مستهاما

***

بنو الصحراء هل يُصغون ام هم ... على الفلواتِ قد باتوا نياما
ألا هبُّوا احدّثكم بمجدٍ ... لكم غشي الجزيرة والشآما
الى اليرموك ان تبغوا المعالي ... وفوق ضفافه فاجثوا احتراما
هنا الاسلام ضاء لهم حسامٌ ... غداةَ استلّ خالدهُ (٢) الحساما
وهبّ ابو عُبيدةَ (٣) مثلَ ليثٍ ... يقود وراءهُ الموت الزؤاما
فأصلى الروم حرباً ايّ حربٍ ... وفلّ بعزمه الجيش اللُّهاما
وسار على روابي الشام يخطو ... تخرُّ له الرُّبى هاماً فهاما

---

(١) الاوام العطش (٢) خالد بن الوليد (٣) ابو عبيدة ابن الجرّاح

بربك ايها النهرُ المفدّى   بربك قلْ ولا تخشَ الملاما
أيُشرق نجمهم من بعد ذلٍ   ويعلو بعد ان لحق الرَّغاما (١)
ارى في الافق نوراً من بعيدٍ   يلوح فهل ترى يجلو الظلاما
واسمع في ربوع الشام صوتاً   اثار سماعُهُ البلد الحراما
وأيقظ في العراق صدًى عظيماً   وحرّك في قبورهم الرّماما
اجبني هل يفيق الشرق حقاً   وينهض بعد ان اغفى وناما
يحطّم كل « تقليدٍ » ذميمٍ   فيحيا اهلهُ فيه كراما

. . .

ايا وطني اروم لك المعالي   وعيشاً مستقلّا وانتظاما
ولكن اين هذا من بلادٍ   أبتْ الا انشقاقاً وانقساما !

ا خ ٠ م

تلكم قريش

من قصيدة لشفيق جبري قالها في رثاء الحسين ملك الحجاز وقد رأينا ان نثبتها هنا لما تنضح به من الروح القومية المنبعثة عن الثورة العربية

تلكم قريش وما جفّت عواليها   على الحطيم (٢) ولم تنشف مواضيها
مَن ذاكرٌ في ظلال البيت ثورتها   والعهدُ غير بعيد عن لياليها
نارٌ بمكّةَ اذكاها حُلاحلها (٣)   فهاجت النار بالفيحاء تذكيها

وبعد ابيات يعود فيها بالذكريات الى ما لقيهُ اهل دمشق من كروبٍ اثناء الحرب الماضية يقول مخاطباً الحسين

لما رأيتَ قلوبَ الناس واجفةً   من الشدائد ما تسجو سواجيها

(١) الرغام التراب (٢) الحطيم جدار الكعبة (٣) الحلاحل السيد العظيم

واهلُ جِلّقَ بالأعوادِ عالقة … اعناقُهم وسيوف القوم تفريها
مبعثرون عن الاوطان تلحظهم … عينُ المنية ما تغفو غوافيها
بعثتها ثورةً دهواء مانجة … بالهاشميين مخضوباً حواشيها
حمراء اوقد جنبيها القنا وسقى … فتيانها من نجيع الترك ساقيها
على الحطيم رفاتٌ من حصائدها … واربُع الشام ريّاً من اضاحيها
ضحّيت بالتاج لم تعبأ برونقه … ضحيةً ذقت في المنفى تواليها
فأين ملكٌ سكبتنا في فتوّته … دماً نقياً فكان المُلك تمويها
هواجسٌ كسراب القاع مُلهيةٌ … تفسّح البال حيناً في ملاهيها
يا يوم فيصل طاحَ التاجُ وانقلبت … تلك المُنى وطوى الآمال طاويها
ما كان اعذبَ احلاماً حلمت بها … وكيف تبقى على الدنيا امانيها

***

تبني الشعوب على الأشلاء نهضتها … فما يُزلزَل ركنٌ من مبانيها
على المقابر اشباحٌ مخلّدةٌ … معنى الحياة كمينٌ في خوافيها
تكاد تحمل اسرار السنين وما … تضمّنته الليالي في دياجيها
تهزُّ كلَّ ضعيفٍ في هوادته … حتى يثور ويوحي العزُّ موحيها
وللشعوب عظات في غوابرها … تهيج روح المعالي في بواقيها
حريّة القوم ما زالت مضرّجة … بقانيء الدمّ مصبوغاً مطاويها
نمتْ على (السين) منها غرسة رويُت (١) … من الدماء ولم تذبل نواميها
فروعها عن فجاج الارض باسقةٌ … ينال كل هضيمٍ من مجانيها
فليس بدعاً اذا قامت على بردَى … منها منابتُ محمرٍّ سواقيها
على اعتلاج القنا تذكو مغارسها … وفي اضطراب الوغى تصفو مساقيها
ايهدمون حمانا بعد ان ملأت (٢) … مذاهبَ الارضِ قاصيها ودانيها
في عصفة الريح حسٌّ من مصارخها … وللعُباب هديرٌ من اغانيها
فليس يُطفأ نورٌ من مشارقها … ولا يهدّم مسعى من مساعيها

---

(١) اشاره الى الثورة الافرنسية (٢) اي الثورة

باب الشعر التأملي (او الحِكمي)

ويدخل فيه الحِكم والامثال ونظرات الشعراء في الكون والانسان

الحكمة الشعرية عبارة عن نظرة صائبة في الحياة . وقد كانت قديماً ترسل في ابيات او مقطّعات خلال بعض الاغراض الشعرية كالمديح او الفخر او الرثاء او الزهد وعن هذه الطريق وصلتنا حِكم زهير وابي العتاهية وابي تمام والمتنبي والمعري واليازجي وشوقي وسواهم . ويستثنى من ذلك بعض القصائد المخصصة للوعظ والارشاد كقصيدة ابن الوردي « اعتزل ذكر الاغاني والغزل» او التي هي مجموعة حكميَّة « كذات الامثال » لابي العتاهية وما جرى مجراها

وقد اجاد العرب في كل ذلك . على انك قلما ترى في الشعر العربي القديم محاولات فنيَّة يراد بها تصوير المجرّدات او النظر في مزاياها . فلم يعالجوا بتصميم فكري امثال هذه المواضيع – الحقيقة – السعادة – الفضيلة – القوّة – الاشتراكية – الانسانية – الروح – الخلود – المحبة – وليس لهم فيها مــا للمحدثين وان يكن هؤلاء لا يزالون في ذلك بعيدين عمّا بلغهُ كبار ادباء الغرب

ولا يراد بالشعر التأمّلي ان ينظر الشاعر نظر الفيلسوف فيحلّل ويقيس ويستنتج بناء على مقدمات عقلية ، بل ان يدرك قيمة الاشياء ويصوّر لنا ادراكه تصويراً جميلاً يطربنا ويغذي خيالنا . على الشاعر المفكِّر ان يرفعنا الى مستوى من الاختبار الروحي نتعالى فيه عن حياتنا العادية ونتحرر من قيودنا المادية

والفرق الاساسي بين الشعر الحكمي القديم والشعر التأملي الحديث ان الاول خطرات سانحة تعرض للشاعر في مناسبة من المناسبات ، اما الثاني فصور خياليَّة ذات موضوع واحد يرسمها لنا الشاعر ملوَّنة بالوان نفسه فتجيء مشرقة بجمال الفن مالكة اسباب الابهاج

واليك بعض امثلة من النوعين–

من حِكم زهير بن ابي سلمى

وهو شاعر جاهلي من اصحاب المعلّقات وهذه الابيـات الحكمية من معلقته التي انشدها على اثر الصلح الذي عقب حرب داحس والغبراء . وقد عرف زهير بدقتهِ وحسن اخلاقه وهو احد الثلاثة المقدَّمين على سائر شعراء الجاهلية

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأَمِ
وأعلم علمَ اليوم والأَمسِ قبلهُ ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ من تُصبْ ... تُمِتْهُ ومن تخطئ يعمَّر فيهرَمِ (١)
ومن لا يصانعْ في امورٍ كثيرةٍ ... يُضرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بمنسِمِ (٢)
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ ... يفِرْهُ ومن لا يتّقِ الشتم يُشتَمِ (٣)
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضلهِ ... على قومه يُستغنَ عنهُ ويُذممِ
ومن هابَ اسباب المنايا ينلنهُ ... وان يَرقَ اسبابَ السماء بسُلَّمِ
ومن يجعل المعروفَ في غير اهلهِ ... يكنْ حمدُهُ ذماً عليه ويندمِ
ومن لم يذُدْ عن حوضهِ بسلاحه ... يُهدَّمْ ومن لا يظلم الناس يُظلمِ
ومن يغترب يحسب عدواً صديقهُ ... ومن لا يُكرِّم نفسه لا يُكرَّمِ
ومهما تكن عند أمرىءٍ من خليقةٍ ... وان خالها تخفى على الناس تُعلمِ (٤)
وكاين ترى من صامتٍ لك معجبٍ ... زيادتهُ او نقصهُ في التكلمِ (٥)
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ ... فلم يبقَ الا صورةُ اللحم والدمِ

---

(١) تخبط خبط عشواء. تسير على غير هدى . يعمر يعيش طويلاً
(٢) يصانع يداري ويداهن . ويضرَّس يعض . المنسم خفُّ الجمل – اي يتعذَّب ويهان
(٣) اي من يجعل المعروف وقاية لشرفه يحفظ شرفه من ان يمسّ
(٤) الخليقة الخصلة والطبع (٥) وكاينْ اي وكم واصلها كأيٍ

من حِكَم ابن دريد في مقصورتهِ

المقصورة الدُريدية قصيدة مشهورة نظمها العلّامة ابن دريد وهو من (رجال القرن الثالث الهجري) يصف حاله ورحيله الى فارس وهي نحو من ٢٣٠ بيتاً وتجمع شتى الفنون الادبية من مدح وفخر وشكوى ووصف وامثال · واليك بعض امثالها —

والناس كالنَبت فمنهم رائقٌ   غضٌ نضيرٌ عودهُ مُرُّ الجنى
ومنه ما تقتحم العينُ فان   ذُقت جناهُ انساغ عذباً في اللَّها (١)
مَن ظَلَم الناسَ تحاموا ظُلمهُ   وعزَّ عنهم جانباه واحتمى
وهم لمن لان لهم جانبهُ   أظلمُ من حيات انباث السَفا (٢)
عبيدُ ذي المال وان لم يطمعوا   من غمره في جرعة تَشفي الصَدى
وهم لمن أملقَ اعداءٌ وان   شاركهم فيما افاد وحوى (٣)

***

من لم يعظهُ الدهر لم ينفعهُ ما   راح به الواعظ يوماً او غدا
من عارض الاطماع باليأس رنت   اليهِ عينُ العزّ من حيثُ رنا
من ناط بالعُجب عُرى اخلاقه   نِيطت عُرى المقت الى تلك العُرى
والناسُ الفٌ منهمُ كواحدٍ   وواحدٌ كالألف ان امرٌ عنا
وللفتى من ماله ما قدّمت   يداهُ قبل موته لا ما اقتنى
وانما المرء حديثٌ بعدهُ   فكن حديثاً حسناً لمن وعى
وآفةُ العقل الهوى فمن علا   على هواهُ عقلهُ فقد نجا
كم من اخٍ مسخوطةٍ اخلاقُهُ   اصفيتُهُ الودَّ لخُلقٍ مرتضى
اذا بلوتَ السيف محموداً فلا   تذممْهُ يوماً ان تراهُ قد نبا
اذا تصفَّحتَ امور الناس لم   تُلفِ امرءاً حاز الكمال فاكتفى

(١) اي من الناس ما يروقك منظره فاذا اختبرته وجدته مرّاً ومنهم من تنفر من منظره ولكنك تستعذبه عند الاختبار (٢) وهم للمسكين الوديع اظلم من الحيات (وانباث السفا اي التراب)
(٣) اي انهم يخدمون الغني وان لم يطمعوا منه بشيء ويعادون الفقير وان شاركهم فيما حصله

من حِكم المتنبي

وهي مشهورة . وللمتنبي نحو مئتي بيت جارية على السن الناس

في الزمان والانسان

صَحِبَ الناس قبلنا ذا الزمانا   وعَناهم من شأنهِ ما عنانا
وتولّوا بغُصّةٍ كُلُّهم منه   وإنْ سرَّ بعضَهم احيانا
ربّما تُحسِن الصنعَ لياليه   ولكنْ تكدّر الاحسانا
فكأنّا لم يرضَ فينا بريب الدهر   حتى اعانه من اعانا(١)
كلما أنبتَ الزمانُ قناةً   ركّب المرء في القناة سِنانا(٢)
ومُراد النفوس اصغرُ من ان   نتعادى فيه وان نتعانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا   كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو انّ الحياة تبقى لحيٍّ   لعددنا اضلّنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدٌّ   فمن العجز ان تموت جبانا
كلُّ ما لم يكن — من الصعب في الأنفُس — سهلٌ فيها اذا هوَ كانا

. . .

بِمَ التعلّل لا اهلٌ ولا وطنُ   ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكَنُ
أُريد من زمني ذا ان يبلّغني   ما ليس يبلغهُ من نفسهِ الزمن
لا تلقَ دهرك الاّ غيرَ مكترثٍ   ما دام يصحبُ فيه روحَكَ البدنُ
فما يُديم سرورٌ ما سررتَ به(٣)   ولا يردُّ عليكَ الفائتَ الحزَنَ
يا من نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسهِ   كلٌّ بما زعم الناعون مرتهن(٤)
ما كلُّ ما يتمنّى المرء يدركهُ   تجري الرياح بما لا تشتهي السُّفن

. . .

(١ و ٢) يذكر تعادي الناس وما يقع بينهم بسبب ذلك من المحن حتى كان بعضهم يعين الدهر على بعض . فكلما جاء الزمان بنائبة اضاف الانسان اليها شرّه وعداوته

(٣) اي ان سرورنا بشيء لا يُديم ذلك الشيء

(٤) اشارة الى الذين نعوا الشاعر بمجلس سيف الدولة

وَمن لم يعشق الدنيـا قديماً ولكنْ لا سبيل الى الوصالِ
نصيبُك في حياتك من حبيبٍ نصيبُك في منامك من خيال
رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبـال
فصرتُ اذا اصابتني سهـامٌ تكسّرت النّصال على النّصال

. . .

وما قتلَ الاحرارَ كالعفو عنهمُ ومَن لك بالحرّ الذي يحفظُ اليدا
اذا انت اكرمتَ الكريم ملكتَهُ وان انت اكرمتَ اللئيم تمرَّدا
ووضعُ النّدى في موضع السيفِ بالعلى مُضرٌ كوضع السيف في موضع النّدى

. . .

أذمُّ الى هـذا الزمان أهيلَـهُ فأعلمُهم فَدمٌ[1] وأحزَمُهم وَغدُ
ومن نكدِ الدنيا على الحرّ ان يرى عدواً له مـا من صداقتهِ بدُّ

. . .

ارى كلّنا يبغي الحياةَ لنفسهِ حريصاً عليها مستهاماً بها صبّاً
فحبُّ الجبان النفسَ اوردهُ البقا وحبُّ الشجاع الحربَ اوردَه الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحدٌ الى ان ترى إحسان هذا لذا ذنبا[2]

الاقدام والطموح

ذريني أنلْ ما لا يُنال من العلى فصعبُ العلى في الصّعب والسّهلُ في السّهل
تُريدين لُقيـانَ المعالى رخيصةً ولا بدَّ دون الشّهد من إبَر النّحلِ

. . .

كلَّ يومٍ لك احتمالٌ جديدٌ ومسيرٌ للمجد فيه مقامُ
واذا كانت النفوس كباراً تعبتْ في مرادها الاجسامُ

. . .

(١) الفدم الجاهل الاحمق (٢) يقول في هذه الابيات ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتهما واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد

ابن فضلي اذا قنعتُ من الدَّهر بعيشٍ معجَّل التنكيدِ
عِش عزيزاً او مُتْ وانت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنود
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ واذا مُتَّ مُتَّ غيرِ فقيد
فاطلُبِ العزَّ في لظى ودعِ الذلَّ ولو كان في جِنان الخلود

. . .

اذا غامرتَ في شرف مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ
فطعمُ الموتِ في امرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في امرٍ عظيم
يرى الجبناء ان العجزَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيم
وكلُّ شجاعةٍ في المرء تُغني ولا مثلَ الشجاعةِ في الحكيم

. . .

اهمُّ بشيء والليالي كأنَّها تطاردني عن كونه وأطاردُ
وحيدٌ من الخلّان في كل بلدةٍ اذا عظُم المطلوب قلَّ المساعد

الظلم والذلّ

لا يسلمُ الشرف الرفيعُ من الاذى حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ
والظلمُ من شيم النفوس فإنْ تجدْ ذا عفَّة فلعلَّةٍ لا يظلم
والذلُّ يُظهر في الذليل مودَّةً وأوَدُّ منهُ لمن يودُّ الأرقم(١)
ومن العداوة ما ينالك نفعهُ ومن الصداقةِ ما يَضرُّ ويؤلم

. . .

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيهِ غذاءٌ تَضوى(٢) به الاجسامُ
ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَّ عيشٍ اخفُّ منه الحمام
كلُّ حلمٍ اتى بغير اقتدارٍ حُجَّةٌ لاجئٌ اليها اللئام
من يهُن يسهلِ الهوانُ عليه ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلام

---

(١) الارقم نوع من الحيّات (٢) تضوى تهزل

حسن الراي

الرأيُ قبل شجاعة الشجعانِ هو اولٌ وهي المحلُّ الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ بلغتْ من العلياء كل مكان
لولا العقول لكان ادنى ضيغمٍ ادنى الى شرفٍ من الانسان(١)
ولما تفاضلتِ النفوسُ ودبّرتْ ايدي الكماة عواليَ المرّان(٢)

كرم الخلق

اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص على هبةٍ فالفضلُ فيمن له الشكرُ
ومن ينفقِ الساعات في جمع مالهِ مخافةَ فقرٍ فـالذي فعل الفقرُ

. . .

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدّق ما يعتادهُ من توهُّمِ
وعادى محبّيهِ بقول عُداتهِ وأصبح في ليلٍ من الشكّ مُظلم
أُصادق نفسَ المرء من قبل جسمهِ وأعرفهـا في فعلهِ والتكلُّمِ
وأحلمُ عن خلّي وأعلم أنّهُ متى أجزهِ حلماً على الجهل يندمِ
فاحسنُ وجهٍ في الورى وجه محسنٍ وأيمنُ كفٍّ فيهمِ كفُّ مُنعمِ
وأشرفُهم من كان اشرف همّةً واكثر إقداماً على كل مُعظمِ

---

(١) ادنى ضيغم احط وحش . وادنى الى اقرب الى
(٢) الكماة الابطال . وعوالي المران الرماح

من نونية أبي الفتح البُستي

وهو من ادباء القرن الرابع الهجري توفي في بخارى سنة ٤٠٠ وكان معروفاً بأناقته في النظم والنثر . وقد اشتهرت قصيدته النونية لما تضمنته من الحكم الروحية والامثال السائرة وهي تناهز الستين بيتاً وهاك بعضها (١)

زيادة المرء في دنياه نقصانُ — وربحهُ غيرَ محض الخير خسرانُ
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً — بالله هل لخراب الدهر عمرانُ
أحسِن الى الناس تستعبد قلوبَهم — فطالما استعبد الانسانَ إحسانُ
وكن على الدهر معواناً لذي أملٍ — يرجو نداكَ فان الحرَّ معوان
من جادَ بالمال مالَ الناسُ قاطبةً — اليهِ والمالُ للانسان فتّان
يا خادمَ الجسم كم تسعى لخدمته — اتطلبُ الربحَ مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها — فانتَ بالنفس لا بالجسم إنسان
حسبُ الفتى عقلهُ خلّاً يعاشرهُ — اذا تحاماهُ إخوانٌ وخلاّن
من استشار صروف الدهر قام له — على حقيقةِ طبع الدهر برهان
من استنام الى الاشرار نام وفي — قميصهِ منهم صِلٌّ وثعبان
من سالمَ الناسَ يسلم من غوائلهم — وعاشَ وهو قريرُ العين جذلان
من كان للعقل سلطانٌ عليه غدا — وما على نفسهِ للحرص (٢) سلطان
اذا نبا بكريمٍ موطنٌ فلهُ — وراءهُ في بسيط الارض اوطان
لا تحسبنَّ سروراً دائماً ابداً — من سرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمان
واشدُد يديك بحبل الله معتصماً — فانهُ الركن ان خانتكَ اركان
والناس إخوانُ من دالتهُ دولتهُ (٣) — وهم عليه — اذا عادتهُ — أعوان
يا رافلاً في الشباب الرحب منتشياً — من كأسهِ هل أصاب الرشدَ نشوانُ
لا تغترر بشبابٍ ناعمٍ خضلٍ — فكم تقدّمَ قبل الشيب شبّان
أحسِن اذا كان امكانٌ ومقدرةٌ — فلا يدوم على الانسان إمكانُ
فالروض يزدان بالانوار فاغمةً (٤) — والحرُّ بالعدل والإحسان يزدان

(١) تجد نصها الكامل في دائرة المعارف للبستاني (في ترجمة الشاعر)
(٢) يراد بالحرص هنا تمسّك الانسان بحطام الدنيا
(٣) جمل دال هنا بمعنى ادال اي اظفر
(٤) الانوار الزهور . والفاغم المتفتح من الورود

النفس (١)

من ابيات للرئيس ابن سينا

هبطتْ اليكَ من المحلِّ الارفعِ   ورقاء (٢) ذات تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مقلة عارفٍ   وهي التي سَفرتْ ولم تتبرقع
وصلت على كُرهٍ اليك وربَّما   كرهت فراقك وهي ذات تفجُّع
تبكي وقد ذكرتْ عهوداً بالحمى (٣)   بمدامعٍ تهمي ولمَّا تقلع
وتظلُّ ساجعةً على الدِّمَن التي   درست بتكرار الرياح الاربع
حتى اذا قربَ المسيرُ من الحمى   ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدت مخالفةً لكل مخلَّفٍ   عنها حليف الترب غير مشيَّع
سجعت وقد كشف الغطاء فابصرت   ما ليس يُدرك بالعيون الهجَّع
وغدت تغرِّد فوق ذروة شاهقٍ   والعلم يرفع كل من لم يُرفع
فلأيِّ شيءٍ أُهبطت من شاهقٍ   عالٍ الى قعر الحضيض الاوضع
ان كان اهبطَها الاله لحكمةٍ   طُويت على الفذِّ اللبيب الاروع
وهُبوطُها ان كان ضربةَ لازبٍ   لتكون سامعةً بما لم تسمع
وتعودَ عالمةً بكل خفيَّةٍ   في العالمين فخرقها لم يُرقَع
وهي التي قطع الزمان طريقها   حتى لقد غَرَبت بغير المطلع
فكأنها برقٌ تألَّق بالحمى   ثمَّ انطوى فكأنهُ لم يلمع

وقد عارضها شوقي بقصيدة مطلعها – « ضمّي قناعك يا سعاد او ارفعي (٤) » والاثنان كما يقول المقتطف جريا مجرى افلاطون في حسبان النفس روحاً كانت عند الخالق ثم هبطت ودخلت جسم الانسان

---

(١) عن الكشكول ٢٢٨ (٢) شبه النفس بالورقاء اي الحمامة
(٣) تحنّ الى عهودها الاولى قبل ان تحلّ جسم الانسان (٤) راجعها للمقابلة في ديوانه ج٢

من حِكم اليازجي

في شعر الشيخ ناصيف اليازجي ما يُشعرك بمحاكاته لشعر المتنبي . تلحظ ذلك في اكثر مدائحه ومراثيه حيث يجري على طريقة المتنبي في النظر الى الحياة وعقد الكلام بالامثال . ولليازجي عدة منظومات قصرها على الحكمة والعظة كالقصائد التي مطلعها – الحمد لله الصمد – قم في الدجى يا أيها المتعبِّدُ – لعمرك ليس فوق الارض باقٍ – دعْ يوم امس وخذ في شأن يوم غدِ – اني لقد جرَّبت اخلاق الورى . وهذه الاخيرة تجدها في كتابه مجمع البحرين واليك بعضها –

والمرء مطبوعٌ على البخل اذا جادَ فجودُهُ عن العِرض فدى[1]
يريدُ ان يغترفَ البحرَ ولا يتركُ منه قطرةً تُروي الظما
ينسى من المحسن طوداً قد رسا وليس ينسى ذرَّةً ممَّن أسا[2]
ولا يُحِبُّ غيرَ نفسه فما أحبَّهُ فهو الى النفس انتهى
يعرف كلٌّ حاله فيما مضى الاَّ الـذي كان دنياً فارتقى
وكلُّ علمٍ يُدركُ المرء سوى عِرفانِ قدرِ نفسِهِ كما اقتضى
مَن عاش بالتقتيرِ من ذوي الغنى فانَّهُ افقرُ مَن فوق الثرى
كلٌّ يعدُّ نفسهُ نِعمَ الفتى فمن هوَ اللئيم منا يا ترى
لو عرفَ الانسان عيبَهُ لما رايتَ عيباً فيه ما طال المدى
لا يحمد القومُ الفتى الاَّ متى ماتَ فيُعطى حقَّه تحت البلى
من قال لا اغلط في امرٍ جرى فانها اولُ غلطةٍ تُرى
وقلّما ابصرتَ نعمةً على شخصٍ ولا تقول قد ضاعت هنا
وكلُّ ما عن منهج الطبع التوى تُنكرهُ النفس ولو نفعاً جنى
وكلُّ من شابَ على خُلقٍ فلا تنصحهُ فهوَ ليس من اهل الهدى
وكلُّ مَن لا خير منهُ يُرتجى ان عاشَ او ماتَ على حدٍّ سوا

---

(١) اذا جاد فلكي يتقي شرَّ اقوال الناس
(٢) ينسى جبل الاحسان ولا ينسى ذرَّة الاساءة

المواكب

لجبران جبران

وهي نظرات الشاعر في الايام والناس . وقد جعلها محاورة بين شخصين – الاول شيخ خبر الدهر وذاق حلوه ومرّه والثاني شاب في عنفوان قوّته يعيش في الغاب بعيداً عن الناس ومفاسدهم . فيتحدث الشيخ عن الحياة وما فيها من ألم وتغرُّض وظلم وجهل وعبودية وتمويه وشهرة كاذبة وما الى ذلك ، ويردّ عليه الثاني نافياً وجود ذلك في الغاب متعالياً في غنائه عن الآلام والاوصاب . وها نحن نثبت بعض امثلة من قول الاول –

الخير

الخيرُ في الناس مصنوعٌ اذا جُبروا ... والشرُّ في الناس لا يفنى وان قُبروا
واكثر الناس آلاتٌ تحرّكها ... اصابع الدهر يوماً ثم تنكسر
فلا تقولنَّ هذا عالمٌ علَمٌ ... ولا تقولنَّ ذاك السيّد الوَقُر
فافضل الناس قطعانٌ يسير بها ... صوت الرعاةِ ومن لم يمشِ يندثر

الدين

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعهُ ... غيرُ الأُلى لهمُ في زرعهِ وطرُ
من آملٍ بنعيم الخلد مبتشرٍ (١) ... ومن جهولٍ يخاف النار تستعر
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا ... رباً ولولا الثواب المرتجى كفروا
كأنما الدين ضربٌ من متاجرهم ... إن واظبوا ربحوا او اهملوا خسروا

العدل

والعدلُ في الارض يُبكي الجنَّ لو سمعوا ... بهِ ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجنُ والموتُ للجانين إن صغروا (٢) ... والمجدُ والفخرُ والاثراء ان كبروا

---

(١) استعمل ابتشر بمعنى استبشر وليست قاموسية (٢) اي كانوا من صغار الناس

فسارقُ الزهرِ مذمومٌ ومحتقرٌ   وسارقُ الحقل يُدعى «الباسل الخطر»(١)
وقاتلُ الجسمِ مقتولٌ بفعلتهِ   وقاتلُ الروح لا تدري به البشر

الحق

والحقُّ للعزمِ والارواحَ انْ قويتْ   سادت وان ضعفتْ حلّت بها الغيرُ
ففي العرينة ريحٌ ليس يقربهُ   بنو الثعالبِ غابَ الأُسد ام حضروا
وفي الزرازير جُبنٌ وهي طائرةٌ   وفي البزاة شموخٌ وهي تُحتضَرُ
والعزمُ في الروح حقٌّ ليس ينكرهُ   عزمُ السواعد شاء الناس ام نكروا
فإن رأيتَ ضعيفاً سائداً فعلى   قومٍ اذا ما رأوا اشباههم نفروا

العلم

والعلمُ في الناس سبلٌ بانَ اولها   اما اواخرها فالدهرُ والقدَر
وأفضلُ العلم حُلمٌ ان ظفرت به   وسرتَ ما بين ابناء الكرى سخروا
فان رأيتَ اخا الاحلام منفرداً   عن قومهِ وهو منبوذٌ ومحتقر
فهو النبيُّ وبُرد الغد يحجبهُ   عن أُمةٍ برداء الامس تأتزر
وهو الغريبُ عن الدنيا وساكنها   وهو المجاهرُ لامَ الناس او عذروا
وهو الشديدُ وان ابدى ملاينةً   وهو البعيدُ تدانى الناس ام هجروا

السعادة

وما السعادةُ في الدنيا سوى شبحٍ   يُرجى فان صار جسماً ملّهُ البشر
كالنهر يركض نحو السهل مكتدحاً   حتى اذا جاءهُ يبطي ويعتكر
لم يسعد الناس الاّ في تشوُّقهم   الى المنيع فان صاروا به فتروا
فإنْ لقيتَ سعيداً وهو منصرفٌ   عن المنيع(٢) فقلْ في خُلقهِ العبر

---

(١) ربما خيّل الى الناظم الرفع على الحكاية   (٢) يريد الممنوع

العنقاء

من قصيدة لايليا ابي ماضي . والعنقاء طائر خرافي وهو عند العرب احد المستحيلات الثلاثة . ويرمز به الشاعر الى السعادة التي يسعى الانسان وراءها في الحياة. وسترى كيف يحملنا الشاعر بخياله الى الفكرة التي يروم تقريرها

انا لستُ بالحسناء اولَ مولعِ ... هي مطمعُ الدنيا كما هي مطمعي
فأقصصْ عليَّ اذا عرفت حديثها ... واسكُنْ اذا حدَّثتَ عنها واخشعِ
ألمحتَها في صورةٍ ؟ أشهدتها ... في حالةٍ ؟ أرأيتها في موضعِ ؟
إني لذو نفسٍ تَهيم وإنها ... لجميلة فوق الجمال الأبدعِ
ويزيد في شوقي اليها أنها ... كالصوت لم يُسفر ولم يتقنَّعِ
فتَّشتُ جيبَ الفجر عنها والدجى ... ومددتُ حتى للكواكب إصبعي
فاذا هما متحيِّران كلاهما ... في عاشقٍ متحيرٍ متضعضعِ
واذا النجوم لعلمها او جهلها ... مترجرجاتٌ في الفَضاء الاوسعِ
رقصت أشعَّتها على سطح الدجى ... وعلى رجاء فيَّ غيرِ مشعشعِ

***

والبحرُ كم ساءلتهُ فتضاحكت ... أمواجُهُ من صوتيَ المتقطّعِ
فرجعتُ مرتعشَ الخواطر والمنى ... كحمامةٍ محمولة في زعزعِ
وكأنَّ أشباح الدهور تألبت ... في الشطِ تضحك كلّها من مرجعي
ولكم دخلتُ الى القصور مفتشاً ... عنها وعُجتُ بدارسات الأرْبعِ
ان لاحَ طيفٌ قلت يا عين انظري ... او رنَّ صوتٌ قلت يا أذن اسمعي
فاذا الذي في القصر مثلي حائر ... واذا الذي في القفر مثلي لا يعي

***

قالوا : تورَّعْ انها محجوبة ... الاَّ عن المتزهـد المتورّعِ
فوأدتُ أفراحي وطلّقتُ المنى ... ونسختُ آيات الهوى من أضلعي

وحطمت أقداحي ولمـا ارتوي   وعففت عن زادي ولمـا أشبع
وحسبتني أرنو اليهـا مسرعاً   فوجدت أني قد دنوت لمصرعي
ما كان أجهل نصحي وأضلني   لمـا أطعتهم ولم أتمتع
اني صرفت عن الطاعة والهوى   قلبي ولا ظفر لمن لم يطمع

***

وعجبت أحسب أنها بنت الروى   فصحوت أسخر بالنيام الهجع
ليست حبوراً كلها دنيا الكرى   كم مؤلم فيها بجانب مفزع
تخفي اماني الفتى كهمومه   عنه وتحجب ذاته في برقع
ولربما التبست حوادث يومه   بالغـابر الماضي وبالمتوقع
لما حلمت بها حلمت بزهرة   لا تجتنى وبنجمة لم تطلع
يا حبذا شطط الخيال وانمـا   تمحى مشاهده كأن لم تطبع
ثم انتبهت فلم أجد في مخدعي   الا ضلالي والفراش ومخدعي

***

من كان يشرب من جداول وهمه   قطع الحياة بغلة لم تنقع
ذهب الربيع فلم يكن في الجدول الشادي ولا الروض الأغن الممرع
واتى الشتاء فلم تكن في غيمه الباكي ولا في رعده المتفجع
ولمحت وامضة البروق خلتها   فيها فلم تك في البروق اللمع
صفرت يدي منها وبي طيش الفتى   وأضلني عنها ذكاء الألمعي
حتى اذا نشر القنوط ضبابه   فوقي فغيبني وغيب موضعي
وتقطعت أمراس آمالي بها   وهي التي من قبل لم تتقطع
عصر الأسى روحي فسالت ادمعاً   فلمحتها ولمستها في أدمعي
وعلمت حين العلم لا يجدي الفتى   أن التي ضيعتها كانت معي

التمثال

من قصيدة لعلي محمود طه في ديوانه ليالي الملاح التائه. ويرمز الشاعر الى الامل الذي ينحته الانسان وهو شاب من قلبه وروحه « فيبدع في تصويره وصقله متخيلًا فيه فرح الحياة وجمالها. ولكن الزمان يمضي ولا يزال تمثاله طيناً جامداً حتى تخمد وقدة الشباب في دم الصانع الطامح وتشمره السنون بالعجز والضعف » . وحينئذ يرى ان حلمه لم يتحقق وان ذلك التمثال قد عصفت به الليالي فاصبح حطاماً فيصرخ يائساً ويمضي القدر في عمله

أقبلَ الليلُ ، واتخذتُ طريقي لكَ ، والنجمُ مؤنسي ، ورفيقي
أيُّهذا التمثالُ ها أنذا جئتُ لألقاكَ في السكون العميقِ
حاملًا من غرائب البرّ ، والبحر ومن كل مُحدَثٍ ، وعريق
جئت ألقي به على قدميكَ الآنَ في لهفةِ الغريب المشوق
عاقداً منه حول رأسِكَ تاجاً ووشاحاً لقدِّكَ الممشوق !

* **

صورةٌ انتَ من بدائعَ شتى ومثالٌ من كلِّ فنٍّ رشيق
بيدي هذهَ جبلْتُك من قلـبي ومن رونقِ الشباب الانيق
كلما شِمتُ بارقاً من جمـالٍ طِرتُ في إثرهِ اشقُّ طريقي
شَهِدَ النجمُ كم اخذتُ من الروعةِ عنه ، ومن صفاء البريق
شَهِدَ الطيرُ كم سكبتُ اغانيهِ على مسمَعيكَ سكبَ الرحيق
شَهِدَ الكرمُ كم عصرتُ جناهُ وملأتُ الكؤوس من ابريقي
شهِدَ البرُّ ما تركتُ من الغـار على مِعطَفِ الربيع الوريق
شهِدَ البحرُ لم أدعْ فيه من دُرٍّ جديرٍ بمفرقيكَ خليق
ولقد حيّرَ الطبيعةَ إسرافي لها كلَّ ليلةٍ وطروقي

قلتُ : لا تعجبي فما انا الا شبحٌ لجَّ في الخفاء الوثيق
أنا يا أمُّ صانع الامل الضاحك في صورة الغد المرموق
صِغتُهُ صوغ خالقٍ يعشق الفنَّ ويسمو لكل معنى دقيق
وتنظَّرتُهُ حياةً فأعياني دبيبُ الحياة في مخلوقي ! !
كلَّ يومٍ أقولُ : في الغدِ لكنْ لستُ القاهُ في غدٍ بالمفيق
ضاع عمري ، وما بلغتَ طريقي وشكا القلبُ من عذابٍ وضيق

فاين الغد واين املي فيه هوذا تمثالي محطم امام عواصف الايام وانا لم أُعد ذلك القويَّ فاحميه من الويل والبلاء المحيق ، وهكذا جاء الغد على رجل ضعيف لا امل له

لم أُعدْ ذلك القويَّ فأحميه من الويل والبلاء المحيق
حرَّ نورُ الضحى على آدميٍّ مُطرقٍ في اختلاجة المصعوق
في يديه حُطامة الأمل الذاهبِ في مَيعة الصِبا الموموق
واجماً أطبقَ الاسى شفتيهِ غيرَ صوتٍ عبرَ الحياة طليق
صاح بالشمس : لا يرُعكِ عذابي فاسكبي النارَ في دمي وأريقي
نارُكِ المشتهاةُ أندى على القلب وأحنى من الفؤاد الشفيق
فخذي الجسمَ حفنةً من رمادٍ وخذي الروحَ شعلةً من حريق

على بساط الريح

لفوزي المعلوف

ظهر في الشعر العربي الحديث نوع من الشعر التأملي هو هذه الرحلات الى الملإ الاعلى. وفيها يطير الشاعر على اجنحة الخيال فيجوب الفضاء. ويحدثنا عن عالم الارواح ويسمعنا من غرائب الحكمة ما يحرك فينا روح التأمل و يوسع امامنا مدى الخيال. وهذه الرحلات عدة منظومات طويلة كثورة في الجحيم للزهاوي، وعبقر لشفيق المعلوف، وترجمة شيطان للعقاد، وكهذه المنظومة الرائعة التي نظمها فوزي المعلوف وهو لم يناهز الثلاثين. والفكرة الاساسية فيها ان موطن الشاعر الحقيقي هو الفضاء. فهو ابداً يتوق الى الانعتاق من عبودية الارض ليتمتع بحرية الحياة العليا . وقد تم ذلك لشاعرنا في حلم اذ خيل اليه انه على متن طيارة يصعد في الجو : وفي تصعيده يسمع احاديث الطيور والنجوم والارواح عن الانسان والعالم الارضي . فيعيدها الينا ملونة بألوان التشاؤم الخلاب وبعد ان يلتقي بروحه هناك يعود الى الارض فيستيقظ وليس الى جنبه غير يراعه الذي لا يرى غيره من خل وفي في الحياة . والمنظومة عدة اناشيد وقد رأينا ان نختار منها ما يلي —

روح الشاعر

لستِ من عالم الترابِ وان كنتِ تقمّصتِ بالتراب عليهِ
انتِ من عالمٍ بعيدٍ عن الارض يفيض الجلال عن جانبيه
نسمة الشعر انتِ فيه تبثّين اريجَ الشعور في بُردتيه
هو فردوسُك السحيق فلا الاثم ولا الشرُّ يبلغان اليه
وفتى الشعر فيه يستنزل الوحيَ بياناً يجثو الخلود لديه
حافراً باللظى على مصحف الأفق سطوراً تنير في دفّتيه
ما احمرار الاصيل غير لهيبٍ شعّ من قلبه على مقلتيه
ورُكام السحاب غير دخانٍ نفثته الهموم من شفتيه
ما انين الرياح غير زفيرٍ نزعته الرياح من رئتيه

ونواح الطيور غير عويل، نقلته الطيور عن أصغريه[1]
ما ندى الفجر غير لؤلؤه دمع، رشفته الازهار من محجريه
وبريق النجوم غير شظايا كأس حب، تحطمت في يديه

بين النسور

قال نسرٌ لآخر: ايُّ طيرٍ
هو هذا – ومن رفاقه ؟
إن يكن قادماً الينا بخيرٍ
فلماذا علا زعاقه

يا له طائراً بصورة شيطانٍ يبثُّ اللهيبَ بركانُ صدره
هو منا ؟ لا لا فلم ار جباراً كهذا في الجوّ ما بين طيره
انّ قلبي لموجسٌ منه شراً رُح بنا نجتلي حقيقة أمره
آدمي هذا – اجاب اخوه – جاء يستعمر الاثير بأسره
كرة الارض عن مطامعه ضاقت فخلّتْ هنا مطامحُ فكره
نحن لم نهجر البسيطةَ الا هرباً منه واجتناباً لشره
قم بنا نحشدُ الطيورَ وننقضُّ عليه نجزيه من مثل غدره

* * *

ودوّتْ في الاثير صيحة حربٍ ملأته بنسره وبصقره
طوّقتني بكلّ فاغرِ شدقٍ صامدٍ لي بمخلبيه وظفره
لا تخافي يا طيرُ ! ما انا الا شاعرٌ تطرب الطيور بشعره
زارك اليوم متعباً ينشد الراحة في هدأة السكون وسحره
فرّ عن ارضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكيل دهره

---

(١) اي قلبه ولسانه

من حديث احد الارواح

قال روحٌ حَذارِ يا أترابي
واطردوه عن السماءْ
هو في الارض حفنةٌ من تراب
فأبوه طينٌ وماءْ

هُوَ من نفخةٍ كفتْ لتجليه وتكني بذاتها لاحتجابه
وكما كان اصلهُ من تراب الارضِ يغدو مصيره لترابه
ليتَهُ عاد للثرى مثلما جاء نقياً بنفسه وإهابه
جاء والحسن والرواء رفيقاهُ وثوب العفاف كلُّ ثيابه
وتولَّى يقوده الإثم والداء الى القبر في ربيع شبابه
هو يحيا الشرّ فالشرُّ يحيا ابداً حيثُ حلَّ شؤم ركابه

ومن حديث روح آخر

نسيَ الخير حين اوغل في الشر فداس الضميرَ في عصيانهْ
ملأتْ قلبَهُ الافاعي فلا يُسمَع غير الفحيح في خفقانه
فاذا بالاذى وليدُ حِجاهُ واذا بالشرور بنتُ لسانه
عاش في ارضه لخالت جحيماً فاتى الخُلد عائثاً في جنانه
زجّ بالعلم في الفضاء طيوراً من جمادٍ يُديرها ببنانه
ما بناها الاَّ لهدم المباني ولسفك الدماء في طيرانهِ
ليتَهُ لم يكنْ ذكياً فكلُّ الويل في الكون من نُهى إنسانه
ليتَ عمرانهُ تأخر اجيالاً فكلُّ الخراب في عمرانه

باب الشعر القصصي

لا ينكر ان الشعر القديم لا يخلو من المنظومات القصصية . ففي احاديث عمر بن ابي ربيعة الغراميَّة ووقائع ابي نواس الخمرية وفي غيرها من الاخبار والحوادث الشعرية ما يدل على وجود هذه النزعة عند القدماء . على انها لم تكن بارزة في ادبهم بروزها في هذا العصر . وهي اليوم لا تنحصر – كما كانت قديماً – في وصف ما يحدث للشاعر بل تتناول شتى المواضيع الاجتماعية والتاريخية حيث يلعب الخيال ملعبه وحيث يخرج الشاعر عن نفسهِ الى سواه

والحكاية الشعرية الحديثة على نوعين : الاول المسرحيَّات وهذه غير معروفة عند القدماء . على ان المحدثين لا يزالون يخطون خطاهم الاولى فيها وقد تصدَّى عدد منهم للنظم المسرحي فانصرف بعضهم الى المواضيع الاجتماعية والفكرية كتبرئة المتهم لرشيد عطيه وطوفان وعذاب لابي ريشة وبنت يفتاح لسعيد عقل . وانصرف البعض الآخر الى المواضيع التاريخية كوفاء العرب لخليل اليازجي وفتح الاندلس لفؤاد الخطيب ومصرع كليوباطره لشوقي . ولا شك ان شوقي هو ابرز من عالج هذه الناحية . فقد وضع عدَّة روايات اشتهرت بين الخاص والعام واكثرها يمثل على لوحات السينما او في دور التمثيل

اما النوع الثاني فهو القصصي العادي . وفيه يتناول الشاعر حادثة اجتماعية او تاريخية فيقصها علينا بطريقة فنية مؤثرة كما سنرى في ما نثبته من الامثلة

وهناك نوع ثالث من القصص الحديثة هو الرحلات الخيالية . والرحلة الخيالية عبارة عن حديث يتحدَّث به الشاعر عمَّا رأى وسمع وشعر في رحلة يقوم بها نحو عالم الارواح . وهي كما مرَّ معنا من قِبل الشعر التأملي الرامي الى فكرة يؤمن بها الشاعر . وقد مثلنا عليها في الباب السابق

ولما كان المقام لا يتسع لاثبات المسرحيات فاننا نحيل الاديب الى دراستها رأساً في اصولها المنشورة ونقتصر هنا على بعض الامثلة من القصص العادية

الم تسأل الاطلال

كان عمر ابن ابي ربيعة على زعم الرواة قد تنسَّك . والظـاهر ان تنسُّكه لم يكن عميقاً في نفسه كما نرى من القصة التالية التي يحدثنا بها عمر بعد تنسُّكه بسنتين . قال –

اتاني خالد الخرِّيت فقال يا ابا الخطاب مرَّ قُبيلًا اربعٌ يرِدْنَ كذا وكذا من مكة ولم أرَ مِثلَهُنَّ قطُّ فهل لك ان تأتي متنكراً فتسمع من حـديثهن ولا يعلمنَ . قلتُ ويحك وكيف لي بان يخفى ذلك ، قال تلبس لِبسة اعرابي ثم تجلس على قَعُود(١) حتى تهجم عليهنَّ . قال فجلست على قعود ثم اتيتهن وسلمتُ عليهن فسألنني أن احدثهن وأنشدهن فانشدتهنَّ لكُثيِّر وجميل وغيرهما . فقلن يا أعرابي ما أمْلحك لو نزلتَ فتحدَّثت معنا يومنا هذا فاذا أمسيتَ انصرفتَ . قال فأنختُ قعودي فجلستُ معهنَّ فتحدَّثتُ وانشدتهنَّ فدنت هندُ وهي التي كنتُ أُشبِّبُ بها فمدَّت يدَها فالقتْ عمامتي عن رامي ثم قالت بالله أتُراك خدَعتنا منذُ اليوم . نحن والله خدعناك ثم ارسلنا اليك خالداً ليأتينا بك على اقبح هيآتك ثم اخذوا بالاحاديث وعلى اثر ذلك انشأ عمر يقول –

أَلَمْ تسأل الاطلال والمُتَرَبَّعا ببَطْن حُليَّاتٍ دوارسَ بَلقعـا
ارى الشَّري مَن وادي العقيق تبدَّلتْ معالِمُهُ وَبلًا ونَكْباء زعزَعا(٢)
فيبخلْنَ او يُخبِرْنَ بالعِلم بعدما نكأنَ فؤاداً كان قِدماً مُفجَّعا
بهندٍ وأترابٍ لِهندٍ اذِ الهوى جميعٌ وإذ لم نخشَ أن يتصدَّعا
واذ نحن مثل المـاء كان مِزاجُهُ كما صفَّق الساقي الرحيقَ المُشعشعا(٣)
واذ لا نطيعُ العاذلينَ ولا نرى لواشٍ لدينا يطلبُ الصُرمَ مَطمعا
تُنُوعتَنَ حتى عاودَ القلبَ سُقمُهُ وحتى تذكَّرتُ الحديثَ المُودَّعا(٤)
فقلتُ لِمُطرِهنَّ وَيْحَكَ انمـا ضرَرْتَ فهل تستطيعُ نفعاً فتنفعا

---

(١) القعود الجمل
(٢) الشري اسم مكان . وبلاً من الوبل وهو المطر . ونكباء زعزعا اي ريحاً شديدة
(٣) قوله صفَّق الساقي الرحيق اي حوَّله من اناء الى اناء ليصفو
(٤) قوله تُنوعتن نووصِفنَ اي ان كلًّا وصف لصاحبه ما يلاقيه منه

وأشريتَ فاستشرى وقد كان قد صحا ... فؤادٌ بأمثال المها كان مُوزَعا (١)
وهيّجتَ قلباً كان قد ودّعَ الصبا ... وأشياعَهُ فاشفع عسى ان تُشفَّعا (٢)
لئن كان ما قد قُلتَ حقّاً لما أرى ... كمثل الأُلى أطريتَ في الناس أربعا
فقالَ تعالَ انظرْ فقلتُ وكيف لي ... اخافُ مقاماً أن يشيعَ فيشنُعا (٣)
فقالَ اكتفِلْ ثمّ التثِمْ وأتِ باغياً ... فسلّمْ ولا تُكثرْ بأن تتورّعا (٤)
فإني سأُخفي العينَ عنك فلا تُرى ... مخافةَ ان يفشو الحديث فيُسمَعا
فاقبلتُ أهوي مثلَ ما قال صاحبي ... لموعدِهِ أُزجي قعوداً مُوقَّعا (٥)
فلمّا تفاوضنا الحديثَ وأسفرتْ ... وُجوهٌ زهاها الحُسنُ ان تتقنّعا
تبالَهنَ بالعرفـان لمـا عرفنني ... وقُلنَ امروءٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا (٦)
وقرّبنَ اسبـابَ الهوى لمتيَّمٍ ... يقيسُ ذراعاً كلمـا قِسنَ إصبعا
فلما تنازعنَ الاحاديث قلنَ لي ... أخِفتَ علينا ان نُغَرَّ ونُخدَعا
فبالأمس أرسلنـا بذلك خالداً ... اليك وبيّنـا له الشأنَ أجمعا
فما جئتنا الا على وَفقِ مَوعدٍ ... على ملإٍ منّا خرجنا له معا (٧)
رأينا خلاءً من عُيون ومجلساً ... دَميثَ الرُّبى سَهلَ المحلّة مُمرِعا (٨)
وقلنـا كريمٌ نال وصل كرائمٍ ... فحقٌّ له في اليوم أن يتمتّعـا

(١) قوله واشريت فاستشري اي واشريت في الاطراء اي تماديت ولججت واهتممت به فاستشرى اي فعظم وتفاقم وفي الحديث حتى شري امرهما اي عَظُمَ وتفاقم ولجوا فيه . وقوله قد كان موزعا اي مولعاً (٢) قوله واشياعه الضمير للصبا اي ومن يميل اليه

(٣) قوله فيشنعا اي فيقبحا (٤) قوله اكتفل اي اكتفل بالكفيل وهو كساء يُدار حول سنام البعير . والباغي الطالب . وقوله ولا تكثر اي ولا تكثر في المقال بان تتورعا بان تتحشم وتكفّ عن سوء الادب (٥) قوله ازجي قعوداً موقعاً اي اسوق قعوداً وهو من الابل الذي يقتعده الراعي في كل حاجة وموقّع اي على ظهره اثر من كثرة ما يحمل (٦) يقول زعمنَ انهنّ لم يعرفنني وقلنَ هو باغٍ اسرع حتى اكلّ راحلته والوجه ان يقول اوضع فاكلّ من الكلال وهو الاعياء

(٧) قوله على وفق موعد معاً اي على موعد اتفقنا عليه معاً . وقوله على ملاء منا اي طمع منا

(٨) قوله دميث الربى اي سهلها . والمحلة منزل القوم . وممرعا مخصباً

حكاية شاعر

لخليل المطران عدَّة منظومات قصصيَّة منها ما هو اجتماعي كالجنين الشهيد – وشهيد المروءة – والوفاء – والعقاب . ومنها ما يدخل في باب العبر التاريخية كمقتل بزرجمهر – ونيرون – وفنجان قهوة – وفتاة الجبل الاسود . ومنها ما يعدّ من اللطائف كهذه القصيدة التي يرويها على لسان شاعر بدوي زار احدى القبائل فطلبت منه فتياتها ان ينشدهنَّ شيئاً من شعره فانشدهنَّ الحادثة التالية –

كان الاميرُ « مهنَّدٌ » بطلًا شهيراً في العشائرْ
من آل بـدرَ البـاسلين الباذلين ذوي المفاخر[1]
ينضمُّ تحت لوائهِ ألفٌ من الأُسْدِ القساور
رجلٌ كما تهوى المحامدُ خُلقهُ والخَلقُ باهر
ذو صولةٍ مشهورةٍ بين البوادي والحواضر
وشجاعةٍ في القلب تُخفيها العذوبةُ في النواظر
تخشى الليوثُ[2] لقاءهُ وتودّ رؤيتهُ الجآذر[3]
يهوى فتاةً من بني (حمَد)الكرام ذوي المآثر
لكنَّ بين ابي الفتاة وبينه وتراً لواتر[4]
فسعى ليخطبها على صُلحٍ فعادَ بسعي خاسر
فغزاهمُ برجالهِ وبكلِّ ذي ثأرٍ يضافر[5]
فتقابلوا يومين لم يظهرْ من الجيشين ظاهر[6]
حتى اغتدى ذاك العراك كأنه بعضُ المجازر
فدعا مهنَّدُ للبراز وقام يشهم[7] كلَّ حاضر

* * *

(١) هذه النعوت وامثالها من مألوفات شعر البادية (٢) الاسود (٣) الغزلان
(٤) ثاراً لطالبه (٥) يساعد (٦) لم يغلب احدها الاخر
(٧) يدعو دعوة المباهي

فاجابه منهم فتى متلثِّمٌ ضافي الغدائر
فتجاولا وكلاهما متقحِّمٌ كالصقر كاسر
حتى تحطَّمت الرماحُ فابدلاها بالبواتر
وتواثبا متهالكَين كلاهما جَلدٌ مكابر
وكلاهما متخضِّبٌ بدمٍ ولكن لا يحاذر
كان الملثَّمُ لا يُخالسُ مَقتلاً ممن ينافر[1]
بل يبتغي إجهادَهُ لينال منه وهو خائر
حتى استطاع فتلَّهُ عن سرجه للارض صاغر
وعلاهُ فهو مُروَّعٌ كالشاةِ تحت ركابِ ناحر
قال الاميرُ غلبتَني أفلست تعفو عفوَ قادر
فاجابه من فوره أبشرْ فانَّك أنتَ ظافر
ونضى اللثامَ[2] فاشرقتْ شمسٌ أشعَّتها ضفائر
كانت حبيبتَهُ التي خاضَ الردى فيها يخاطر
فتعاهدا وتعاقدا بدماهما لا بالخناصر
وتصالحَ القومان في عُرسٍ صفتْ فيه السرائر

(١) اي كان لا يرغب في قتل خصمه
(٢) ازال اللثام عن وجهه

عُروة وعفراء

لبشاره الخوري

اشتهر الشاعر عُروة بن حزام بحبه لابنة عمه عفراء. وقد نشأ يتيماً في منزل عمه منذ الصغر فتحابا. ولما بلغ مبلغ الرجال طلبها من عمه لكن والدتها كانت ترغب ان تزوّجها رجلاً ذا مال فاشار عليه عمهُ ان يرحل في طلب الغنى لعلّهُ يرجع بما تطلبه امرأة عمه من مهر الفتاة. فسار الى الريّ. وفي اثناء غيابه قدم رجل غني من انسباء بني امية في الشام اسمه أثالة فرأى عفراء. وعلق بحبها فخطبها ثم تزوّجها وحملها الى دياره

وعاد عروة بالمال المطلوب ولكنه كاد يصعق اذ علم بزواج عفراء. وحمله وجده الى منزل زوجها وكان هذا اريحياً كريم النفس فاستقبله واظهر له من الاريحية ما ترك في نفس عروة اعمق الاثر. فعاد وقد صمّم ان يقضي الحياة بعيداً عنها متحملاً لواعج الوجد وآلام الفراق. ولم يلبث ان مات. فلما سمعت بموته استأذنت زوجها واقامت له مأتماً ولم تزل تندبه حتى ماتت. وقد وضع شاعرنا هذه القصة في القصيدة التالية —

مهدَ الجمالِ ومسرحَ الغزلانِ حيثُ الهوى ضربٌ من الايمانِ
حيّتْكَ من أرواح عروة نفحةٌ قُدسيَّةٌ كالروح في الابدانِ
انا وفدُ ابناء الصبابة ساجدٌ من تُربِ عُذرة[1] في أذلِّ مكانِ
استنزلُ الوحيَ الذي ظفرتْ به شعراء عذرة في الزمان الفاني
فتسوغ في اذني «جميل» رنّتي وتطيب نفس «كُثيِّر» ببياني[2]

* * *

بَلدَ الهوى العذريَ وهو كنايةٌ عن حب اشرف مجمعٍ انساني
يتعانق الروحانِ فيكَ صبابةً ويعفُّ ان يتعانق الجسدانِ
فاذا سمعتَ بعاشقَين فقلْ هما ملَكان متّصلان منفصلانِ
ما دار ثمَّ سوى الحديث كأنه راحٌ يدير كؤوسها الملكان[3]

* * *

---

(١) عذرة اسم قبيلة اشتهرت بالحب الصادق (٢) جميل وكثيّر من شعراء الغزل المشهورين
(٣) يقصد هاروت وماروت ملكَي السحر

وُلد الفتى العُذري عروةُ بعدما … دارت بوالده رحى الحدثان
فاذا بعروة في مضارب عمِّهِ … (هُصَر) فكان هناك زُغلولان(١)
عفراء إبنتهُ مع ابن شقيقه … وكلاهما في العمر دون ثمان
لم يلبسا ريش الهوى لكنَّما … هو ريش احلام وريش أماني
واذا تضمُّهما الحقول فانها … ظفرتْ ببانستين من ريحان
يتراكضان بها فان هما بوغتا … فيها – فبالاوراق يختبئان
ولطالما وقفا على الوادي وقد … صرخا هناك ليلتقي الصَّديان
مُزجا فلو خطرتْ لعفرا فكرةٌ … بدرتْ بها من عُروة الشفتان
واذا التقى النظَران تلمع اسطرٌ … يعيي بجلِّ رموزها الولدان
حتى اذا كبرا تولَّى شرح ما … لم يفهما قلباهما الخفقان
فاذا الوداد هوى وصادف تربةً … بكراً فطاب مغارساً ومجاني

* * *

ويحَ المحبِّ اذا تملَّكهُ الهوى … نمَّت به عينان فاضحتان
عبثاً يحاول ذو الهوى كتمانه … عبثُ الهوى يقوى على الكتمان
فدرى به هُصَرٌ – وكان يسوءهُ … من عُروة ابن شقيقه يُتمان(٢)
واهمُّ يُتمَي عروةٍ في عينه … يُتمُ الغنى لو يسمعُ الابوان
لكنَّ عروة لم يسيء في عمِّهِ … ظناً وخال الامر في الامكان
فشكا اليه منه حبٍّ فتاته … شفتان تختلجان تختزلان
فاجابه هُصَرٌ – وكان مخاتلاً … ستنال مَن تهوى فكنْ بأمان

* * *

ما راعهُ الا مقالة عمِّهِ … – اني اراك عن الغنى متواني
سِرْ للشآم بمتجرٍ – فأطاعهُ … وعصا الفؤادُ وظلَّ في الاوطان(٣)

* * *

---

(١) الزغلول فرخ الحمام ويقصد بالزغلولين عروة وعفراء
(٢) اي يتم الاب ويتم المال   (٣) اي ظل فؤاده

بينا الفتى في الشام يكدح للغنى كانت حبيبته تُزَفُّ لشاني
فتنتْ محاسنها (أثالة) وهو من هُصَرٍ له نسبانِ ملتزمان
نسبُ الدماء وفوقه نسبُ الغنى نسبان محبوبان محترمان
فأناله عفراء صفقةَ تاجرٍ حَسْبُ البنات ملابساً وأواني

. . .

ما عاملٌ في الحقل حمّل يومَهُ ما ليس يحمل مثلَهُ الهرمان
يمشي لمنزله بنفسٍ مغالبٍ مُرَّ الشقا بحلاوة الوجدان
يمحو بفكرته عُبوسة دهره بتبسُّمٍ في آله وحنان
يمشي وما هو ان دنا حتى رأى في كوخه المحبوب سُحبَ دخان
ورأى اشتعال النار في اخشابه وبُكا النسا وتهافت الشبان
فأحسَّ بالجلّى فأسرع ليتهُ اودى ولم تسرع به القدمان
فرأى قرينتهُ الحبيبة جثةً ويجنبها ولداه محترقان
ما خطبُ هذا وهو اهول ما رأت عينٌ وما سمعتْ به اذنان
بأشدَّ مني قول الرواة لعروةٍ عفراء امستْ زوجةً لفلان

. . .

خلع النحول عليه اجفع ما ارتأى داء وابلى ما ما اكتساه عان
سَقَمٌ تشفُّ به الضلوع كأنها قِطَعُ الزجاج بمائل الجدران
فغدا به مثلاً تناقله الى اقصى القبائل ألسنُ الركبان

. . .

ما حاضرُ الروحاء[1] دون مناله وخدُ السُّرى في الأمعز الصوان
ليحول دون فتى الهوى وفتاته انَّ الهوى ضربٌ من الطيران
فمشى الى ارض الحبيب دليلهُ عينان انساناهما غرقان
يلقي القصائد في الطريق وحشوُها انفاسُ مكلوم الحشا ولهان

(١) حاضر الروحاء المكان الذي يقيم فيه أثالة مع عفراء . والامعز الصوان : الارض الصلبة

كالنعجة البيضاء حين مرورها بين الصخور وشائك العيدانِ
تلقي على الاشواك من اصوافها خُصلاً مخضّبةً بأحمرَ قانِ

. . .

ودرى أثالة ان عَمراً في الحمى وبها بعروةَ من هوًى وهوان
وأثالةٌ رجلُ المحامد بيته بيت الفخار وملتقى الضيفان
فأبت مروءته عليه أن يرى رجلاً كعروة مبعَداً متدانيِ
فمشى اليه عاتباً : « أفأنت في بلدي ولست لخيمتي وخِواني
اني عزمتُ عليك انّك نازلٌ عندي والاَّ ساءني حرماني
– عذراً فاني راجعٌ لحوادثٍ نزلتْ بنا ما كنَّ في الحسبان
لا عذرَ ! لا ! لا عذر
أنظرني إذن
لغدٍ
– إذن فجرُ النهار الثاني

وتفارقا ، فاذا بعروة رُجمةٌ (١) تهوي ، عليها انقضّ صاعقتان
واشار نحو أثالة بجفونه ستَرى المروءة اننا كفؤان

. . .

هجر الديار لوقته تسعى به قدمانِ هازلتان شاكيتان
هجر الديار ديار عفراء التي طبعت حشاشته على الاحزان
حتى اذا «وادي القرى» رحبتْ به رحبتْ بشِلوٍ لُفَّ في اكفان (٢)
جثمانه في القبر لكن روحه ابداً مرفرفةٌ على الوديان

. . .

رنَّ النعيُ باذن عفراء ؛ فهل شاهدتَ غصناً من رطيب البان
لعبتْ به هُوجُ العواصف فالتوى متقصِّفاً وأُصيب بالرَّجفان
فأتتْ أثالةَ والدموع سوابحٌ فتلثّم الفضيِّ بالمرجان

(١) يشبّهه لفرط ما اصابه برجمة حجارة انقضت عليها الصواعق
(٢) الشِلو مفرد اشلاء وهي اعضاء الانسان بعد البلى – عبارة عن موته

قالت : لتعلمُ انَّ عروةَ كان لي إلفاً ونحن وعروةٌ حدثان
وعلمتَ ان هواه لا عن ريبةٍ يجزى بها رُجلي ويخفض شاني
هلا أذنتَ بأن ازور ترابـه أفما ابي وابو الفتى أخوان
– مَن ذا يانع ان تفيه حقَّهُ ؟ سيدي
– فما هي غير بعض ثوان
حتى رأيتَ بقبر عروةَ بانةً محنيّةً – وا لهفتا للبان !
وسمعتَ آيةَ زفرةٍ وشهدتَ أيـةَ ثورةٍ ولمستَ ايَّ حنان
٠٠وا عروتاهُ !٠٠ولم تتم نداءها حتى ارتمت . فاذا هنا ميتان

...

ضمُّوا الفتاة الى الفتى في حفرةٍ من فوقها غُصنان ملتفَّان
روحان ضمَّهما الهوى فتعانقا وتعاهدا فتعانق الكفنان

الشاعر والامّة

قصة شعرية لايليا ابو ماضي – مغزاها ان استبداد الحاكم او فساده راجع الى ضعف الشعب ورضاهم بالخضوع للاستبداد . فكأنما هي تفسير للقول المأثور – وكما تكونون يولّى عليكم –

خيرُ ما يكتبـهُ ذو مرقمٍ قصّةٌ فيها لقومٍ تَذكرهْ
كان في ماضي الليالي امّةٌ خلعَ العزُّ عليها حِبَرَهْ
يجدُ النازلُ في اكنافها اوجهاً ضاحكـةً مستبشره
ويسير الطرف من ارباضها في مغانٍ خالياتٍ نضره
لم يَقس شعبٌ الى امجادها مجدَهُ الباذخ الا استصغره
هَمُّهـا في العلم تُعلي شأنهُ بينها والجهلِ تمحو اثره
ما تغيب الشمس الا أطلعت للورى محمدة او مأثره

فتمنى الصبح تغدو شمسه ... وتمنى الليل تغدو قمره
ومشى الدهر اليها طائعاً ... فمشت تائهة مفتخره

. . .

كان فيها ملك ذو فطنة ... حازم يصفح عند المقدره
يمشق الامر الذي تعشقه ... فاذا ما استنكرته استنكره
بلغت في عهده مرتبة ... لم تنلها امة او جمهره
فاذا اعطت ضعيفاً موثقاً ... اشفقت اعداؤه ان تخفره
واذا حاربها طاغية ... كانت الظافرة المنتصره
مات عنها فاقامت ملكاً ... طائش الرأي كثير الثرثره
حوله عصبة سوء كلما ... جاء إدًّا اقبلت معتذره (١)
حسنت في عينه آثامه ... واليه نفسه المستكبره
وتمادى القوم في غفلتهم ... فتمادى في الملاهي المنكره
زحزح الامة عن مركزها ... وطوى رايتها المنتشره
فهوت عن عرشها منعفره ... مثلما ترمي بسهم قبره

. . .

كان فيها شاعر مشتهر ... ذو قواف بينها مشتهره
كلما هزت يداه وتراً ... هز من كل فؤاد وتره
تعس الحظ وهل اتعس من ... شاعر في امة محتضره ،
يقرأ الناظر في مقلته ... ثورة ظاهرة مستتره
ما يراه الناس الا واقفاً ... في مغاني قومه المندثره
حائراً كالريح في اطلالها ... باكياً كالسحب المنهمره
وهي في اهوائها لاهية ... وكذاك الامة المستهتره
ما رأت مهجته المنفطره ... لا ولا ادمعه المنحدره

(١) جاء ادًّا : فعل امراً منكراً

فشكاه الشعرِ مما سامهُ وشكاهُ الليل مما سهره
ثمَّ لما عبث الناس به مزّق الطرس وشجّ المحبره

. . .

مرَّ يوماً فرأى اشياخها جلسوا يبكون عند المقبره
قال ما بالُكمُ ما خطبُكم أيُّ كنزٍ في الثرى او جوهره ؟
ومن الثاوي الذي تبكونه قيصرٌ ام تبّعٌ ام عنتره ؟
قال شيخٌ منهمُ محدودبٌ ودموع اليأس تغشى بصره
ان من نبكيه لو ابصره قيصرٌ ابصرَ فيه قيصره
كيف يا جاهل لا تعرفه وحُداة العيس تروي خبره(١)
هو مَلِكٌ كان فينا ومضى فمضت ايامنا المزدهره
وابتُلينا بعده في ظُلَمٍ داجياتٍ فوقنا معتكره
والذي كان بنا « معرفةً » لصروف الدهر امسى « نكِره »
فانتهى التاجُ الى معتسفٍ لم يزلْ بالتاج حتى نثره
كلُّ ما تصبو اليه نفسه مُعصِرٌ او خمرةٌ معتصره(٢)
مستهينٌ بالليالي وبنا مستعينٌ بالطغام الفجره
كلما جاء اليه خائن واشياً قرّبه واستوزره
فاذا جاء اليه ناصحٌ شكّ في نيّاته فانتهره
مستبدٌّ باذلٌ في لحظةٍ ما اذّخرناه له واذّخره
يهب المرء وما يملكهُ وعلى الموهوب ان يستغفره
هزأ الشاعر منهم قائلاً بلغ السوس اصول الشجره
رحمة الله على اسلافكم انهم كانوا تقاةً بررَه
انَّ من تبكونه يا سادتي كالذي تشكون فيكم بطره
انما بأس الأُلى قد سلفوا قتلَ النهمة فيه والشرَه
فاحبسوا الادمع في آماقكم واتركوا هذي العظام النخره

(١) العيس الجمال (٢) المُعصر الفتاة

لو فعلتم فعلَ اجدادكمُ ما قضى الظالم منكم وطره
ما لكم تشكون من محنتكم؟ رُضتمُ السُنكم ان تشكره
وجعلتم منكمُ عسكره وحلفتم ان تطيعوا عسكره
كيف لا يَبغي ويطغى آمرٌ يتَّقي اشجعُكم ان ينظره
ما استحال الهِرُّ ليثاً انما أُسدُ الآجام صارت هِرَرَه
واذا الليثُ وهت اظفاره انشبَ السِنَّور فيه ظُفُره

عَليا وعِصام

واقعة عربية مؤثّرة بقلم قيصر المعلوف

« رُلى » عربٌ قصورُهم الخيامُ ومنزلهم حماةٌ والشآمُ (١)
اذا ضاقت بهم ارجاء ارضٍ يطيبُ بغيرها لهمُ المقامُ
غزاةٌ ينشدون الرزق دوماً على صهوات خيلٍ لا تُضام
غرامُهمُ مطاردة الاعادي وعزمُهمُ الاسنَّة والسِهام
اذا ركبتْ رجالُهمُ لغزو فما في رهطهم بطلٌ كهام (٢)
ولا يبقى من الفرسان الا عجايا الربع والوُلدُ الفِطام (٣)
وكانت من عجايا الربعِ عليا ومن عُجيانه النُجبا عِصام
لقد نشآ رعاةً للمواشي كما ينشا من العربِ الغلام
هناك على الولا عقدا الايادي وعاقد حبلَ قلبهما الغرام

• • •

(١) رلى او روله اسم قبيلة عربية معروفة (٢) رهط قوم ، كهام ضعيف
(٣) عجايا جمع عجية وهي الفتاة الفاقدة امها

ولما اصبحت عليا فتاةً   يليقُ بها التحجُّب واللِّثام
وصار عصام ذا زندٍ قويٍ   يُهَزُّ به المهنَّد والحسام
دعتهُ أمُّهُ يوماً اليها   وقالت يا حسامي يا عصام
لقد اصبحت ذا زندٍ شديدٍ   به يستأنس الجيش اللُّهام(١)
بثأرِ ابيك خذْ من قاتليه   وإلاَّ عابكَ العربُ الكرام
فصاح وهل ابي قد مات قتلاً   وأنّى(٢) يُقتل البطل الهمام
بحقّ المصطفى ما ذقتُ عيشاً   اذا عاشت اعادينا اللئام
ألا سَمّي لي الاعداء حالاً   فما للصبرِ في قلبي مُقام

. . .

ابو عليا الغريمُ بُنيَّ فانهضْ   فهذا الدرعُ درعُكَ والحسام

. . .

فصاحَ وقلبه المضنى خفوقٌ   ابو عليا أأمّـاه المرَام؟
نعم فارْوِ الأسنّةَ من دماهُ   ولا يمنعْك عن شرفٍ غرام
والأَ عشتَ بين العُرْب نذلاً   رِداك الذلُّ والعارُ الوسام
فحلَّ عصام مُهرَتَه سريعاً   وسار وسُحْبُ مدمعهِ سِجام(٣)
وكان ابو حبيبته وحيداً   على مُهرٍ اضرَّ به الجَمام(٤)
هناك تبارز الخصمان حتى   على رأسيهما عُقِدَ القتام(٥)
عصامٌ ارسلَ الطعَنات تترى   فقُدَّت من مُبارزهِ العظام
وعاد لأمِّه جذِلاً طروباً   فصاحت ما وراءك يا عصام
فجرَّد سيفه الدامي ضحوكاً   فقال لها أبشري قُضيَ المرام

. . .

وبينَ هما بضحكٍ اذ بعليا   وقد ادمى مباسِمها اللّطام
فقالت يا عصام ابي قتيلٌ   ألا فاثأر لعليا يا همام

---

(١) اللهام العظيم   (٢) كيف   (٣) دمع سجام اي سائل   (٦) الجمام الراحة
(٥) القتام اي الغبار

فمن لي غيرُ زندِكِ في الرَّزايا … اذا عمَّ البلا وطما العُرام(١)
فقال لها أبشري عليا فاني … لأهل العهد في الدنيا إمام
لسوف تَرَيْنَ قاتله قتيلًا … وانصتَ ما اتمَّ له كلام
واغمدَ سيفه بحشاه حالاً … فخرَّ وللكُلوم به كَلام(٢)
ولمَّا شاهدته في هواها … قتيلًا يستقي دمَه الرَّغام(٣)
نضَتْ من صدرهِ الهنديَّ حالاً … وقالت لا تمُتْ قبلي عصام(٤)
سأثأر من غويّك يا حبيبي … كذاك العهدُ يقضي والذِّمام
واغمدتهِ الحسامَ بها وقالت … على الدنيا ومن فيها السلام

ومما يذكر من امثلة الشعر القصصي : الفقر والسقام للرصافي – والجمال والكبرياء ، ومن العرس الى الرمس لشبلي الملاط – والجمال والتواضع لامين تقي الدين – وحديث بيت المقاد – والربال المزيف لبشاره الخوري – والعذراء للزركلي – ووادي العقيق لفارس سعد – والمجدلية لسعيد عقل – وغلواء لالياس ابو شبكه – وزينب وخالد لخيري الهنداوي – « وليجيا » او انتصار الحب للمؤلف

كلمة ختاميَّة

عند هذا الحدّ نقف الآن راجين ان يكون هذا الكتاب بمقدماته ومختاراته اداةً صالحة لتوجيه المتأدبين توجيهاً فنياً صحيحاً فيرون في تراثنا الادبي ما هو جدير بالبقاء ، ويتذوَّقون منه ما يزيدهم شهوة الى ما فيه من جمال وسناء . واذا أُتيح لنا ان نعيد طبعه فسيكون همُّنا أن ننقحه بالزيادة او النقصان ، حتى يكون اقرب الى الغرض المنشود وادلّ على الادب الحيّ في كل زمان ومكان

ا.خ.م.

---

(١) العرام اي الاذى (٢) الكلوم اي الجراح (٣) الرغام التراب
(٤) نضت استلت . الهندي السيف

اصلاح خطأ

وقعت في هذه الطبعة اغلاط مطبعية اكثرها لا يخفى على الاديب على اننا قد رأينا ان نلفت النظر الى ما يلي منها –

صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
٥٩	٢	ممالك	ماليك
٦٩	١	صفّين	صفان
٨٩	١٦	اذعانه	ادّعائه
٨٨	١٥	السير	السَّير
٩٢	٩	غير مائه	ماءه (بحذف غير)
٩٢	١٤	طأمن	طمأن
٩٣	١٦	الحت	الحَت
٩٣	١٧	داثره	دائره
١٢٣	الموضوع	الريحاني	الريحاني
١٣٩	١١	لاقتل	لاقيل
١٤٤	٧	قال النفس	قال الناس
١٤٥	٦	اعطيانكم	اعطياتكم
١٧٨	١٧	الصخرُ	الصخر
١٨٣	١٩	وادخلتني	وداخلتني
٢٠٦	١٨	وهلالُ	وهلالَ
٢٠٨	٨	واثارا	واثارا
٢١٢	البيت ١	ويا	أيا
	البيت ٣	أيا	ويا
٢٢٣	الحاشية ٩	يكفاني	يكلفني
٢٥٥	البيت الاول	هما	همى
٢٦٩	« «	نُور وروده	نَور
٢٧٣	الحاشية ٤	افاقها	آنافها

من مؤلفات صاحب الكتاب

امراء الشعر العربي
في العصر العباسي

يقع في نحو ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير . وهو دراسات تحليلية وافية لادب ثمانية من اشهر شعراء العرب ، وللجو السياسي والاجتماعي والفكري الذي نشأوا فيه . وهم ابو نواس – ابو العتاهية – ابو تمام – البحتري – ابن الرومي – المتنبي – المعري – ابن الفارض –

تطوّر الاساليب النثرية
في الادب العربي

يقع في نحو ٤٥٠ صفحة كبيرة ويتناول النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الاسلام الى النهضة الاخيرة . ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من امراء الاقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية

الدول العربية وآدابها
الطبعة التاسعة

موجز في تاريخ الادب يتناول اخبار الدول العربية وما نشأ فيها من الآداب . وفيه تراجم اشهر الشعراء والكتبة وامثلة من اجود ما روي لهم

وهناك مؤلفات اخرى تطلب قائمتها من صاحبها او من المطبعة الاميركانية في بيروت